



المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة - الانتساب المطور

(١١٢)

مقرر التوحيد

المستوى الخامس

أستاذ المادة:
د . حمد التويجري

(المذكرات تم تفرغها سماعاً من المحاضرات الصوتية)

إعداد طلاب وطالبات كلية الشريعة

انتساب مطور

نسخة مدققة و مزيده

١٤٣٣هـ

(كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية)

﴿تقديم﴾

هذه هي الطبعة النهائية لمذكرات كلية الشريعة انتساب مطور تعليم عن بعد وقد اعتمدت بتوفيق من الله بعد أن تم تدقيقها أكثر من مرة من قبل طلاب وطالبات كلية الشريعة انتساب مطور واخترنا أفضلها تدقيقاً وتم تلوينها وتنسيقها لتكون هي الطبعة النهائية ولأنها جهد بشري لا يخلو من الخطأ ولا يصل للكمال فنرجو عند وجود خطأ أو ملاحظة كتابة تنبيه في الموضوع المخصص لذلك في منتدى المستوى الخاص بالمذكرة في منتدى مكتبة كلية الشريعة: www.imam8.com

وسوف يتم تصحيح الأخطاء بعد التنبيه عليها من قبل القائمين على إعداد المذكرات

ونسأل الله جزيل الثواب لكل من يعين على ذلك ويشاركنا فيه

(مجموعة إعداد مذكرات كلية الشريعة انتساب مطور)

الحلقة (١)

﴿ مقدمة في أهمية علم العقيدة ﴾

إِنَّ الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

يطيب لنا أن نبدأ حلقات مادة التوحيد للمستوى الخامس لكلية الشريعة ، ومعلوم أن فقرات المنهج ومفرداته وضعت بناء على مرجع محدد وكتاب محدد ؛ ألا وهو شرح "العقيدة الطحاوية" ، ولهذا يلاحظ أن مفردات المنهج في الترتيب قد تواءمت مع ترتيب المؤلف - رحمه الله - الذي هو : ابن أبي العز الحنفي . وسبق لك أيها الطالب الكريم ، وأيتها الطالبة أن درست في المستوى الأول ، والمستوى الثالث ؛ أجزاء من هذا الكتاب . والكتاب له عدة تحقيقات ، ومجموعة من الطبقات ؛ والطبعة التي بين يدي هي التي بتحقيق الدكتور عبد الله التركي ، وشعيب الأرنؤوط .

ويبدأ المنهج في هذا الكتاب وهذه النسخة من صفحة (٥١١) ، من الجزء الثاني . ولهذا لا بد لك أيها الطالب ، وأيتها الطالبة أن يكون الكتاب بين يديك ، وأن تتابع معنا من خلال ما هو موجود في الكتاب ؛ لأن فقرات ومفردات المنهج وضعت بناءً على ترتيب المؤلف في هذا الكتاب .

أركان الإيمان :

أولى المسائل التي سنبدأ بها هي ، قول المؤلف : " والإيمان هو الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وحلوه ومُره من الله تعالى " ، أشار الشارح - رحمه الله - أنه تقدم الكلام على " أصول الإيمان الستة " ، وأنها هي التي أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في حديثه المشهور الطويل الثابت في الصحيحين ؛ عندما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم : (وجلس إليه ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذه ، وقال له : يا محمد ما الإسلام ؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، ثم سأله عن الإيمان ، فقال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) ، وسأله عن الإحسان ، فقال له : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك) . وجاءت هذه "الأصول" - أيضا كما تقدم لكم - في أول الكتاب ؛ جاءت في قول الله عز وجل - في آخر سورة البقرة - : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } وجاءت أيضا في قوله سبحانه : { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ } ... الآية ، وجاء أيضا في قوله سبحانه : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } . أيضا ثبت في الصحيحين - في حديث وفد عبد قيس - أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمرهم بأربع : أمرهم بالإيمان بالله وحده ، وقال : (أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس) .

مسألة : لا يثبت إيمان إلا بالعمل مع التصديق

لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بدون إيمان القلب ! فلا بد للعمل من إيمان القلب ، فإيمان القلب جاء في نصوص كثيرة لا حصر لها .

الشاهد : أنَّ نصوص الكتاب والسنة دلت على أنَّ الإيمان مُرَكَّب من :

أ - الاعتقاد .

ب - والعمل .

فلا بد مع العمل من التصديق ، ولهذا جاء في قوله سبحانه : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } . وقوله سبحانه : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } وقوله جل وأعز : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } يلاحظ أن الله عز وجل - هنا - ذكر أنَّ المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه ، وهذا عمل . أنَّ المؤمن الذي آمن بالله ورسوله ، ثم لم يرتاب ؛ أي لم يشك ، ولم يتردد - وهذا عمل قلبي - أيضًا - أن المؤمن الحق الذي يُحَكِّم النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يرد عليه ، ويسلم لحكمه تسليماً ، ولا يجد في قلبه حرجاً . قد يقول قائل : أليس بين قول النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره للإيمان ؛ في حديث وفد عبد قيس : (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة) ، وقال في حديث جبريل : (أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله) .

مسألة : فقد يقول قائل : هذا فيه تعارض بين الحديثين ! يقال : لا تعارض بين الحديثين - والله الحمد والمنة - فإنَّ حديث جبريل سبق وأن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام ، ثم أخبر عن الإيمان ؛ فكأنَّه قال الإيمان هذه الأركان الستة بالإضافة إلى ما تقدم من ما ذكرته عن الإسلام ، وأيضاً ما سأذكره عن الإحسان . أما في حديث وفد عبد قيس فإنَّه لم يتقدم الكلام في تفسير الإسلام ، ولهذا أجاب النبي صلى الله عليه وسلم بما دُكر في حديث وفد عبد قيس .

مسألة : إذا كان ما أوجبه الله عزَّ وجلَّ من الأعمال الظاهرة أكثر من هذه الخصال الخمس (التي ذكرت في حديث وفد عبد قيس) ، فلِمَا فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام بهذه الخصال الخمس؟ والإيمان بما دُكر؟ علماً أن الله أوجب أكثر من هذه الخصال المذكورة ! ذكر بعض أهل العلم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكر هذه الشعائر الظاهرة ، وهي أعظم شعائر الإسلام ، فخصَّها بالذكر دون غيرها ، وبَيَّن أن من استسلم لهذه " الأصول الخمسة " ، فمن باب أولى أن يستسلم لغيرها ، ومن تحلَّل من قيد هذه الأصول الخمسة (بمعنى أنَّه تجرد عنها ، تهاون فيها) ، فهو لِمَا سواها أكثر تهاوناً . لكن الجواب الأرجح ؛ وهو ما أشار إليه الشارح : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين (الذي هو الإسلام ، أو استسلام العبد لربه مطلقاً) ، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان (على الجميع) ، لا يستثنى من هذا أحد (على جميع الخلق) ؛ الشهادة ، الصلاة ، الزكاة ، الحج ، الصوم ؛ هذه لا يُستثنى منها أحد ، وهي حقٌّ خالص لله عز وجل ، ولهذا خصَّها بالذكر ؛ لأنَّه لا يمكن للإنسان المسلم أن يتجرد عن هذه الخصال الخمس ، بخلاف ما سواها ، فإنَّها تجب بأسباب ، ومصالح - أحياناً - ، فلا يعمُّ وجوبها جميع النَّاس ، بل قد تكون من باب : فروض الكفاية ؛ كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يتبع ذلك من إمارة ، وحكم ، وفتيا ، وإقراء ، وتحديث ، وغير ذلك . وقد يكون هذا الواجب بسبب : حقَّ آدميين ، ولهذا ما يجب على كل النَّاس . يجب على من أختصَّ به (من وجب له ، أو وجب عليه) ، ولهذا يسقط بإسقاط من له الحق .

مثال ذلك : قضاء الديون . قضاء الدين واجب على المسلم ، لكن هل هو واجب على الجميع ؟ لا ! يجب على من لحقه دين من استدان ، ولو أسقط الدائن حقه على المستدين ؛ سقط هذا الواجب ، كذلك ردُّ الأمانات ، كذلك المغصوب ، كذلك الإنصاف من المظالم في الدماء والأموال والأعراض ، وحقوق الزوجة ، والأولاد ، وصلة الأرحام . كل هذه حقوق متعلقة بآخرين ، فهي ليست عامَّة ؛ كما هي الحال في الشعائر الخمسة التي ذكرها النَّبي صلى الله عليه وسلم .

الخلاصة : وبهذا الجواب يتضح أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خصَّ هذه الخصال الخمس لماذا ؟ لأنها واجبة على الأعيان للجميع ، وهي حقٌّ محضٌ لله عزَّ وجلَّ .

مسألة : الإيمان بالقدر خيره وشره :

قول المؤلف : " والقدر خيره وشره ، وحلوه ومُره من الله تعالى " . فتقدم أيضا الكلام على مسألة القضاء والقدر ، لكن هنا بعض المسائل التي يحسن التنبيه عليها ، وينبغي للطالب أن يتنبه لها ، خاصة وأنَّها لم ترد فيما تقدم - من ذلك : أنَّ القدر جميعه من الله - كما ذكر المؤلف - : الخير والشرَّ ، الحلو والمُرَّ ، الدليل على ذلك ، قوله سبحانه : {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} . فكل شيء مكتوب من الله عزَّ وجلَّ ؛ سبق به الكتاب ، سبق به العلم ، سبق به القدر ، ويقول سبحانه : {وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}

الشاهد : " كلُّ من عند الله " ؛ الحسنة والسيئة ، مع أنَّ الله سبحانه قال : {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} . ولهذا لا بد أن نجمع بين هذه الآية وبين التي قبلها ؛ " كلُّ من عند الله " ، وقول سبحانه {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} . الجمع بين هاتين الآيتين أمر يسير : - انتبه - قوله سبحانه : " كلُّ من عند الله " ؛ أي : " الحِصْبُ والجد " - كما ذكر المؤلف - و " النصر والهزيمة " ؛ الكلُّ منه سبحانه وتعالى . أما قوله : {فَمِنْ نَفْسِكَ} أي ما أصابك من سيئة ؛ فبسبب معصيتك ، فبسبب ذنبك ! الله عز وجل كتبها عليك ؛ بسبب الذنب الذي ارتكبته ، فأنت الذي تسببت في عقوبة هذه المعصية ؛ لأنَّ المعصية وقعت ممَّنْ منك أنت ، ولهذا يتبين أنه لا منافاة بين الآيتين ، فقوله سبحانه : " كل من عند الله " ؛ أي الكل بتقدير الله . أما قوله : {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} ؛ أي بسبب نفسك ؛ أنت الذي تسببت فيها ، مع أنَّ الله كتبها عليه . ويشهد لهذا ما رُوِيَ عن ابن عباس ، أنه قال : - في قوله سبحانه - {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} وأنا أكتبها عليك . قال : " من نفسك " ؛ أنت الذي تسببت فيها ، لكن أنا الذي كتبتها عليك .

المراد بـ " الحسنة " ، في هذه الآية هي : التَّعَمُّعُ . و " السيئة " ؛ هي البليَّةُ .

تنبيه : أيضا ينبغي التنبيه أنَّه ليس للقدريَّة (الثُّفَاة) ، الذين زعموا أنَّ العبد هو الذي يخلق فعل نفسه استقلالاً ! وأنَّ الله عز وجل لا يخلق فعله ! ولا يشاءه منه ! لكن ليس لهم متمسك بهذه الآية ، وليس لهم أن يحتجوا بهذه الآية ؛ أعني بقوله سبحانه : {فَمِنْ نَفْسِكَ} ، والسبب : أنهم زعموا : أنَّ الحسنة والسيئة كلُّها من العبد ! وأنَّ العبد هو الذي يخلقها ، وهو الذي يشاءها استقلالاً ! علما أنَّ الله عز وجل في هذه الآية فرَّق بينهما !! ولهذا لا متمسك لهم بهذه الآية . الله فرَّق بينهما ، وأنتم جمعتهم بينهما ، فالله سبحانه وتعالى ، قال : " كلُّ من عند الله " ، وقال في الآية الأخرى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} القدريَّة النفاة قالوا : لا . الكلُّ من العبد ! ولهذا خالفوا الآية الأولى ، وخالفوا الآية الثانية ! تمسكوا فقط بجزء من الآية الثانية ! وهذا ديدنهم دائما ؛ كحال أهل البدع ! " يؤمنون ببعض الكتاب " ، ويتركون البعض الآخر ، يأخذون جزءاً من الآيات ، ويستدلون بها ، ويغضوا أعينهم عن الآيات الأخرى .

مسألة : أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يخلق شراً محضاً :

إذا كان الجميع من الله ، والله يخلق الخير والشرَّ ، والحلو والمُرَّ . فهل يقال : أنَّ الله يخلق شراً محضاً ؛ (يعني شرَّ خالص تماماً ؛ لا خير فيه) ؟ الجواب : لا . والله منزَّه أن يخلق شراً محضاً ، ولهذا جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم - في دعاء

الاستفتاح ، كما أخرجه مسلم - : (والخير كله بيدك ، والشر ليس إليك) ؟ قد يقول قائل : كيف تقولون : أن الله لا يخلق الشر ، وأنتم تقولون : أن الله قدر الشر والخير ، وخلق الشر والخير ؟ نعم ، نقول : " خلق الشر والخير " ، لكن هذا الشر ليس بشر محض (بمعنى شر خالص لا خير فيه) ، هذا يستحيل ، ويتنافى مع حكمة الله عز وجل ، ويتنافى مع عدل الله . إذن هذا الشر الذي خلقه ، ما نوعه ؟ نوعه : شر نسبي ، ولهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الشر ليس إليك) ؛ أي الشر المحض . أنت منزّه عن الشر المحض . فكل ما خلقه الله عز وجل من الشر ، فإنما هو شر نسبي :

أ - بالنسبة لما أضيف له ؛ كقوله سبحانه : (من شر ما خلق) .

ب - أو قد يكون : شر بالنسبة لأقوام ، خير بالنسبة لأقوام آخرين ، شر في حال ، وخير في حال أخرى ، شر في وقت ، وخير في وقت آخر . وعلى كل حال : فالشر المحض لا يضاف إلى الله عز وجل ، ولهذا حتى من باب الأدب ؛ لا يضاف الشر إلى الله ، نعم الله خلق الشر ، لكن ليس الشر المحض ، فإذا ذكر الشر ، فينسب إلى ما خلق ، فيقال : " من شر ما خلق " ، أو يقال : " الله خالق كل شيء " ، كما قال تعالى : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } ولهذا تأدب مؤمنوا الجن ! ماذا قالوا ؟ : { وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } . " الرشد " ، نسبوه إلى الله . أما " الشر " ؛ لا ، فبنوه للمجهول . فإذا ذكر الشر ، لا ينسب إلى الله مباشرة . إما ينسب للمخلوق : (من شر ما خلق) ، أو يبنى للمجهول : { أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ } . أصل الآية : أشر أراد الله بمن في الأرض ، لكن تأدباً مع الله عز وجل في الحديث ؛ لم ينسبوا الشر إلى الله عز وجل ، ولهذا لما كان تأييد " المتنبي " بالآيات ، والمعجزات ، والمد له في عمره ، وفي سلطانه ؛ شراً محضاً ، لم يكن هذا ! لم يقع هذا ! فإن الله عز وجل لا يمكن أن يمكن المتنبي ؛ للشر الذي يتسببه هذا الشخص ، بخلاف مثلاً : الملك الظالم ! الملك الظالم ليس شراً محضاً ، شر بالنسبة لبعض الناس ، لكن خير لبعض الناس ، ولهذا يقال أربعين سنة أو ستين سنة بإمام ظالم ، خير من ليلة واحدة بلا إمام ، لما يحدث في هذه الليلة من الظلم ، وسفك الدماء ، وانتهاك الحرمات ، وسلب الأموال . بخلاف المتنبي ؛ فإنه شر ، ولهذا سرعان ما يقصمه الله عز وجل ، ويبين كذبه وخزيه للناس .

الحلقة (٢)

قد سبق الكلام فيما مضى ؛ هل ينسب الشر إلى الله عز وجل ؟ وذكرنا أن الشر المحض لا ينسب إلى الله . نلخص ما مضى في النقاط التالية :

الأمر الأول : أنه لا يكون في هذا الكون شيء إلا بتقدير الله عز وجل ، ولهذا قال سبحانه : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا } . وقال سبحانه : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } وقال جل وعز : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } . فكل ما في هذا الكون من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ، وخصب وجذب ؛ الكل من الله ، لا يخرج شي عن إرادته ، وخلق ، وتكوينه سبحانه وتعالى .

الأمر الثاني : أن للقدر وجهان :

الأول : تعلقه بالله ؛ أي صدره عنه سبحانه خلقاً ، وإيجاداً ، وعلماً ، وكتابةً ، ومشئته ، وإرادته .

وجه آخر : تعلقه بالإنسان ؛ في وقوعه عليه ، أو صدره عنه .

إذاً القدر له تعلق بالله من حيث ؛ المشيئة ، من حيث العلم ، من حيث الكتابة ، من حيث الخلق ، من حيث الإرادة ، ومتعلق بالعبد من حيث ؛ صدور هذا الفعل عنه ، أو صدور هذا الأمر عليه .

الأمر الثالث : أن الشر لا ينسب لله عز وجل استقلالاً وابتداءً ، وإنما ينسب إليه بأن يدخل في عموم قوله : { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } .

شيءٍ}. وهذا من باب التأدب مع الله سبحانه وتعالى : " كل من عند الله " ، أو يضاف إلى السبب ، كقوله سبحانه : { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } . وكما ذكرنا في الحلقة السابقة أنّه من فقه الجن أنّهم لم ينسبوا الشرّ إلى الله ، ولهذا قالوا : { أَشَرُّ أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ } .

الأمر الرابع: أنّه لا يُنسب الشرّ إلى الله إفراداً (وهو الشرّ المحض) ، بل كلّ ما خلقه الله ، وصدر عنه ، فهو خير وحكمة لا شر فيه ، وإنّما الشرّ الذي يظهر لنا ؛ هو شرّ نسبيّ متعلّق بهذا الشيء الذي صدر عن هذا الشرّ . أمّا الله عزّ وجلّ لما خلق هذا الشرّ ، فإنّه خلقه لحكمة ، أدركنا هذه الحكمة ، أو لم ندركها ، بلغتها عقولنا ، أو لم تبلغها ؛ لأنّه ليس للعقل أن يدرك جميع حكم الله عزّ وجلّ ، فظهر لنا من حكم الله أشياء ، وغاب عنا الكثير والكثير .

الأمر الخامس: أنّه يجب الإيمان بالقدر كلّ من غير استثناء ؛ خيره وشرّه ، حلوه ومره .

مسألة : هل يجب محبة كل ما قضاه الله وقدره ؟ الجواب : لا - وهذا سبق أن مرّ عليكم في المستويات السابقة - المحبة شيء ، والإيمان شيء آخر . فإذا كان الله عزّ وجلّ خلق المعاصي وقدرها ، وشاءها بالمشيئة الكونية ، فلا يلزم من هذا أن نحبّ هذه المعاصي ؛ لأنّ الله يخلق الشيء ويبغضه ، يشاءه ويكرهه ، يريدّه ولا يُحبّه ؛ يريدّه كوناً ، ولا يحبّه شرعاً - وتقدّم الكلام على هذه المسألة فيما تقدم - .

مسألة : انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر :

وذلك عند قوله : " وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النَّار لا يخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون " .

هذا المقطع فيه عدة مسائل :

المسألة الأولى : مسألة الذنوب ، وهل هي منقسمة ، أو ليست منقسمة :

بمعنى هل الذنوب تتنوع ، أو هي نوع واحد ؟ للسلف في هذه المسألة قولان :

القول الأول : فذهب بعض السلف إلى : أن الذنوب كلّها معاصي ! ولا يمكن تقسيمها إلى كبائر وصغائر ، لماذا ؟ قالوا : لأنّ الجميع هتك حرّمة الله ؛ بمعنى وقوع في حرّمة الله ؛ سواء صغيرة أو كبيرة ، فمن فعل الصغيرة ، فيعتبر أنتهك حرّمة الله عزّ وجلّ ؛ الله نهى عن هذا الأمر . مثل : لو افترضنا أنّ النظرة المحرّمة تعتبر صغيرة ! الله عزّ وجلّ نهاك أن تنظر إلى ما حرّم الله ، فقالوا : هذا فيه انتهاك لحرّمة الله ؛ فهي معصية ، فلا نقول إنّها صغيرة أو كبيرة ؛ لأنّ الذنوب كلّها انتهاك لحرّمة الله ؛ فلا تتنوع إلى كبائر وصغائر ، بل كلّها ذنوب ومعاصي .

أدلتهم : في الواقع ليس لهم أدلة نقلية صريحة ، إنّما كلّ ما أدلّوا به تعليقات ، فقالوا :

١ - أنّها بالنظر إلى وقوعها في حق الله ؛ أنّها كلّها معاصي ، وكلّها جريمة ، وكلّها خطيرة .

٢ - أيضاً قالوا : لأنّ في تقسيم الذنوب صغائر وكبائر ما يُجرئ على الوقوع في الصغائر ، وهذه الصغائر تجر صاحبها إلى ما هو أكبر منها .

٣ - أيضاً ممّا تعلّلوا به ؛ قالوا : لأنّه لم يرد نصّ صريح ينص على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر .

القول الثاني : (وهو القول الراجح) ؛ أن الذنوب تنقسم ، وتنوع ؛ فمنها ما هو صغيرة ، ومنها ما هو كبيرة . بل الكبائر تنوع فيما بينها ؛ فأكبر الكبائر - كما جاء في الحديث - الشرك بالله عزّ وجلّ .

أدلة تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر : (وهو ورأي الجمهور ، وهو القول الراجح)

استدلوا بأدلة كثيرة منها :

قوله سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } . فقسّم الذنوب ؛ جعل هناك شيء لا يغفر ، وشيء داخل تحت المشيئة ؛؛ يمكن أن يُغفر . أيضا قوله سبحانه - وهذا صريح - : { إِنَّ تَحْتَنِيُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } . فجعل هناك كبائر ، وهناك سيئات دون الكبائر ، ولهذا قال : " إن تحتنبوا الكبائر " (إن تبتعدوا عن الكبائر) ، يكفر الله عزّ وجلّ بقية السيئات التي ليست بكبائر ، ولو كانت الذنوب بدرجة واحدة ؛ لما كان لتقسيمها هنا أي فائدة . قوله سبحانه - أيضا هذا نص صريح - : { الَّذِينَ يَحْتَنِيُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ } فدلّ هذا النصّ على تنوع الذنوب وتقسيمها . إذاً فيه كبائر وفيه لم ، دلّ على أنّ الذنوب ليست بدرجة واحدة . أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان) ؛ بمعنى أنّ الإيمان يتفاوت ، وأنّ المعاصي تتفاوت . قوله صلى الله عليه وسلم - أيضا - : (أخرجوا من في قلبه مثقال ذرة من إيمان) ؛ فدلّ على اختلاف درجات الإيمان ، وكذلك أحاديث الكبائر ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن من أكبر الكبائر الشرك بالله) ، وقوله صلى الله عليه وسلم - كما صحّ عنه - : (اجتنبوا السبع الموبقات) ، ثم ذكرها . ولقوة هذه الأدلة ؛ لاشك أنّ هذا هو القول الراجح ، وهو ما ذهب إليه الجمهور .

مسألة : عرفنا أنّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، ما ضابط الصغيرة ، وما ضابط الكبيرة ؟ كيف نفرّق بين الصغائر والكبائر؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة خلافاً كبير ، ولهذا من العلماء من حاول أن يحصر الكبائر بعدد محدد ، ولسان حاله ، يقول : ما عدا هذا العدد يعتبر صغائر !

١ - فمنهم من قال : أنّ الكبائر سبعة ، واستدل بحديث : (اجتنبوا السبع الموبقات) .

٢ - ومنهم من قال : سبعة عشر .

٣ - ومنهم من قال : إلى السبعين اقرب ، ولهذا ألّف بعض أهل العلم مؤلفات في الكبائر استقلالاً ، وحاولوا حصر هذه الكبائر .

٤ - ومن أهل العلم قالوا : أنّ الكبائر ما اتفقت الشرائع على تحريمه ، وهذا القول قد يُخرج شرب الخمر ، والزواج من بعض المحارم ! لأنّ هذا ممّا لم تتفق الشرائع على تحريمه ، وقد يُدخل في الكبائر أخذ الحبة من مال اليتيم ؛ لأنّه ممّا اتفقت الشرائع على تحريمه ، وهذا ممّا يدل على ضعف هذا القول .

٥ - من أهل العلم من قال : أنّ الكبيرة هي : ما يسدّ باب المعرفة بالله عزّ وجلّ ، وهذا أيضاً قول ضعيف .

٦ - من أهل العلم من قال : الكبائر ما فيه ذهاب الأموال والأبدان ، وهذا أيضاً قول ضعيف ؛ لأنّه يترتب على هذا القول أنّ شرب الخمر ليس بكبيرة .

٧ - ومنهم من قال : سمّيت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها ؛ يعني كل كبيرة تسمى كبيرة بالنسبة إلى ما دونها ، وهذا - أيضاً - قول ضعيف ؛ لأنّه يترتب على هذا أن لا تقسم الذنوب إلى كبائر وصغائر ؛ لأنّ كلّ ذنب له ذنب أصغر منه ؛ أي أقلّ منه ، وبناءً على ذلك تكون كل الذنوب كبائر .

٨ - من أهل العلم من قال : أنّها لا تُعلم أصلاً ، وهذا - أيضاً - قول ضعيف ؛ لأنّ الله عزّ وجلّ نصّ عليها في كتابه : { إِنَّ تَحْتَنِيُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ } . كيف يأمرنا أن نجتنب كبائر ما ننهي عنه ، ونحن لا نعلمها ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر

شيئاً منها .

٩ - من أهل العلم من قال : الكبيرة كل ما نهى الله عنه ، فهو كبيرة ، وهو قول ضعيف ؛ لأنه يجعل الذنوب في درجة واحدة - أن الجميع كبائر ؛ لأن كل ذنب فالله عز وجل نهى الله عنه ؛ صغيراً كان أو كبيراً .

١٠ - من أهل العلم قال : أنها ما ترتب عليها حد ، أو تؤعد عليها بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب . وذكر المؤلف أن هذا أمثل الأقوال . ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن القول الجامع في هذا أنها : كل ما ترتب عليه حد في الدنيا ، أو وعيد خاص في الآخرة ؛ فيدخل فيه كل ما تؤعد ، أو ما لعن صاحبه ، أو نص على أن الله غضب عليه ، أو تؤعد بوعيد بخصوصه في الآخرة . وذكر الشيخ - رحمه الله ، كما ذكر الشارح - أن هذا " الضابط " يسلم من القوادح الواردة على غيره ؛ أي على الأقوال السابقة ، وهذا القول يجمع الذنوب التي ذكرها الله ، أو ذكرها رسوله صلى الله عليه وسلم أنها من الكبائر ، فيدخل في ذلك : قذف المحصنات ، الشرك ، القتل ، الزنا ، السحر ، الفرار من الزحف ، أكل مال اليتيم ، أكل الربا ، عقوق الوالدين ، اليمين الغموس ، شهادة الزور ، وأمثال ذلك ، فكل هذه جاءت إما مترتب عليها حد في الدنيا ، أو جاءت بوعيد خاص في الآخرة . ولعل - هذا كما ذكرت - هو القول الراجح ، وسبب الترجيح :

أولاً : أنه هو المأثور عن السلف . فقد روي عن ابن عباس ، وابن عيينة ، والإمام أحمد ، وغيرهم .
ثانياً : أن الله تعالى ، قال : { إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ } . فلا يستحق هذا الوعد الكريم من توعدده الله عز وجل بغضب من عنده ، أو لعنه ، أو توعدده بالنار على وجه الخصوص .
السبب الثالث في ترجيح هذا القول : أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب . فهو حد (أي ضابط) مُتَلَقًى من الشرع ، ولهذا نلاحظ أن هذا الضابط تنضوي تحته ، وتجتمع تحته جميع الذنوب التي يمكن أن تسمى كبائر .
رابعاً : أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر .

أما الأقوال الأخرى - فكما تقدم - فمن قال أنها سبعة ، أو سبعين ، أو سبعة عشر ، فهذا مجرد دعوى ! فقط أخذ نص وبنى عليه ، فليس في النصوص ذكر أن هذه هي الكبائر فقط ، وما دونها ليس بكبيرة . أمّا من قال : " ما اتفقت الشرائع على تحريمه " - فكما ذكرت - فيقتضي هذا أن شرب الخمر ، والفرار من الزحف ، والتزوج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك ؛ ليس من الكبائر ؛ لأن هذا كان جائزاً ومباحاً في شرائع سابقة ، كما أنه يلزم على هذا القول : أن الحبة من مال اليتيم والسرقة لها ، والكذبة الواحدة الخفيفة تكون كبيرة . وهذا قول فاسد - كما ذكر المؤلف - . أما من قال : " الكبيرة ما سد باب المعرفة بالله " ، أو " أدّى إلى ذهاب الأموال والأبدان " ؛ فمعنى هذا القول : أن شرب الخمر ، وأكل الخنزير ، والميتة ، والدم ، وقذف المحصنات ؛ ليس من الكبائر ! وهذا - أيضاً - فاسد . ومن قال " أنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها " ، أو " كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة " ؛ فمعنى هذا القول : أنه ليس هناك صغائر ! ويقتضي هذا القول : أن تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر قول ليس بصحيح . ومن قال : " أنها لا تعلم أصلاً ، أو أنها مبهمة " ، فهذا في واقع الأمر أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها ! فلا يمنع - إذا كان هو لا يعلم هذه الكبائر - أن يكون غيره يعلمها .

مسألة : حكم مرتكب الكبيرة :

حكم من وقع في كبيرة من الكبائر ؛ إنسان قتل مسلماً عمداً ، أو أكل الربا ، أو وقع في الزنا ، أو سرق مال مسلم ، أو قذف المحصنات ، ما حكمه في الدنيا والآخرة ؟ هذه المسألة نشأ الخلاف فيها في وقت مبكر ؛ نشأ في وقت الصحابة رضي الله عنهم ، والخلاف فيها ليس بين أهل السنة ، وإنما بين أهل السنة وأهل البدع . يقول شيخ الإسلام : أول خلاف حدث في

المِلَّة في الفاسق المِلِّي (أي : الفاسق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم) ، هل هو كافر ، أو مؤمن ؟ وهذه المسألة مسألة خطيرة ! ولهذا ترتب عليها مفسد كثيرة .

أقوال النَّاس في هذه المسألة : - كما ذكرت لكم : المسألة نشأت قديماً في أواخر زمن الصحابة ، وكما ذكر شيخ الإسلام : أنها هي أول مسألة خلافية .

القول الأول : وهو القول الحق ؛ قول أهل السنة والجماعة ، والذي دلَّت عليه نصوص الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وهو الذي يوافق العقل الصحيح الصريح ، وهو الذي فهمه السلف رحمهم الله من نصوص الوحيين ، وهو الذي تجتمع به الأدلة أيضاً : أنَّ مرتكب الكبيرة ليس بكافر ، وأنه مؤمن ، لكنَّ إيمانه ناقصٌ ؛ بسبب هذه الكبيرة ، ومذهب أهل السنة في هذا يتلخص في عدة نقاط .

الحلقة (٣)

في حكم مرتكب الكبيرة قلنا : أنه مركَّب من عدة مسائل :

المسألة الأولى : أنَّ أهل السنة متفقون كلهم على : أنَّ مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن المِلَّة بالكلية ، إذ لو كان كافراً ناقلاً ؛ لكان مرتداً يُقتل على كل حال ، ولَمَّا قُبل عفو ولي القصاص . معلوم أنَّ من قتل مسلماً ؛ قُتِلَ قصاصاً ، لكن لعفى ولي المقتول ؛ عُفي عنه ، فلو كان فعل الكبيرة كُفر مُخرج عن المِلَّة لما قُبل ، ولَمَّا سقط عنه القتل بعفو ولي القصاص . أيضاً ولما جرت الحدود في الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، ونحو ذلك .

الأمر الثاني : أنَّ أهل السنة متفقون على أنه : " لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل في الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين " ؛ لأنَّ الله تعالى جعلنا من المؤمنين ، وسَمَّا القاتل أخاً للمقتول في قوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } . ثم قال : { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } . فلو كان القاتل كافراً لما سُمِّيَ أخاً للمقتول ، أيضاً سَمَّاه مؤمناً ؛ في قوله : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } . لاحظ بينهم اقتتال ؛ بعضهم يقتل بعضاً ، ومع هذا سَمَّاهم مؤمنين ، فدلَّ على أنهم لا يخرجون بهذه الكبيرة من الإيمان ، ويدخلون في الكفر .

الأمر الثالث : اتفق أهل السنة على أنه : " مؤمن بإيمانه ، فاسق بمعصيته " . مؤمن بقدر ما معه من الإيمان ، فاسق بقدر ما ارتكب من هذا الفسق ، ولهذا قالوا - الكلمة المشهورة - : " مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته " ، وهو في الآخرة تحت مشيئة الله عز وجل ، إن شاء غفر له وعفا عنه ابتداءً ، وإن شاء عذَّبَه بقدر ذنبه ، ثمَّ أدخله الجنة .

الأمر الرابع : اتفق أهل السنة : أنَّ من لم يشأ الله أن يغفر له ابتداءً ؛ لعظم جرمه ، أو حُبث معصيته ، أو لأمر يعلمه الله عزَّ وجلَّ ، فلا بدَّ من دخوله إلى النار ؛ ليتخلص ، ويُطَيَّب ، ويُحَصَّ ، ثم ماله إلى الجنة ؛ بمعنى أنه لا يخلد في النَّار كما زعم الخوارج والمعتزلة .

الأمر الخامس : أنَّ أهل السنة اتفقوا على : " أنه لا يبقى في النَّار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، بل ولا من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان " ، وقد جاءت النصوص الصريحة الصحيحة في هذا : أنه " لا يبقى في النَّار من قال : لا إله إلا الله " ، بشروطها ، وضوابطها ، وانتفاء نواقضها ، وفي الحديث الآخر : (وعزتي ، وجلالي ، وكبريائي ، وعظمتي لأُخرجَنَّ منها ، من قال : لا إله إلا الله) .

السادس : وأيضاً اتفق أهل السنة على أنه : " لا يخرج العبد من الإيمان إلا بحدود ما أدخله فيه " .
الأمور السابقة كلها على خلاف ما ذهب إليه الوعيدية (من الخوارج والمعتزلة) ؛ لأنَّهم زعموا أنَّ المؤمن إذا فعل كبيرة ؛

خرج من الإيمان . لكن اختلفوا : هل يدخل في الكفر ؟ أو يبقى في منزلة بين المنزلتين ؟ المعتزلة قالوا : أنه يبقى في منزلة بين المنزلتين ! أمّا الخوارج فقالوا : أنه يدخل في الكفر مباشرة .

في الآخرة : اتفقوا على أنّه خالد مخلد في النَّار ، وهذا خلاف ما دلت عليه النصوص .

السابع : اتفق أهل السنّة على : " أن من مات على كبريته من غير توبة ؛ أنّه مستحق للوعيد المترتب على ذلك ، لكن قد يعفو الله عزّ وجل عنه لحكمة لا نعلمها " .

الثامن : اتفق أهل السنّة على : " أن جميع نصوص الوعد والوعيد يمكن الجمع بينها ، ولا تعارض ولا تناقض بين هذه النصوص ، ويجب إعمال الجميع " . لا يعملون كما عمل أهل البدع ؛ فـ " الوعيدية " أعملوا نصوص الوعيد ، وأهمّلوا نصوص الوعد ! و " المرجئة " أعملوا نصوص الوعد ، وأهمّلوا نصوص الوعيد ! الأدلة على ذلك : (كثيرة جداً) ؛ منها ما سبق ذكره - أثناء الحديث على هذه المسألة - ومنها : حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وفيه : (ومن أصاب من ذلك شيئاً ، ثمّ ستره الله تعالى فهو إلى الله) ؛ يعني أصاب أمراً من الأمور المحرّمة ، فستره الله في الدنيا ؛ بمعنى : لم يُقَم عليه الحدّ ، أو لم يعلم به أحد ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : " فأمره إلى الله " ؛ إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه ، وإن شاء عاقبه . من الأدلة قوله سبحانه : { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) ، قلت - في حديث أبي ذر - : (وإن زنا وإن سرق ؟ قال : وإن زنا ، وإن سرق ... الحديث) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) ، وحديث الجهنميون الذين هم آخر من يخرج من النَّار ، وقد أمثحشوا ، وصاروا حُمماً وفحماً ، فيكونون على أنهار الجنّة ، فينبتوا ... حديث طويل . الشاهد فيه : " أنّهم يخرجون من النَّار " . فكل هذه الأدلة ، وهذه الأحاديث ردّ على الوعيدية الذين زعموا أنّ مرتكب الكبيرة ؛ خالد مخلد في النار .

مسألة : ماذا يسمّى مُرتكب الكبيرة عند أهل السنّة والجماعة ؟

عند " الخوارج " تطلق عليه : " الكفر " .

" المعتزلة " : " تسلب عنه اسم الإيمان " ؛ تقول ليس بمؤمن .

عند " أهل السنّة " : (الذين أعملوا نصوص الوعد والوعيد ، وجمعوا بين النصوص) ، يسمّونه : " مؤمن " ، أو يصفونه بأنّه : " مؤمن ناقص الإيمان " ، أو " مؤمن فاسق بمعصيته " ، أو " مسلم ، وليس بمؤمن " ، أو يقال له أحياناً : " الفاسق الميّ " ؛ أي منتسب لملة محمد صلى الله عليه وسلم .

خالف أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة طائفتان :

الطائفة الأولى :

" الوعيدية " (من الخوارج والمعتزلة) : فهؤلاء أعملوا نصوص الوعيد . كيف أعملوا نصوص الوعيد ؟ يعني أخذوا بالنصوص التي فيها وعيد ، وأهمّلوا وتركوا نصوص الوعد ، لكنّهم اختلفوا في حكمه في الدنيا ، واتفقوا على حكمه في الآخرة .

حكمه في الدنيا :

الخوارج ، قالوا : أنّه خرج من الإيمان مرتكب الكبيرة ، ودخل في الكفر ، ولهذا يكفّرون من فعل الكبيرة ، ويعاملونه معاملة الكافر .

المعتزلة، قالوا: خرج من الإيمان بكبيرته، لكنّه لم يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين.

حكمه في الآخرة: أتفق الخوارج والمعتزلة على: أنّه خالد مخلد في النار.

مستندهم في هذا: مستندهم نصوص الوعيد! وقالوا مادام أنّ الله عزّ وجلّ توعدّ هؤلاء، فلا بدّ أن ينفذ وعيده فيهم حتماً! ونسوا أو تناسوا أنّ إخلاف الوعيد مزيّة وكرم وسجيه يُمدح عليها صاحبها، بخلاف إخلاف الوعد، ولهذا جاء قول الشاعر:

وإني إذ أوعدته أو وعدته لمخلّف إيعادي ومنجز مواعيدي.

فأنا إذا توعدت أحد الطلاب؛ أنّه إذا تأخر عند دخول المحاضرة، أن لا يدخل بعدي! ثمّ جاء الطالب، فقلت له: تفضل. يعتبر هذا تكراً مني، ولا يجب علي أن أنفذ وعيدي له، بل هذا يعتبر من السجيا والخصال الحميدة؛ أيّ توعدت ثمّ أخلفت وعيدي، وسمحت له بالدخول؛ بخلاف إخلاف الوعد؛ لو وعدت: أي طالب يحضر البحث في اليوم الفلاني؛ فله خمس درجات، فجاء الطالب بهذا البحث في اليوم الفلاني، قلت: لا والله ما تستحق الخمس درجات! هذا يعتبر نقص في الخلق، ولا يجوز، وإخلاف الوعد عيب، وإخلاف الوعيد كرم وخلق وسجيا يمدح عليها صاحبها، فالله عزّ وجلّ إذا توعدّ صاحب الكبيرة، وأخلف وعيده، وغفر له؛ فهو يُحمد على هذا الأمر سبحانه وتعالى، ويُشكر على هذا الأمر.

أما أخذهم بنصوص الوعيد، فهذا من الخطأ الذي وقعوا فيه؛ أنّهم أعملوا نصوص الوعيد، وتركوا نصوص الوعد، ولهذا كان الواجب أن يجمعوا بين نصوص الوعد، ونصوص الوعيد، وبهذا تجتمع الأدلة، ولا نكون أهملنا شيئاً من الأدلة.

الطائفة الثانية: التي خالفت أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة فهم: "المرجئة":

وهؤلاء أخذوا بنصوص الوعد، وأهملوا نصوص الوعيد، وزعموا أنّه لا يضر مع الإيمان معصية؛ مهما أرتكب الإنسان من المعاصي والكبائر؛ مادام عنده الإيمان المطلق؛ فلا يضره ذلك، وترتب على هذا القول عندهم: أن إيمان أفسق الناس كإيمان أتقى الناس! حتى قال الغلاة منهم - عليهم من الله ما يستحقون - : إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم!! وهذا من الغلو. وزعموا أنّه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما أنّه لا ينفع مع الكفر طاعة، شبهتهم في هذا: أنّهم أخذوا - كما أسلفت - بنصوص الوعد، وأهملوا نصوص الوعيد. ولهذا أهل السنة والجماعة سلكوا مسلكاً وسطاً بين هؤلاء وأولئك؛ وردّوا على الوعيدية بالنصوص التي أستاذلّ بها المرجئة (نصوص الوعد)، وردّوا على المرجئة بنصوص الوعيدية. أي ردّوا على هؤلاء بنصوص أولئك، وردّوا على أولئك بنصوص هؤلاء.

أنتقل هذا المؤلف بعد هذا إلى مسألة أيضاً متعلقة بهذه المسألة ألا وهي:

مسألة: الصلاة خلف كل برّ وفاجر من أهل القبلة، والصلاة على من مات منهم:

أولاً: قد يقول أحد الأخوة الطلاب، أو الطالبات: هذه المسألة مسألة فقهية! فما علاقتها بموضوع العقائد؟ نقول لها علاقة مباشرة بكتب العقائد، ومسائل الاعتقاد، وذلك أنّ مرتكب الكبيرة - هذا الفاجر - هل هو مؤمن أو كافر؟ فلو كان كافراً؛ لما جازت الصلاة خلفه، بل ما صحّت الصلاة خلفه، لكن لما كان مؤمناً صارت الصلاة - كما هو مذهب أهل السنة - خلف هذا الفاجر صحيحة.

الأمر الثاني: أنّه خالف في هذا بعض أهل البدع وأصحاب الضلال، ورأوا عدم الصلاة خلف الفجار، وعدم صحة الصلاة في ذلك، وعدم جواز الصلاة على هؤلاء.

الطحاوي يقول: "ونرى الصلاة خلف كل برّ وفاجر من أهل القبلة".

مسألة : من هم أهل القبلة ؟

أهل القبلة : هم الذين حدّدهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وضبطهم لنا بقوله : " من صلى صلاتنا ، وأستقبل قبلتنا ، فهو المسلم ؛ له مالنا ، وعليه ما علينا " ، هؤلاء هم أهل القبلة ؛ من صلى إلى الكعبة (من أستقبل الكعبة في صلاته) ، وصلى صلاة المسلمين ، فهو المسلم ، له ما للمسلمين ، وعليه ما على المسلمين .

لنا في هذه المسألة وقفات :

الوقفة الأولى : الصلاة خلف الأفضل ؛ هي الأفضل . بمعنى : إذا وجد عندنا برّ ، وفاجر ، فالصلاة خلف البرّ هو الأفضل ، وهو المتعين ، وإذا أمكن أنّه لا يُقدم إلا الأفضل ، والبعد كل البعد عن أهل البدع ، وأهل الضلال ؛ فلا شك أنّ هذا هو الأولى والأحرى .

الأمر الثاني : أنّه كونه إمام ؛ لا يعني هذا إلغاء الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والمناصحة ؛ فلا بدّ من مناصحة هذا الشخص ، وأمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر ، لكن بالطرق الشرعيّة ، والقواعد المرعيّة .

الثالث : إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البرّ ، فهو الأولى من فعلها خلف الفاجر .

الرابع : إذا كان في ترك الصلاة خلف هذا الفاجر ، أو هذا المبتدع ؛ مصلحة راجحة ، ولم يترتب على تركها مفسدة أكبر منها ، فإنّ الأفضل ترك الصلاة خلفه ، مثال ذلك : إذا افترضنا أنّ هذا الإمام صاحب بدعة ، وهناك عالم وإمام ومقتدى به ، فلو ترك الصلاة خلف هذا المبتدع ، ورآه الناس ، لارتدع هذا المبتدع عن بدعته ، ولحذر الناس ، وعرفوا أنّ هذا الشيخ ، وهذا الإمام ترك الصلاة خلفه لأجل بدعته ، فيحذرون هذه البدعة ، عند ذلك يقال يتعيّن على هذا الشيخ أن لا يصلي خلفه ؛ لأنّ المصلحة تقتضي عدم الصلاة خلفه ، لكن إذا كانت المفسدة أكبر في ترك الصلاة خلفه ؛ فيصلي ، كما سيأتي أنّ الصحابة رضي الله عنهم صلّوا خلف بعض من عُرف بالفجور والمعاصي ؛ لأنّهم رأوا أنّ المفسدة أكبر في تجنب الصلاة خلفهم ، والإمام أحمد صلى خلف بعض أهل البدع ؛ لأنّه رأى أنّ المفسدة أكبر لو ترك الصلاة خلفهم .

الأمر الذي بعد هذا : أن الصلاة تجوز خلف كل برّ وفاجر بالضوابط التي سبق ذكرها ، لكن يستثنى من ذلك الصلاة على البغاة ، وقطاع الطريق ، ومن قتل نفسه ،،، خاصّة من أهل العلم وذوي الهيئات .

الأمر الخامس : مستور الحال ؛ الذي لا تعرف حاله ! تجوز الصلاة خلفه ، وليس من شرط الإتمام به ؛ أن نسأل عن حاله ، بل هذا خلاف منهج السلف ؛ أن نسأل هل هذا الإمام عنده بدعة ، أو ليس عنده بدعة ؟ الأصل في المسلم السلامة ، مادام ظهر من السلامة ؛ لا تسأل ، صلّ خلفه ، فإذا سألت ، فأنت المبتدع ، خالفت منهج السلف .

الحلقة (٤)

إنّ مذهب أهل السنة والجماعة : أنّ الصلاة تصح خلف كل برّ وفاجر .

الأدلة الدالة على مشروعية الصلاة خلف هؤلاء :

من ذلك ما ذكره المؤلف : ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنّه قال : (صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر) ، وإن كان الحديث في سنده مقال ، ويروى عنه صلى الله عليه وسلم - كما عند أبي داود وغيره - : (الصلاة واجبة عليكم مع كلّ مسلم برّاً كان ، أو فاجراً) ، وثبت في صحيح البخاري : أنّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكذا أنس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً ، وفي الصحيحين من حديث النبي صلى الله عليه وسلم - لمّا ذكر الأئمة المضلين - سأله الصحابة : " أفلا ندع الصلاة معهم ؟ قال : لا ، يصلون لكم ، فإن أصابوا فلكم ولهم ، وإن

أخطئوا ، فلکم وعليهم) ، وثبت - كما عند الدارقطني وغيره - أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (صلُّوا خلف من قال : لا إله إلا الله ، وصلُّوا على من مات من أهل لا إله إلا الله) . هذه الأدلة - الدالة على وجوب الصلاة خلف كلِّ برٍّ وفاجر - تتعيَّن الصلاة خلف هؤلاء ؛ إذا كان هذا الإمام هو إمام المسلمين ، أو كان ممَّن أنابه إمام المسلمين ؛ فتجب الصلاة خلفه ؛ لما في الفرقة من الاختلاف والتنافر والمفاسد التي لا يعلم مداها إلا الله ، ولهذا صلَّى الصحابة رضي الله عنهم خلف بعض الأئمة والولاة الذين ظهر فسقهم ؛ كمن عُرف بشرب الخمر ، أو عُرف بظلمه وتعدّيه ، وغير هؤلاء .

◀ مسألة : الإمامة :

هي من المسائل المهمّة ، ومن المسائل الكبار ، ومن المسائل التي جرى الخلاف فيها في وقت مبكر ! الإمامة والخلافة والولاية : هي مصطلحات في مجموعها تدل على معنى واحد ، وإن تميز بعضها عن بعض عند الاجتماع .

الإمامة لغة : مأخوذة من الإمام ، والإمام في لغة العرب هو : مقتدى القوم ، ورئيسهم ، ومن يدعوهم إلى قول أو فعل أو اعتقاد . ومعناها (أي الإمامة في لغة العرب) ترجع إلى معنيين :

الأول : من يُرجع إليه في العلم والدين . بحيث يُطاع باختيار المُطيع ؛ لكونه عالماً بأمر الله عز وجل ، أمراً به ؛ فيطيعه المطيع لذلك ؛؛ مختاراً .

المعنى الثاني : أن يكون صاحب سلطة وإمارة وولاية وسيف . بحيث يطاع طوعاً أو كرهاً ، وذلك أنَّه قادر على إلزام المطيع بطاعته بخلاف العالم ! إمام العلم لا يلزم الناس بطاعته ، بخلاف وليُّ الأمر الحاكم ؛ فإنَّه يستطيع أن يلزم الآخرين بطاعته ، ولهذا يسمَّى إمام ؛ لأنَّ النَّاسَ يقتدون به سواء كان طواعية أو كرهاً .

تعريف الإمامة اصطلاحاً : فهي - كما عرَّفها أهل العلم - : " ولاية أمور المسلمين ديناً ودين " ، أو " ولاية أمر من أمورهم " ؛ بمعنى : أن يتولى أمور المسلمين على وجه العموم ، فيسمَّى إمام ، ولهذا يتولَّاهم في أمور الدين ، وفي أمور الدنيا ؛ يسوسهم في أمور الدنيا ، وأيضاً يلزمهم بأمور الدين . عرَّفها " الجويني " بقوله : " الإمامة رئاسة تامّة ، وزعامة عامّة ، تتعلق بالخاصة والعامة ، في أمور الدنيا والدين " . الإمامة : رئاسة تامّة ، وزعامة عامّة ؛ يعني عامّة للجميع ، لا يمكن لأحد أن يشدّ من هذه الإمامة ؛ من طاعة هذا الإمام (من ولاية هذا الإمام) سواء في أمور الدنيا ، أو أمور الدين ، وسواء كان من الخاصة أو من العامة (عالم أو عامي) ، الكلُّ ملزم بطاعة هذا الإمام ، الكلُّ ملزم بولاية هذا الإمام .

◀ مسألة : حكم تنصيب الإمام :

مسألة : هل للناس الحق في أن ينصبوا إماماً أو لا ينصبوه ؟

الجواب : وجوب تنصيب الإمام - هذا هو الحكم - وليس للنَّاس في هذا الخيار ؛ أن يفعلوا أو لا يفعلوا ! بل الإمامة منصب ديني ، يجب على الأئمة تنصيب من يسوسهم ، ويصلح أمور دينهم ودنياهم ، لأنَّ النَّاسَ لا تستقيم أحوالهم بلا إمام ، ولهذا قال الشاعر : لا يصلح النَّاسَ فوضى لا سُراة لهم ، فهي فريضة شرعية ، وضرورة حياتية ، وحاجة النَّاس - عموماً - لا يمكن أن تستقيم بلا إمام ، يستحيل أن تستقيم بدون إمام . ولأهميتها ومكانتها نلاحظ أنَّ الصحابة رضي الله عنهم بادروا إلى هذا الأمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ، حتى قبل دفنه عليه الصلاة والسلام ! اجتمعوا - كما هو معروف - في سقيفة بني ساعدة ، واتفقوا على تولية أبي بكر رضي الله عنه لما تحقق لهم موت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بمعنى انقطعت إمامته الدنيوية ، فالنَّاس الآن بحاجة لسائس ؛ لإمام . بادر الصحابة قبل أن يلتفتوا إلى تجهيزه عليه الصلاة والسلام وتكفينه وغسله ودفنه ؛ لأهميّة تنصيب الإمام ، وليس هذا مأخذ - كما يظن بعض أهل البدع أنَّهم اشتغلوا

بأمر الدنيا ، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ، لا ، بل هذا يدل على أهمية هذا المنصب ، وهذا ما يسمّى في الأعراف الدولية المعاصرة بالفراغ الدستوري ، ما يصح أن يكون هناك فراغ دستوري . لهذا قال أهل العلم : أنّ تنصيب الإمام واجب ، ليس للأمة الحق في أن تفعل ، أو لا تفعل . بالطبع إمام المسلمين واحد ! لا يجوز تعدد الأئمة ! والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر : (أنّه إذا بويع لخليفتين ، فاقتلوا الآخر منهما ؛ كائناً من كان) ، كما صح عنه عليه الصلاة والسلام . لكن إذا تعددت بلدان المسلمين ، وتفرقت أقطارهم ، وتباعدت واختلفت ، فقد استقر أمر المسلمين على : أنّه يجوز أن يكون لكل بلد ولاية مستقلة ، فإذا نُصّب على هذا البلد إمام ؛ فيجب على من كان في هذا البلد طاعته ، والتزام أمره ، والاستسلام لولايته .

◀ مسألة : طاعة الإمام

إن طاعة الإمام واجبة ، والخروج عليه محرم ؛ لما يترتب على ذلك من المفساد الكبيرة التي لا يعلم مداها إلا الله . واقع الأمة - قديماً وحديثاً - خير شاهد على هذه المسألة . ذكر شيخ الإسلام رحمه الله : أنّه ما من طائفة ، وما من فرقة ، وما من جماعة خرجت على الإمام الشرعي ؛ إلّا وجرت من المفساد على الأمة على نفسها ، وعلى غيرها أضعاف أضعاف المصالح التي كانت تتوقعها ، منذ القرون الأولى . ولهذا جاءت النصوص الصريحة الصحيحة المتواترة في وجوب طاعة ولاية الأمر ، وعدم الخروج عليهم . قال الإمام الطحاوي رحمه الله : " ولا نرى الخروج على أئمتنا ، وولاية أمورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمرُوا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة " . هذا هو منهج أهل السنة والجماعة ، وهذا مبناه على نصوص الكتاب والسنة :

الأدلة على طاعة الإمام :

قال الله سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } . قال أهل العلم : كرر فعل " أطيعوا " مع الله ، ومع رسوله ؛ لأنّ طاعة كل واحد منهم تجب استقلالاً ، بخلاف طاعة ولاية الأمر ؛ فإنّ طاعتهم من طاعة الله ورسوله ، لكن إذا أمروا بمعصية ، فلا يطاعوا . ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنّه قال - كما عند البخاري ومسلم - : (من أطاعني ، فقد أطاع الله ، ومن عصاني ، فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير ، فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير ، فقد عصاني) . وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه ، أنه قال : (إن خليلي أوصاني : أن أسمع وأطيع ، وإن كان عبداً حبشياً مجذع الأطراف) ، الحديث ثبت في صحيح مسلم ، وعند البخاري : (ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة) ، " أوصاني أن أسمع وأطيع " ؛ أستسلم ؛ لا خيار لي هنا . ثبت في الصحيحين ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (" على المرء المسلم السمع والطاعة ، فيما أحب وكره " - ليس فقط يسمع ويطيع في الشيء الذي يحبه ، والشيء الذي يوافق مصلحته ، لا ؛ " فيما أحب وكره " ، " إلا " فقط ، والاستثناء هنا لشيء واحد - " إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ؛ فلا سمع ولا طاعة) ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . حديث حذيفة بن اليمان المشهور رضي الله عنه - كما في الصحيحين - : (كان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ؛ مخافة أن يدركني) . يعني الصحابة كانوا دائماً يحرصون أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير (عن أمور الخير) ، حذيفة خالفهم ؛ يسأله عن الشر ؛ يريد أن يتقيه ، يخشى أن يدركه هذا الشر ، يريد أن يعرف هذا الشر ، ولهذا لا يمنع أن الإنسان يتعلم ويعرف مداخل الشر ؛ لأجل أن يتقي الشر ، يقول : (" وكنت أسأله عن الشر ؛ مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ! إنّنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير " - أي بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالإسلام وبالإيمان وبهذا الشرع - " فهل بعد هذا الخير من شر ؟ فقال

: نعم ، فقلت: هل بعد هذا الشر من خير؟ فقال: نعم ، وفيه دخن ، قال ؛ قلت : وما دخنه؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ، ويهتدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ! فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم ؛ دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها ، قذفوه فيها ، فقلت : يا رسول الله ! صفهم لنا ، قال : نعم ، قوم من بني جلدتنا ، يتكلمون بألسنتنا ، قلت : يا رسول الله ، فما ترى إن أدركني ذلك؟ " - هذا هو الشاهد من هذا الحديث - " قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم " - لهم جماعة ، ولهم إمام ، فالزم الجماعة والإمام ؛ بمعنى أن الخير منوط بجماعة المسلمين وإمامهم ، لا يمكن أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمرك بأن تلزم هذا الطريق وفيه شر ، وفيه ضرر عليك ، لا ! بمعنى : أن الخير يكمن في لزوم جماعة المسلمين وإمامهم - " قال : " تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ، ولا إمام؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة ؛ حتى يدركك الموت ، وأنت على ذلك) . إذاً هذا الحديث صريح في لزوم جماعة المسلمين وإمام المسلمين ، خاصة في أوقات الفتن ؛ في أوقات التفرق ، في أوقات الاختلاف ، في أوقات الاختلاط ؛ اختلاط الحق بالباطل ، اختلاط الهدى بالظلال ، اشتباه الأمور ؛ الزم جماعة المسلمين ، الزم إمام المسلمين . أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيحين - : (" من رأى من أميره شيئاً يكرهه " - فليخرج على المسلمين ! لا - " فليصبر " - علّل النبي صلى الله عليه وسلم - " فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات ، فميتته جاهلية) ، وفي رواية : (فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) ، بمعنى إذا فارق جماعة المسلمين (خرج على إمامهم) ، فقد خلع ربقة الإسلام ؛ كأنه خرج عن دائرة الإسلام ، وإن كنت لا نكفر من فعل ذلك ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ؛ محذراً مبيناً خطورة هذا الأمر . ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا بويع لخليفتين ، فاقتلوا الآخر منهما) ، لما يترتب على ذلك من الشر ، وسفك الدماء ، والاختلاف ، وسلب الأموال ، والانتهاك ؛ انتهاك الأعراض والحرمات . وأيضاً حديث عوف بن مالك الأشجعي - كما في صحيح مسلم - رضي الله عنه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (" خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم " - بمعنى : تدعون لهم ، ويدعون لكم - " وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم " - لاحظ : يبغضهم الناس ، وهم يبغضون الناس ، يلعنهم الناس ، والناس يلعنونهم ، الشاهد : - " فقلنا يا رسول الله من كانت هذه حاله ، أفلا نناذبهم بالسيف عند ذلك؟ " - نخرج عليهم بالسيف؟ ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : - " قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولي عليه وال ، فرآه يأتي شيئاً من معصية الله " - يخرج عليه؟ لا - " فليكره ما يأتي من معصية الله " - يكفي أنك تكره هذا الأمر - " ولا ينزعن يداً من طاعته ") .

إذاً هذه الأدلة صريحة لا تقبل التأويل ، لا تقبل الأخذ والعطاء في وجوب طاعة الأئمة ، وعدم نزع يد الطاعة من ولايتهم ، وهذا هو مقتضى العقل ، وبذلك يكون للأمة كيان ، ويكون لها قوة ، ويكون لها شوكة ، ولكن إذا تفرقت ، واختلفت فلا تسأل عنها في أي وادٍ هلكت .

الحلقة (٥)

ذكرنا أن الأدلة الصريحة في عدم جواز الخروج عليهم ، وإن جاروا ، وإن ظلموا ، كما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم : (وإن جلد ظهرك ، وإن أخذ مالك) ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن نؤدي الذي علينا تجاههم ، وأن نسأل الله عز وجل الذي لنا . قد يسأل سائل ما الحكمة في تأكيد النبي صلى الله عليه وسلم على طاعة ولاية الأمر؟ وكما سبق الأحاديث كثيرة جداً ، وفيها من التفصيل ما ليس في غيرها ، ما السبب في ذلك؟ ما الحكمة؟ الحكمة في هذا كما ذكر أهل العلم ؛ أن

لزوم طاعة الأئمة والولاة - وإن جاروا - لأئمة :

- ١ - يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم .
- ٢ - بل الجور الحاصل منهم - غالباً - يقع على أفراد من الأمة ، لا يمكن أن يقع على جميع الأمة ! لا يقول هذا عاقل ، لكن الخروج عليهم غالباً يقع فيه : من سفك الدماء ، وانتهاك الأعراض ، وسلب الأموال ، والمفاسد ، وإضعاف شوكة المسلمين ، وتفرق الأمة الشيء الذي لا يمكن أن يتصور ؛ فشره عام ، وشره مستطير . بخلاف الظلم ، أو الجور الذي حصل من هذا الإمام ، أو هذا الوالي ؛ فيكون على أفراد .
- ٣ - ذكر أهل العلم أن الصبر على جورهم فيه تكفير للسيئات ، ومضاعفة للأجور ، وأن الله عز وجل ما سلطهم على العباد إلا بسبب فساد أعمال العباد ، والجزاء من جنس العمل ! ولهذا على الأمة إذا رأت ظلماً ، أو جوراً من واليهم ، عليهم الرجوع إلى الله ، والاستغفار ، ومراجعة النفس ، ولهذا قال سبحانه : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } وقال تعالى : { أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } وقال سبحانه : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } وقال سبحانه : { وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . قال المؤلف - ابن أبي العز - : " فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم " . يتركوا ظلم أنفسهم ، وظلم خالقهم ، وظلم العباد ، ولهذا جاء عن مالك بن دينار : (أنه جاء في بعض كتب الله : أن الله ملك الملوك ، يقول : قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني ؛ جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني ؛ جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، لكن توبوا ؛ أعطفهم عليكم) ؛ بمعنى ألين قلوبهم عليكم . إذا هذه النصوص التي أمرت بطاعة الولاة والأئمة ، وعدم جواز الخروج عليهم ؛ إنما ذلك لحكمة بالغة ، ولما يترتب على ذلك من المفاسد العظيمة .
- بعد ذلك ، قال المؤلف : " ونتبع السنة والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة " . لزوم الجماعة ، أو لزوم السنة ، أو لزوم السنة والجماعة ، أو لزوم الإجماع ، أو لزوم السواد الأعظم ، أو لزوم الفرقة الناجية ، أو المنصورة ، كلها مصطلحات دالة على معنى واحد ألا وهو : لزوم جماعة المسلمين ، والنصوص جاءت صريحة في لزوم الجماعة ، بل ذكر بعض أهل العلم أن النصوص التي أمرت بالجماعة ، ولزوم الجماعة أكثر من النصوص التي أمرت بالصلاة والزكاة والصيام والحج مجتمعة ! وقد ذكر المؤلف رحمه الله جملة من هذه النصوص ، منها قوله سبحانه : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } ، هذا هو الشاهد : { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } ، وقال سبحانه : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } قال سبحانه : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ، الله عز وجل ذكر لنا أن التفرق والاختلاف سنة من قبلنا ، ولهذا نهانا الله عز وجل أن نسلك سبيلهم : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا } ، وهم أهل الكتاب . وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } . وثبت في السنن - كما عند أبي داود ، والترمذي ، وغيرهما - من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه ، أنه قال : (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ! كأنها موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا؟ " - لاحظ هذه وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، سيوصي بأهم شيء يراه مهماً ، ماذا قال؟ يعني الصحابة يقولون كأن موعظتك هذه موعظة إنسان مودع ؛ سيذهب ويترك من خلفه ، فما هي وصيتك لنا إذا

ذهبت وتركنا؟ ماذا قال لهم؟ - " قال: أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعيش منكم بعدي ، فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالتواجد ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة ") ، أوصيكم بالسمع والطاعة ، إياكم والتفرق والاختلاف . وفي الحديث الآخر - أيضاً في السنن - من حديث ابن عمر وأبي هريرة وغيرهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار ، إلا واحدة) ، لاحظ : أهل الكتاب افترقوا ، اليهود افترقوا ، النصارى افترقوا ، هذه الأمة ستفترق ، فكل هذه الفرق في ضلال وانحراف إلا فرقة واحدة ، في رواية : (" قلنا : من هي يا رسول الله؟ " - من هذه الفرقة الناجية ؛ الفرقة التي سلمت من النار؟ - " قال : من كان على مثل ما كنت عليه اليوم وأصحابي) ، ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أن عامة المختلفين هالكون ! وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " من كان مستنأ ، فليست بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ؛ أولئك أصحاب محمد " ، بمعنى الزموا سنة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله اصطفاهم ، واختارهم ، وسلمهم من الفتن ، ولهذا امتدحهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (من كان على مثل ما كنت عليه وأصحابي) . " من كان مستنأ فليست بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد " - بمعنى هؤلاء هم النموذج ، هم الجماعة التي يجب الاقتداء بهم - " كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " . وذكر المؤلف أنه سيأتي لهذا بيان إن شاء الله .

مسألة : الجماعة المأمور بلزومها في النصوص :

اختلفت أقوال أهل العلم في المراد بالجماعة المأمور بلزومها في النصوص السابقة . النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بلزوم الجماعة ، وحثنا على التمسك بما كان عليه الجماعة ، فمن هي هذه الجماعة ؟

اختلف العلماء في ذلك : فمن أهل العلم من قال :

- ١ - الجماعة هم : الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم .
- ٢ - ومن أهل العلم من قال أن الجماعة هم : أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، أما بعد ذلك ففترقت الأمة .
- ٣ - ومنهم من قال هم : أئمة العلماء المجتهدين . (هذا قول الشاطبي) .
- ٤ - ومنهم من قال الجماعة هم : جماعة المسلمين إذا اجتمعوا مع أمير .
- ٥ - ومنهم من قال الجماعة هم : جماعة المسلمين المجتمعين على إمام ، أو أمر مجمع عليه .
- ٦ - ومنهم من قال الجماعة هم : السواد الأعظم .
- ٧ - ومن أهل العلم من قال : الجماعة من كان على الحق ، وإن كان واحداً .

لكن هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى واحد ! ولهذا فالاختلاف بينها ؛ اختلاف تنوع ، وليس اختلاف تضاد ، فالجماعة التي أمرنا بلزومها ، والتمسك بها هي : من اتصفت بهذه الصفات السالفة الذكر ؛ ولهذا هم الصحابة ، وكل من كان على الحق ، وهم من اجتمعوا على إمام من أئمة المسلمين . هذا ما يتعلق بمسألة لزوم الجماعة ، ولزوم التمسك بها . وأيضاً التحذير من التفرق ، والاختلاف ، والتنازع ، والشقاق ، والله عز وجل قال : { وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } ، ولهذا كان من

سِمَات وعلامات أهل السنّة والجماعة ؛ الاجتماع وعدم التفرّق ، وكان السبب الرئيس في ذلك - وينبغي أن تتنبهوا إليه -
أنّهم لزموا مصدراً واحداً ! فمن منهجهم وحدة المصدر ، ليس لهم مصادر شتى كما هي الحال عند أهل البدع ، ليس لهم إلا
الكتاب والسنّة على وفق ومقتضى فهم سلف الأئمّة ، ولهذا سلّموا من التفرّق والاختلاف ؛ لأنّ المورد واحد ، والمصدر واحد
، فالذي يأخذ منه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ؛ هو الذي أخذ منه الأئمّة أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وهو الذي
أخذ منه ابن تيمية ، وابن القيم ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وهو الذي يأخذ منه أئمّة أهل السنة في هذا الوقت ، ولهذا
اجتمعوا ، وسلّموا من التفرّق والاختلاف .

◀ مسألة : الشهادة لمُعَيّن:

مسألة : هل يُشهد ويُقطع لمُعَيّن بأنّه من أهل الجنّة ، أو من أهل النّار؟ وذلك عند قول الطحاوي : " ولا نُزِلَ أحداً منهم جنّة
ولا ناراً " ؛ أي من أهل القبلة ، فهل يُحكم لأحد من أهل القبلة ، أنّه من أهل الجنّة ، أو من أهل النّار؟ اختلف أهل العلم
في هذه المسألة إلى ثلاثة أقوال :

القول الأول : " لا يُشهد لأحد بالجنة إلا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم " . وهذا القول مروى عن الإمام الأوزاعي ،
ومحمد بن حنفية رحمهم الله ؛ أنّه لا يُقطع لمخلوق كائناً من كان أنّه من أهل الجنّة إلا للأنبياء .

القول الثاني : " أنّه يُشهد بالجنّة لمن شهدت له النصوص ، ولمن شهد له المؤمنون " . بمعنى كل مسلم ، كل مؤمن ثبت في النّص
أنّه من أهل الجنّة ، أو شهد له أهل الإيمان أنّه من أهل الجنّة ، فيُشهد له بالجنّة ، دليل هؤلاء حديث لَمَّا مرَّ بجنّازة ، فأثّروا
عليها خيراً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وجبت ، وجبت ، وجبت) في آخر الحديث ، سألو النبي صلى الله عليه وسلم
وسلم عن قوله : " وجبت ، وجبت ، وجبت " ، فقال : (شهدت له خيراً ؛ فوجب له الجنّة ، أنتم شهداء الله في أرضه) .

القول الثالث : (وهو القول الراجح ، وهو القول الوسط ، وهو قول أهل الحديث ، وهو الذي عليه جمهور أهل السنة) : أنّه لا
يُشهد لمُعَيّن بالجنّة إلا للأنبياء ، ولمن ثبت في النّص أنّه من أهل الجنة فقط . كمن ؟ انتبه : كالعشرة ، وبلال ، وعُكّاشة ،
وثابت بن قيس ، وزيد بن نفيّل ، وغيرهم ممّن شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم أنّهم من أهلها ، وابن مسعود ، فهؤلاء
ثبت النّص أنّهم من أهل الجنة ، فيُشهد لهم بالجنّة ، ويقطع لهم بالجنّة ، أمّا ما عداهم فلا ! نعم ، يُرجى للمُحسِن الإحسان ،
ويُحاف على المسيء إساءة ، ولهذا قال أهل العلم : " لو شهد لأحد بالجنة ، ممّن لم يشهد له النبي صلى الله عليه وسلم ، لشهد
للإمام أحمد ؛ لكثرة من حضر جنازته ، ولكثرة من أثنى عليه ، لكن لا يُقطع له بالجنّة ! نعم ، يُرجى له خير ، كون الأئمّة
أجمعت على محبّته ، وأجمعت على الثناء عليه ، لكن لا يقطع له بالجنّة .

المنافسة : الرأي الأول ليس لهم دليل ، رأي الأوزاعي ليس لهم دليل صريح ، والرأي الثاني هو الذي لهم دليل .

الحلقة (٦)

◀ مسألة : الشهادة لمُعَيّن بجنّة أو نار:

الخلاصة : ذكرنا أن للسلف في هذه المسألة ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنّه لا يُشهد إلا للأنبياء . وهذا قول الأوزاعي ، ومحمد بن الحنفية .

القول الثاني : أنّه يُشهد لكل من شهد له المؤمنون ، إضافة لمن ثبت النّص أنّه من أهل الجنة ، وذكرنا أنّ أصحاب هذا القول
استدلوا بحديث الجنّازة ؛ لَمَّا مرَّ بها فأثنى عليها الصحابة خيراً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وجبت ، وجبت ،
وجبت) ، وسألوه في آخر الحديث : ما وجبت؟ قال : (أثّنتم عليه خيراً ، فوجب له الجنة ، أنتم شهداء الله في أرضه) .

القول الثالث : من ذهب إلى أنه لا يُشهد ، ولا يُقطع لمُعَيَّن بجنَّة إلاَّ للأنبياء ، ولمن شهد له النَّص . أي ثبت بالنَّص أنَّه من أهل الجنَّة ، وقلنا أنَّ هذا هو رأي جمهور أهل السنَّة ، وهو الذي تشهد له النَّصوص .

الجواب عن دليل أصحاب القول الثاني (حديث الجنازة) ، نقول :

هذا الدليل ليس فيه أنَّ المؤمنين يشهدون ، ويقطعون لأحد بجنَّة ، ولا بغيرها ! غاية ما في ذلك أنَّهم أثنوا ، ولم يحكموا على أصحاب هذه الجنائز ، لأنَّهم أثنوا على إحداها خيراً ، وأثنوا على الثانية شراً ، فقال لهذا : وجبت ، ولهذا وجبت ، هذا وجبت له الجنة ، وهذا وجبت له النَّار ، فهم اثنوا ولم يحكموا ! بل الذي حكم ؛ النَّبي صلى الله عليه وسلم ؛ هو الذي قال وجبت له الجنَّة ، ووجبت لهذا النَّار ، فغاية ما في هذا الحديث أنَّهم أثنوا عليه خيراً ، وهذا من عاجل بُشرى المؤمن ، وممَّا يُستأنس به ، لكن لا يقطع به ! ولهذا نقول : أنَّ الحديث ليس فيه قطع ، بل فيه بشارة ، وأهل السنَّة يقولون : من أثنى عليه أهل الإيمان خيراً ، فهذا يُرجى له خير ، ولهذا قال الإمام أحمد : بيننا وبين أهل البدع الجنائز ! فكثرة حضور الجنازة - خاصة إذا أثنى هؤلاء على هذا المصلي عليه خيراً - فهذا يُرجى له خير .

خلاصة القول : أنَّ أهل السنَّة والجماعة يعتقدون ويقرُّون أنَّه : لا يُشهد لمُعَيَّن كائناً من كان بعينه ، ولا على أحد بعينه من أهل القبلة ؛ أنَّه من أهل الجنَّة ، أو من أهل النَّار ، إلاَّ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن أخبر به النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّه من أهل الجنَّة ؛ كالعشرة المبشرين بالجنَّة ، وما عدا هؤلاء ، فيرجون للمحسن الإحسان ، ويخافون على المسيء الإساءة .

◀ مسألة : هل يشهد على أحد من أهل القبلة بالكفر ؟

ذكر المؤلف بقوله : " ولا نشهد عليهم بكفر ، ولا بشرك ، ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى " . وهذه مسألة من المسائل التي غُني بها من قِبَل أهل السنَّة ، وهي مرتبطة بالمسألة السابقة (الشهادة بالجنَّة والنَّار) ، وذلك أنَّ ما في القلوب لا يعلمه إلاَّ الله ، ولا يحكم على ما في القلوب إلاَّ الله سبحانه وتعالى . إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم - وهو الذي يُوحى إليه - لا يحكم على النَّاس بناء على سرائرهم ، إلاَّ ما أظهره الله عز وجل له من ذلك عن طريق الوحي ، وإلاَّ فالأصل أنَّه يُعامل النَّاس على الظاهر ، ولهذا صار معتقد أهل السنَّة : أنَّه لا يجوز أن يُحكم على أحد بعينه من أهل القبلة ، لا بكفر ، ولا بشرك ، ولا بنفاق ، حتى ولا ببدعة ، إلاَّ إذا ظهر منه شيء من ذلك ، وذلك لعدة أمور :

أولاً : أنَّنا مأمورون بالحكم بالظاهر ، مَنهَيُّون عن الظَّنِّ ، واتباع ما ليس لنا به علم . قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ أَثْمٌ } . فمن حكم بناء على بواطنهم ، وسرائرهم ، فحكمه هذا مبني على الظَّنِّ ، وإذا كان حكمه مبنيًا على الظَّنِّ ، فهو داخل في قوله سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ أَثْمٌ } . يقول سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ } . وقوله تعالى : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } . الشيء الذي ليس عندك منه علم ظاهر (علم يقيني) ، فلست مكلف بأن تتكلف العلم له ، ولهذا لا تحكم على النَّاس إلاَّ بما ظهر لك من أحوالهم ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة - كما في صحيح مسلم - لَمَّا قتل الرجل الذي فعل الأفاعيل في المسلمين - كان هناك حرب بين المسلمين وبين الكفار ، كان فيه رجل فعل في أهل الإسلام الأفاعيل - فأدركه أسامة ، ففرَّ الرجل - وفي رواية : أنَّه لَمَّا أراد أن يُدركه أسامة بسيفه ؛ حالت بينهما شجرة ، فقال الرجل : أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فعاجله أسامة ،

وضربه بالسيف ! الذي يظهر لنا - هو الذي ظهر لأسامه تماماً - ؛ أن هذا الرجل قال هذه الكلمة لما خاف الموت ، لما أدركه أسامة بسيفه ، لكن هل هذا عذر؟ لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فعل أسامة ، نادى أسامة ، قال له : (" أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله؟ قال : يا رسول الله ! ما قالها إلا خوفاً من السيف " - ماذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم؟ وهذا هو الشاهد - " هلاً شققت عن قلبه ") ، ظهر لك أن الرجل قال : لا إله إلا الله ، احكم بناء على الظاهر . ما في القلب ، وما في الباطن ؛ هذا ليس لك ، هو للذي خلق القلوب ، ويعلم ما في السرائر .

الأمر الثاني : أنه لا يعلم ما في القلوب ، ولا ما تنتهي إليه مآلات الناس وأحوالهم ، إلا الله سبحانه وتعالى ، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح مسلم - : (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة) ، فمآلات الناس ، ونهايات الناس هذه لا يعلمها إلا الله ، فلا تحكم على الناس بناء على ما في قلوبهم .

الثالث : لسنا مطالبين ، ولا موكل إيلنا أن ندخل الناس الجنة والنار ، إنما نحن مطالبون بدعوة الناس إلى دين الله عز وجل ، وإلى ما يقربهم إلى الجنة ، وندعوهم إلى ما يباعدهم عن النار ، أما قضية أن نحكم على هذا في الجنة وهذا في النار وهذا مؤمن وهذا كافر ؛ هذا ليس لنا ! هذه أحكام شرعية مرجعها إلى الشارع .

الرابع : تصنيف الناس ، وتوزيع الأحكام عليهم ، وإنزالهم منازلهم ليست من مهام عموم الناس ، هذه أمور شرعية ، لا يمكن أن تثبت إلا بنصوص شرعية ، والمعني بهذا العلماء ، وولاة الأمر ؛ هم الذين ينظرون في الأدلة ، ويحكمون على هذا بهذا الحكم ، ويحكمون على ذاك بهذا الحكم ، أما عامة المسلمين ، عامة الناس فليس لهم أن يحكموا على الآخرين بهذه الأحكام ، والتي غالباً مبناها على الظن والحدس ، ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله : " الكفر حق لله ثم لرسوله ، بالنص يثبت ، لا بقول فلان و فلان " . **الشاهد :** أن ما في القلوب لا يعلمه إلا الله ، ولسنا مأمورين بالحكم على هؤلاء بمثل هذه الأحكام ، بل - كما قال المؤلف - " أننا لا نشهد على أهل القبلة بكفر ، ولا بشرك ، ولا بنفاق ، ما لم يظهر هذا الأمر يقيناً ، فأحياناً قد يظهر لك منه الكفر ، قد يظهر لك منه الشرك ، فلا تحكم عليه بهذا الحكم إلا بعد زوال المانع ، فهذه الأحكام لها ضوابط ، ولها لوازم ، ولهذا هي أحكام شرعية يُرجع فيها إلى أهل العلم ؛ لأنهم هم الذين ينظرون في الأدلة ، ويعرفون من يستحق هذا الوصف ، ومن لا يستحق هذا الوصف .

مسألة : المسح على الخفين :

يقول الطحاوي : " ونرى المسح على الخفين في السفر ، والحضر ، كما جاء في الأثر " . قد يقول طالب أو تقول طالبة ؛ مسألة المسح على الخفين أخذناه في الفقه ، فما علاقة المسح على الخفين بباب العقائد ، ومسائل الاعتقاد؟ مسألة المسح على الخفين من المسائل العملية الفقهية ، فبحثها ، ونقاشها ، ومعرفة أدلتها ، وأحكامها في كتب الفقه ، في كتب الفروض ، فما الذي جعل أهل السنة يضمنون هذه المسألة الفقهية دون بقية المسائل ؛ كتب العقائد؟ **الجواب :** أحكام المسح على الخفين ، هذا في باب الفقه ، وليس لنا علاقة به هنا ! متى يمسخ ، كيف يمسخ ، أين يمسخ ، حكم المسح ، أحكام المسح ، كل هذا لا علاقة لنا به هنا في مادة التوحيد ! إنما الذي يهمنا هنا - وهذا هو السبب الذي جعل أهل السنة يضمنون هذه المسألة الفقهية كتب العقائد - أن مسألة المسح على الخفين من المسائل التي خالف فيها بعض أهل الضلال (وهم الرافضة) ، فأنكروا المسح على الخفين ، ورأوا المسح على القدمين مباشرة ، بدل الغسل ! فصارت مسألة المسح على الخفين شعار من شعائر أهل

السنة، إضافة إلى أنَّ إنكار المسح على الخفين؛ إنكارٌ ما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر، ولهذا ضَمَّنَهَا أهل السنة كتب العقائد. أهل السنة يرون - ومن شعارهم، ومما يميّزهم عن الرافضة - أنَّهم يرون المسح على الخفين لما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أنَّه مسح على الخفين، ويرون غسل الرجلين خلافاً للرافضة الذين يرون المسح على القدمين، فالذين نقلوا وضوء النَّبي صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً، والذين تعلَّموا الوضوء منه، وتوضَّؤوا على عهده، وهو يراهم وبقرهم، ونقلوه إلى من بعدهم؛ كلُّهم نقلوا أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم؛ غسل رجله، ولم يمسح عليهما، بل مسح على الخفين. الذين ذهبوا إلى القول بالمسح على الرجلين استدلوا بالقراءة: {وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ}. الآية فيها قراءتان: {وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ}. (النصب، والخفض)؛ {وَأَرْجُلِكُمْ}، قراءة النصب لا إشكال فيها؛ لأنَّه عطف على الغسل (غسل اليدين). إنَّما الإشكال في قراءة الخفض (التي هي الجر)؛ {وَأَرْجُلِكُمْ}، قالوا إنَّها معطوفة على المسح (مسح الرأس)، وهذا ليس بصحيح! بل الآية أولاً فسَّرها فعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنَّه ما نُقل عنه أنَّه مسح رجله، بل تواتر عنه (من فعله، وإقراره، وفعل الصحابة من بعده) أنَّهم غسلوا أرجلهم. أمَّا قضية القراءة بالعطف، فقال أهل العلم: العطف على المحل؛ كقول الشاعر: "فلسنا بالجبال، ولا الحديد"، وليس معنى مسحت برأسي ورجلي، هو معنى مسحت رأسي ورجلي، فذكر الباء - كما ذكر المؤلف - يفيد معنى زائد على مجرد المسح؛ وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعيَّن العطف على قوله: {وَأَيَّدِيكُمْ}. فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض النَّاس من ظاهر القرآن، فإنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بيَّن للنَّاس لفظ القرآن ومعناه، كما ثبت عن أبي عبد الرحمن السُّلمي، قال: حدثنا الذين كانوا يُقرؤون القرآن (عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما)، أنَّهم كانوا إذا تعلموا من النَّبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات؛ لم يجاوزوها حتى يتعلَّموا معناها، وكما ذكر أهل العلم في ذكر المسح على الرجلين؛ هو تنبيه على قِلَّة الصب في الرجلين، الشاهد: أنَّ المسح على الخفين، وغسل الرجلين؛ من شعار أهل السنة - الذي خالفوا به الرافضة - ولهذا ضَمَّنَهُ أهل السنة كتب العقائد.

◀ مسألة: الحج والجهاد ماضيان إلى قيام الساعة:

ذكر المؤلف: "أنَّ الحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين؛ برَّهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، لا يُبطلهما شيء، ولا ينقضهما". هذا فيه ردُّ على الرافضة الذين زعموا أنَّه لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي المنتظر عندهم (الرضا محمد العسكري)، وينادي منادٍ من السماء اتبعوه!! وهذا القول باطل، وأظهر - كما ذكر المؤلف - من أن يُستدل عليه بدليل. بل عقيدة أهل السنة - والذي تشهد له الأدلة - أنَّ الحج والجهاد ماضٍ مع إمام المسلمين، مع أولي الأمر، أيّاً كان ولي الأمر هذا؛ برّاً أو فاجراً، فإذا نادى الإمام بالجهاد وجب على الأمة أن تنضوي تحت لوائه، وأن تستجيب لأمره، وأن لا تفتت على رأيه. كذلك الحج؛ الحج تحت راية هذا الإمام، وتحت ولايته.

◀ مسألة: الإيمان بالملائكة

قال: "ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين".

مسألة: الملائكة لها عدة تعلُّقات:

أولاً: الإيمان بالملائكة؛ أحد أصول الإيمان وأركانه التي لا يتم الإيمان، ولا تتم عقيدة المسلم، إلا بالإيمان بهذا الأصل العظيم، ولهذا جاء ذكر الإيمان بالملائكة في حديث جبريل المشهور، حيث نصَّ عليه أنَّه الركن الثاني من أركان الإيمان، والإيمان بالملائكة؛ الإيمان بهم إجمالاً، والإيمان بهم تفصيلاً.

الإيمان بهم إجمالاً: الإيمان بأنَّ الله عز وجل ملائكة، لا يعلم عددهم إلا هو سبحانه، خلقهم الله عز وجل لوظائف شتى، ومهام متعددة. جاء في الكتاب والسنة ذكر شيء من هذه المهام، وهذه الوظائف، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، هذا على سبيل الإجمال.

الحلقة (٧)

الأصل الثاني من أصول الإيمان؛ ألا وهو "الإيمان بالملائكة". قول الإمام الطحاوي: "ونؤمن بالكرام الكاتبين؛ فإنَّ الله قد جعلهم علينا حافظين". قلنا هذا متعلق بأصل الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة يتضمن أموراً:

- أولاً: التصديق بوجودهم. أنَّهم موجودون حقيقة، لا كما يقوله الفلاسفة: أنَّهم أشكال نورانية، أو خيالات يتخيلها النَّبي، لا بل نؤمن بوجودهم حقيقةً حساً.
- الأمر الثاني: إنزالهم منازلهم في إثبات أنَّهم عباد لله عز وجل، وخلق كسائر خلقه؛ كالإنس والجن، مأمورون مكلفون، لا يقدرُونَ ولا يستطيعُونَ إلا على ما أقدرهم الله عليه عز وجل، فيجري عليهم ما أراد الله عز وجل إجراؤه عليهم، فليس لهم شيء من خصائص الألوهية، فالموت عليهم جائز، ولكن الله عز وجل جعل لهم أمداً بعيداً لا يتوفاهم حتى يبلغوه.
- الثالث: من لوازم الإيمان بهم؛ أنَّهم لا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى الإشرار بالله عز وجل. بحيث لا يصرف لهم شيء من خصائص الربوبية؛ ليس لهم علم الغيب، ولا القدرة المستقلة عن أقدار الله عز وجل لهم، فهم كسائر الخلق، خلقهم الله، حدد وظائفهم، جعل لهم قدراً لا يجاوزونه.
- الرابع: من لوازم الإيمان بهم؛ الإيمان بأنَّ منهم رسلاً يرسلهم الله عز وجل إلى من يشاء من البشر؛ كما هي الحال مع جبريل عليه السلام، فإنَّه رسول الله إلى رسول الله عز وجل.
- الخامس: الإيمان بهم جملة على وجه الإجمال، وأنَّه لا يعلم عددهم إلا الله، ولا يحصهم إلا الله عز وجل: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}. وفي الحديث الآخر: (أَطَّت السماء، وَحُقَّ لها أن تأط؛ ما فيها موضع شبر - وفي رواية: أربعة أصابع - إلا وملك قائم، أو ساجد، أو راکع)، وأيضاً في حديث الإسراء: (ثم رُفِعَ إِيَّيَّيَّ بالبيت المعمور، فقال لي جبريل: هذا البيت المعمور يطوف به كل يوم ستون ألف ملك لا يرجعون إليه إلى يوم القيامة).
- السادس: من لوازم الإيمان بهم؛ الإيمان بمن ذكرهم الله عز وجل على وجه الخصوص، فنثبتهم بأعيانهم، بأسمائهم؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ونحوهم.
- السابع: من لوازم الإيمان بهم؛ الإيمان بأنَّ الله عز وجل خلقهم، وكلفهم بمهام مختلفة؛ فمنهم الموكَّل بالوحي كما هي الحال بالنسبة لجبريل، ومنهم من هو موكَّل بالقطر كما هي الحال بالنسبة لميكائيل، ومنهم من هو موكَّل بالنفخ في الصور كما هي الحال لإسرافيل، ومنهم ما هو موكول بالثَّار ورعايتها كما هي الحال بالنسبة لمالك - كما ثبت في بعض النصوص -، ومنهم الموكَّل بحفظ أعمال بني آدم - كما سيأتي - الذين نصَّ عليهم المؤلف هنا، ومنهم الموكَّل بالجنين في بطن أمه، ومنهم الموكَّل بالموت، ومنهم الموكَّل بحفظ أعمال، أو حضور حلقات العلم، ومنهم الموكَّل ومنهم الموكَّل... الخ. الشاهد؛ إنَّ الله عز وجل خلقهم، وكلفهم بأعمال؛ ذكر بعضها، وأخفى علينا البعض الآخر.
- الثامن: من لوازم الإيمان بهم؛ الإيمان بما ثبت من صفاتهم؛ فهناك صفات خلقية، وصفات خلقية. الصفات الخلقية كما ذكر الله عز وجل أنهم: أولو أجنحة؛ مثنى، وثلاث، ورباع. النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته التي

خلقه الله عليها؛ له ست مائة جناح ! كل جناح مدّ البصر . وإنَّ الله عزَّ وجل خلقهم وأعطاهم القدرة أنَّهم يتشكلون ، فقد كان جبريل - أحياناً - يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة رجل (في صورة ؛ دجيه الكلي) . في الحديث المشهور : " دخل علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد " - أي ليس منا في المدينة ، وليس من خارج المدينة ؛ لأنَّه لا يُرى عليه أثر السفر ، في النهاية - (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم) ؛ يعني جاء في صورة رجل .

- التاسع : من لوازم الإيمان بهم ؛ الاعتقاد أنَّ الله خلقهم من نور - كما ثبت في صحيح مسلم - : (خلق الملائكة من نور ، وخلق الجآن من نار ، وخلق بني آدم من ما هو معلوم) ؛ أي من طين .
 - العاشر : من لوازم الإيمان ؛ أنَّهم كرام كاتبين ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .
 - الحادي عشر : أنَّهم متفاوتون في الخلقة ، وأنَّهم لا يملُّون ، ولا يتعبون ، ولا يسأمون ، ولا يفترون : {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ} . لا كما هي الحال بالنسبة لبني آدم ؛ يعترهم الملل ، ويعترهم التعب ، لا . الله عزَّ وجل خلقهم ، وجعل لهم هذه الخاصية ، وهذه الصفة ، ولهذا قال سبحانه : {فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} . الشاهد ؛ أنَّ نصوص الكتاب والسنة حقَّت بصفاتهم وذكرهم .
 - الثاني عشر : من لوازم الإيمان بهم ؛ الإيمان بهذه الصفات جملة وتفصيلاً .
- المؤلف هنا ذكر لنا نوعاً من أنواع هؤلاء الملائكة ؛ إلا وهم :

١ - الموكلون بكتابة أعمال بني آدم :

الدليل على ذلك الكتاب والسنة ؛ أمّا من الكتاب ، فقوله سبحانه : {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} . وقال تعالى : {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} . وقوله سبحانه : {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} . وقوله تعالى : {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} . وقال تعالى : {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} . بمعنى أنَّ الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم ، وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنَّه قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار ، يجتمعون في صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، فيصعد إليهم الذين كانوا فيكم ، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وفارقناهم وهم يصلون) . الشاهد : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار " ؛ بمعنى إنَّ هناك ملائكة يُوكلون بكتابة عمل الإنسان في النهار ، وهناك ملائكة يُوكلون بعمل بكتابة عمل الإنسان في الليل وفي الحديث الآخر : (إنَّ معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع ، فاستحيوهم ، وأكرمواهم) ، كما جاء ذلك عند الترمذي وغيره .

جاء في تفسير هذه الأحاديث : اثنان عن اليمين ، وعن الشمال ؛ يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب اليسار يكتب السيئات ، وملكان آخران يحرسانه ؛ واحد من وراءه ، وواحد من أمامه ، فهو بين أربع أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، وثبت عن عكرمة ، عن ابن عباس : {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} ، قال : " ملائكة يحفظونه من بين يديه ، ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله ؛ خلَّو عنه " ؛ بمعنى أنَّهم يحفظون هذا الإنسان من ما يُصيبه ، لكن إذا جاء القدر ؛ خلَّو بينه وبين القدر . وثبت في صحيح مسلم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجنِّ ، وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإيَّاك يا رسول الله ! قال : وإيَّاي ، ولكن أعاني الله عليه ؛ فأسلم ، فلا

يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ) ، يعني قريبه الجن . الشاهد ؛ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جعل هؤلاء الملائكة ؛ مهمتهم حفظ أعمال بني آدم ، وكتابة أعمال بني آدم . ثبت في التّصوُّص المذكورة ؛ أَنَّ هذه الملائكة تكتب القول ، والفعل ، وكذلك النِّية (الهم) ؛ لِأَنَّهَا فعل القلب ، فدخلت في عموم : (يعلمون ما تفعلون) . بمعنى أَنَّ هؤلاء الملائكة يكتبون فعل العبد ، وقول العبد ، وهمَّ العبد (نية العبد) ، وهذا عام في قوله سبحانه : {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} لِأَنَّ النِّية عمل من أعمال القلوب ، يوضح هذا ، ويشهد لهذا ؛ قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ ، فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَمَلَهَا ؛ فَاتَّكَبُوهَا عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمَلَهَا ؛ فَاتَّكَبُوهَا عَشْرًا) . هذا الحديث أثبت أَنَّ الملائكة تكتب ما يهَمُّ الإنسان به ؛ يعني يعزم عليه (ما فيه قول ، ولا فعل) ، إِنَّمَا هَمَّ قَلْبُهُ ؛ عزم قلبه على فعل حسنة ، أو فعل سيئة ، فاللَّهُ أَمَرَ الملائكة أَنْ تكتب هذا الهمَّ ، ولهذا نقول : اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقْدَرَ هذا النوع من الملائكة ، وألهمهم ؛ أَنَّهُمْ يعلمون ما يهَمُّ به الإنسان . ثبت عند مسلم ؛ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال : (" قالت الملائكة : ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال : ارقبوه " - لاحظ ؛ يريد أن يعمل سيئة ؛ الإرادة ؛ عمل جوارح ، وإلَّا عمل القلب ؟ الإرادة : عمل قلبي . " يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به " ؛ أي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . " فقال " ؛ اللَّهُ يقول لهم . هم الآن يقولون : يا رب هذا عبدك يريد ؛ يعني هَمَّ قَلْبُهُ ، وانطوى قلبه على فعل سيئة ، ماذا نعمل ؟ فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لهم : " ارقبوه ، فَإِنْ عَمَلَهَا ، فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا " ؛ إِنْ قَالَ أَوْ فَعَلَ ، هُوَ الْآنَ أَرَادَ مِثْلًا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِسَوْءٍ (لم يتكلم ، لكن أراد) عزم قلبه على أن يتكلم بسوء (أن يلعن ، أن يغتاب ، أن ينم ، أن يسب ...) ، إِلَى الْآنَ مَا تَكَلَّمَ ! اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يقول : " ارقبوه " ؛ راقبوه ، فَإِنْ عَمَلَهَا (تكلم ، تحرك لسانه بهذه المعصية) ، فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا ؛ سيئة واحدة . إنسان يريد - مثلاً - أن يسرق (عزم قلبه على السرقة ، على أخذ مال حرام) ، أَرَادَ أَنْ يَغْشَى ، أَرَادَ أَنْ يَخْدَعَ ، أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَكَانٍ لِيَزَاوِلَ مَعْصِيَةً مِنَ الْمَعَاصِي ، هُوَ مَا فَعَلَ إِلَى الْآنَ ! أَرَادَ أَنْ يَشْرِبَ الْخَمْرَ ، مَا فَعَلَ (هَمَّ قَلْبُهُ) ، إِلَى الْآنَ مَا فِيهِ لَا فَعَلَ وَلَا قَوْلَ ، مَا هُوَ الْعَمَلُ ؟ الملائكة تستأذن اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وهذا يدلُّ أَنَّهُمْ يعلمون ما يهَمُّ العبد به في قلبه ؛ اللَّهُ أَقْدَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، يقول لهم اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ : (ارقبوه ، فَإِنْ عَمَلَهَا ، فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا ، فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي) ، وفي رواية أخرى : (وَإِنْ تَرَكَهَا لِأَجْلِي ، فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً) ؛ يعني إِذَا تَرَكَهَا الْإِنْسَانُ ؛ هَمَّ أَنَّهُ يَشْرِبَ الْخَمْرَ ، ثُمَّ تَذَكَّرَ مِرَاقَبَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ، تَذَكَّرَ أَنَّ اللَّهَ سَيَحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ ، أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِ شَرْبَ الْخَمْرِ ، فَارْتَدَّ ، أَمَامَهُ الْخَمْرُ ، لَكِنَّهُ مَا شَرَبَ ، حَتَّى مَا رَفَعَ الْكَأْسَ ، كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ فِي قَلْبِهِ ، النَتِيجَةُ : النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : (إِنَّمَا تَرَكَهُ مِنْ جَرَّائِي ، فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً) ، الحديث في الصحيحين .

إِذْنُ نَقُولُ : الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ، سواءً فعل ، أو قول ، ويكتبون ما هَمَّ به الإنسان في قلبه ، الدليل على ذلك عموم قوله سبحانه : {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} . ويُفَسِّرُ هذا تفصيلاً ما ذكرناه من النصوص الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ - الإيمان بملك الموت :

يقول المؤلف : " بعد ذلك ونؤمن بملك الموت المؤكَّل بقبض أرواح العالمين " . من لوازم الإيمان بالملائكة - كما عرفنا - ؛ الإيمان بالكرام الكاتبين ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ ذِكْرُهُمْ تَفْصِيلاً ، فنؤمن بهم على وجه التفصيل ، وعلى وجه الخصوص ؛ أَنَّ اللَّهَ أَوَّلَ بَنِي آدَمَ ملائكة يكتبون أعمالهم حسناتها وسيئها .

كذلك من لوازم الإيمان بالملائكة ؛ الإيمان بملك الموت المؤكَّل بقبض أرواح العباد .

◀ مسألة : هل ملك الموت واحد ، أم مجموعه من الملائكة ؟

الله عز وجل يقول : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } . آية أخرى ، تقول : { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } . آية ثالثة : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى } . الآن آية نصّت على أنّ ملك الموت واحد : (قل يتوفاكم ملك الموت) ، آية أخرى ذكرت أنّ ملك الموت ملائكة ، وليس ملك ! : (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رُسُلُنَا } . آية ثالثة تذكر : (أنّ الله هو الذي يتوفّى الأنفس) ، الجمع بين هذه النصوص :

أنّ ملك الموت واحد ، وليس متعدد . واحد ؛ كما جاء صريحاً في هذه الآية : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ } . أمّا الملائكة الذين جاء ذكرهم في الآية الثانية ؛ فهؤلاء أعوانه يأتمرون بأمره ، فملك الموت هو الذي يتولى قبض الروح ، ثمّ يسلمها لهؤلاء الملائكة - كما جاء تفصيلاً في حديث أبي أيوب ، كما سيأتي في حديث الطويل - هؤلاء الملائكة هم ؛ ملائكة الرحمة إن كان من الصالحين ، أو ملائكة العذاب إن كان من الفجار ، أو الكفار ، أو المنافقين . الشاهد ؛ أنّ الذي يتوفّى الأنفس هو ملك الموت ، هو الذي يقبض الروح ، لكن يسلمها لهؤلاء ، أو لأولئك . أما نسبة التوفّي إلى الله عز وجل ؛ فلا أنّ الملك لا يقبض الروح من جراء نفسه ، بل إذا أذن الله عز وجل له بذلك ، وقضاه وقدره على أنّ هذا الإنسان يموت في هذه اللحظة يتولّى ملك الموت هذه المهمة ، إذن صحّت إضافة الموت ؛ لملك الموت ، وللملائكة ، والله عز وجل ، ولا تناقض بين هذه الأقوال جميعاً .

ذكر المؤلف - رحمه الله - مسائل متعلقة بهذه المسألة ؛ من هذه المسائل :

◀ مسألة : الروح

ما هي هذه الروح ؟ وهل هي التّفس ، أم هي أمر آخر ؟ وهل هي جزء من البدن ، أو عرض من أعراضه ؟ هل هي جسم ، أو ليست بجسم ؟ هل هي جوهر ، أم ليست بجوهر ؟ هل التّفس هي الروح ، أو الروح مخالفه للتّفس ؟ هل الأنفس متعددة ، أم نفس واحدة ؟ هل هناك نفس أماره ، ونفس لوامة ، ونفس مطمئنّة ؟ أم هي واحدة تتصف بهذه الصفات ؟ هل الروح تموت ، أم الموت للبدن وحده ؟ هذه مسائل متعددة تكلم عنها المؤلف بشيء من التفصيل هنا ، وفي واقع الأمر أنّ المقام لا يحتمل الحديث عنها تفصيلاً ، لكن أشار المؤلف إليها إشارات بسيطة ، وقد فصل الكلام فيها الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه " الروح " .

الحلقة (٨)

ذكر المؤلف مسألة متعلقة بالموت ، وقبض الأرواح ، فملك الموت يقبض الروح ، فكان من المناسب أن يتكلم عن الروح ، ولهذا ذكر شيئاً من المسائل المتعلقة بالروح ، سنتطرق لشيء منها في هذه الحلقة .

أولى هذه المسائل : هل التّفس هي الروح ، أم هما متغايران ، وهل مسأهما واحد ؟

عندنا نفس ، وعندنا روح . هل التّصوص التي جاءت في ذكر التّفس ؛ المقصود بهذه التّفس هي الروح ؟ أم أنّ التّفس شيء ، والروح شيء آخر ؟ عندنا نصوص جاءت في ذكر الروح ؛ فالتّفس تطلق على أمور ، وكذلك الروح تطلق على أمور أخرى :

أ - أحياناً يتّحد مدلولهما ؛ تكون دلالة التّفس هي دلالة الروح ، ودلالة الروح هي دلالة التّفس .

ب - أحياناً تختلف الدلالات ؛ يكون للتّفس معنى خاص ، وللروح معنى خاص :

١ - التّفس تطلق ، ويراد بها : الدم ؛ كما جاء في الحديث : (ما لا نفس له سائلة) ، وهذا عند الفقهاء ؛ بعض الكائنات

الحية لا دم لها ! ولهذا جاء : (ما لا نفس له سائلة) ؛ أي لا دم له سائلة .

٢ - تطلق النَّفْس ويراد بها : العين . فيقال أصابت فلاناً نفساً ؛ أي عين ، أي أصيب بعين .

٣ - تطلق النَّفْس ويراد بها : الذات ؛ ذات الشيء ، ومنه قول الله عز وجل : { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } . وقوله : { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } ؛ أي سلّموا على ذواتكم ؛ أشخاصكم ، ولا تقتلوا ذواتكم .

٤ - تطلق النَّفْس ويراد بها : الروح .

◀ مسألة : هل لابن آدم نفس واحدة ، أم له أنفس متعددة ؟

وردت في بعض النصوص الشرعية ؛ ذكر لعدد من الأنفس والصفات ، وأحوال مختلفة لهذه النفس :

١ - انتبه إلى قوله سبحانه وتعالى : { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } ، لاحظ هنا نفس أمّارة بالسوء ؛ تأمر صاحبها بالوقوع في السوء والمعصية .

٢ - جاء في نص آخر : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } ، جاء هنا أنّ النفس مطمئنة . هناك نفس تأمر بالسوء ، وهنا نفس مطمئنة ؛ ساكنة .

٣ - نص ثالث : { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } ؛ بمعنى : التي تلوم صاحبها .

◀ مسألة : هل معنى هذا أنّ لكل إنسان ثلاثة أنفس ، أم هي أنواع للنفوس ، أم صفات لنفس واحدة ؟

هل لكل إنسان ثلاثة أنفس ؛ نفس لَوَّامة ، ونفس مطمئنة ، ونفس أمّارة بالسوء ؟ أي هذه النفوس تغلب عليه ؛ ينتسب إليها ، ويفعل ما تأمره بها ؟ أم هي نفس واحدة " تتلون " ؛ تتصف أحياناً بالطمأنينة ؛ وأحياناً تلوم صاحبها ، وأحياناً تأمره بالسوء . والقول الراجح (القول الحق) : أنّ لكل إنسان نفساً واحدة ، لكن لهذه النفس صفات وأحوال ؛ فإمّا أن تكون لَوَّامة (نفسه هذه الوحيدة ؛ هي نفس واحدة ، أحياناً تكون لَوَّامة) ، أو تكون مطمئنة ، أو تكون أمّارة بالسوء . لكن هل هي إذا اتصفت بهذه الصفة ؛ تستمر ؟ لا ! أحياناً في حال تكون ؛ لَوَّامة ، وأحياناً تكون ؛ أمّارة بالسوء ، وأحياناً ؛ مطمئنة . بقدر الإيمان في قلب العبد ؛ بقدر ما يكون لهذه النفس من الصفات ؛ فإذا غلب الإيمان على قلبه ؛ أصبحت نفسه مطمئنة ، إذا غلب الإيمان عليها أصبحت لَوَّامة (يفعل الذنب ثم تلومه عليه) . أحياناً تكون أمّارة بالسوء ، بل أحياناً تأمره بالسوء ، فإذا وقع فيه انقلبت معه إلى الصفة الثانية ! أصبحت لَوَّامة ؛ لامته على فعل السوء ، ثم بعد ذلك وُقِيَ للتوبة ؛ فتاب ورجع إلى الله ، فأصبحت نفساً مطمئنة . عرفنا الآن أنّ الإنسان يحمل نفساً واحدة ، وتتصف هذه النفس بثلاث صفات .

◀ مسألة : هل الروح هي النفس ، أم تختلف ؟

هل الروح والنفس مترادفتان ، أم الروح شيء والنفس شيء آخر (يعني متغايران ، ومتباينان) ؟ يلاحظ أنّ النصوص الشرعية :

١ - تأتي بهذين المعنيين (معنى النفس ، ومعنى الروح) ؛ بلفظ واحد ؛ فتستعمل الروح في معنى النفس ، وتأتي بالنفس في معنى الروح .

٢ - قد يستعمل كل لفظ بمعنى خاص ، وبإطلاق خاص ! كما أنّ الإنسان هو بمجموع ثلاثة أمور ؛ النفس ، والروح ، والبدن .

◀ مسألة : إذا استعملت الروح والتَّفس بمعنى واحد ، فما معنى هذه الروح ؟

هذه مسألة شائكة ، ومسألة تحبَّط فيها النَّاس قديماً وحديثاً ! لكن قبل أن نذكر الأقوال في معنى الروح ؛ نحقق مسألة التَّفس والروح !

◀ مسألة : التَّفس والروح :

أَنَّ الروح إذا كانت متصلة بالبدن ؛ فيطلق عليها نفس . لأجل أن نعرف تعريف الروح على وجه الخصوص : ١ - الروح إذا تعلَّقت بالبدن (صارت في البدن ؛ يعني كائن حي ؛ لأنَّ البدن لا يكون حياً إلا بهذه الروح) ؛ فتسمَّى نفس .
٢ - إذا انفصلت الروح عن البدن (بأي نوع من أنواع الانفصال) ، فإن الإطلاق الشرعي عليها يكون بمسمَّى ؛ الروح ، ولا تسمَّى نفس .

غالب ما يأتي إطلاق التَّفس على الروح إذا كانت متصلة بالبدن ؛ كقوله سبحانه : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} . أمَّا إذا انقطعت وانفصلت ؛ فتسمَّى روح كما جاء في حديث أبي سلمة : (إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ ، تَبِعَهُ الْبَصَرُ) . هذا هو التحقيق في المسألة ؛ نطلق على الروح ؛ نفس إذا كانت متصلة بالبدن - على وجه العموم ، وعلى الأغلب - ، فإذا انفصلت الروح عن البدن لا نطلق عليها نفس ، ونطلق عليها روح .

◀ مسألة : هل الروح قديمة أم محدثة ؟

هذه مسألة أيضاً شائكة ؛ ينبغي أن نتطرق لها قبل أن نتطرق للتعريف . ابن القيم - رحمه الله - يقول : " هذه مسألة زلَّ فيها عالم ، وظل فيها طوائف كثيرة من بني آدم ، وهدى الله أتباع رسله فيها للحق المبين " . الفلاسفة زعموا أنَّها قديمة ! أمَّا الصواب المستبين - كما قال ابن القيم - : " الذي أجمعت الرسل ، واتَّفقت الكتب عليه ؛ أَنَّ الرُّوحَ مُحَدَّثَةٌ ؛ مخلوقة ، مصنوعة ، مربوبة ، مُدَبَّرَةٌ ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل ، كما أنَّنا نعلم ضرورةً ؛ أَنَّ هذا العالم حادث " ؛ (هذا الكون حادث ؛ خلقه الله عز وجل بعد أن لم يكن كذلك ؛ هذه الروح مخلوقة حادثه بعد أن لم تكن) ، قال تعالى : {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً} . ولهذا الله عز وجل خلق هذه الأرواح كما خلق سائر المخلوقات ؛ خلقها وأوجدها من العدم ، ولا يقول مسلم عاقل أَنَّ هذه الروح قديمة .

معنى " قديمة " : أنَّها لم تنشأ من العدم ؛ بمعنى أنَّها لم تخلق من لا شيء ، الدليل على ذلك :

الأدلة كثيرة - وكما ذكرت - أنَّنا لا نحتاج كثيراً إلى ذكر جملة كثيرة من الأدلة ؛ لأنَّ هذا ممَّا يعلم بالاضطرار من دين الرسل ، ولكن لا مانع أن نذكر شيء من الأدلة :

منها قوله تعالى - الذي أشرت إليه - : {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً} . وقوله سبحانه وتعالى : {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} . ما يخرج شيء من المخلوقات عن هذه العموم ، فلماذا أخرجوا الروح ؟ الروح كسائر المخلوقات داخلية في عموم " كل " ؛ {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} . أيضاً قوله سبحانه : {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً} . أي هذا الإنسان خلقناه (الإنسان أسم للروح والجسد) : (خلقناه من قبل ولم يكن شيئاً) . تمسك هؤلاء الزنادقة الملاحدة الذين زعموا أَنَّ الروح قديمة ، وأنها ليست مخلوقة ، تمسكوا في ما أشتبه عليهم في قوله سبحانه : {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} . وتمسكوا بقوله سبحانه : {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي} . فقالوا : إذن هذه الروح جزء من الله عز وجل ! كما قال النصارى ؛ سواء بسواء في المسيح ، وإذا كانت الروح جزء من الله ؛ بمعنى أنَّها قديمة بقدم الله سبحانه وتعالى ، والجواب عن هاتين الشبهتين :

فقلوه سبحانه : {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} . " الأمر " في لغة العرب يأتي بمعنيين :

١ - معنى الأمر : المأمور . والمراد به هنا : من الأمر ؛ بمعنى المأمور ، بدليل " من " ؛ {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} . فهي إذن مخلوقة ، مأمورة ، مرغوبة ؛ (فكل مأمور ، فهو مرغوب) . أمّا قوله سبحانه : {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} ، فالعرب تقول : إنَّ ما أضيف إلى الشيء ، فهو نوعان ؛ (إذا أضفت الشيء إلى الشيء ؛ نوعان) :
النوع الأول : إضافة أعيان ؛ (أشياء عينيه) ؛ فهي من باب إضافة المخلوق لخالقه ، والإضافة هنا إضافة تشريف ؛ كقوله سبحانه : (ناقة الله) ، و (بيت الله) ، فهل يعني ؛ أنَّ هذه الناقة - تعالى الله - جزء من الله ؟! هذا " البيت " جزء من الله ؟! كذلك قوله سبحانه وتعالى : {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} ، نسب الروح لنفسه من باب التشريف ، لا من باب إضافة الصفة !

النوع الثاني من الإضافة وهو : إضافة الصفة للموصوف . مثل : العلم . مثل : السمع . مثل : القدرة . مثل : الإرادة . فإذا أضافها الله عزَّ وجل لنفسه ، فهي من باب : إضافة الصفة للموصوف . وأضرب لكم مثال بسيط - والله المثل الأعلى - إذا قلت : سمعي ، وبصري - أنا المتكلم - فمعناه ؛ أضفت صفه من صفاتي لنفسي . لكن إذا قلت بيتي ، سيارتي ، أولادي ، قلبي ، كتابي ، فهذا من باب إضافة الشيء ؛ (العين القائمة) ، للنفس إضافة تشريف ، فكأنني أشرف هذه الأشياء ؛ أنَّها منسوبة إلي .

الحلقة (٩)

كنّا توقفنا في الحلقة السابقة على الكلام في بعض المسائل المتعلقة بالروح ، ولعلنا نكمل في هذه الحلقة بقيّة المسائل المتعلقة بهذه المسألة المهمّة ، والتي - سبق وأن ذكرت أنّه - تخبّط فيها أناس كثيرون ، وضلّ بسببها أقوام ، وليس الكلام فيها مجادث أو مجديد ، بل تكلم فيها الفلاسفة قديماً ، وتكلّم فيها أهل الضلال من المتكلمين وغيرهم ، ولا زال النَّاس يتخبطون في هذا الموضوع ، والسبب في ذلك - كما سيذكر المؤلف - ، لأنَّ هذه الروح مخالفه بالماهية لما نشاهده ونعده من الأجسام المشاهدة .

ذكرت وأكّدت عليكم في أوّل محاضرة ، أو أوّل لقاء ؛ أنّه لا بدَّ أن يكون الكتاب بين أيديكم ، وذلك أن فقرات المنهج ، ومفردات المنهج متعلّقة بشرح العقيدة الطحاوية ، بل هذه الفقرات مرتّبة حسب ترتيب المؤلف ، ولهذا سيكون شرحنا بناءً على هذا الترتيب .

◀ مسألة : ماهية الروح :

يقول المؤلف : " واختلف في الروح " . المسألة التي عندنا الآن : ماهية هذه الروح ؟ ما حقيقتها ؟ تحبّط النَّاس في هذه المسألة ، وكلّ تكلم بما ظنَّ أنّه هو الحق !

يقول المؤلف : " واختلف في الروح ما هي ؟ فقليل هي :

١ - " جسم " ! ذهب قوم إلى أنَّ الروح جسم كسائر الأجسام .

٢ - " وقيل عرض " .

العرض هو : ما لا يقوم بنفسه ، بخلاف الجسم . فمثلاً : الحياة ، القدرة ، الإرادة ، السمع ؛ هذه أعراض ، بخلاف - مثلاً - اليد ، الوجه ؛ هذه أجسام .

من النَّاس من قال الروح ؛ جسم . وقابلهم آخرون وقالوا : الروح عرض ، يعني ؛ كبقية الصفات التي هي أعراض وليست

أجسام .

٣ - يقول : " وقيل - القول الثالث - : لا ندري ما الروح " . بمعنى توقفوا ! لا ندري ما هي ؛ هل هي عرض ، أم جسم ؟ - يقول : " لا ندري ما الروح ! " أجوهر أم عرض " .

٤ - وقيل : " ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع " . التي هي : البرودة ، والحرارة ، والرطوبة ، واليبوسة .

٥ - وقيل : " هي الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات " . أي أنّ الروح هي : الدم الصافي الخالص من الكدر ، ومن العفونات .

٦ - وقيل : " هي الحرارة الغريزية " .

٧ - وقيل : " الحياة " .

٨ - وقيل : " جوهر بسيط ، مُنبث في العالم كله من الحيوان ، على جهة الأعمال له والتدبير ، وهي على ما وُصفت من الانبساط في العالم ، غير منقسمة الذات والبنية ، وأنها في كل حيوان العالم ؛ بمعنى واحد لا غير " . بمعنى أنها متساوية .

٩ - وقيل : " النَّفْس هي : النسيم الداخل والخارج بالتنفس " . أي الهواء المتردد في جوف الإنسان .

١٠ - يقول المؤلف : " وقيل غير ذلك " .

الشاهد : أن كل هذه الأقوال لا تستند إلى الدليل والبرهان (ليس لها دليل ولا برهان) ، إنّما هي اجتهادات ، وتخبّطات .

سيذكر المؤلف الضابط الصحيح للروح المستند للأدلة ، لكن قبل ذلك جاء بجملة اعتراضيه ، يقول : " وللتّاس في مسمّى

الإنسان (هذا الإنسان) : هل هو الروح فقط ، أو البدن فقط ؟ " ؛ يعني هل الإنسان هو روحه ، أم بدنه ، " أو مجموعهما ، أو

كل منهما ؟ " ، يقول : وهذه الأقوال الأربعة :

١ - منهم من قال : أن الإنسان هو الروح .

٢ - ومنهم من قال : أن الإنسان هو البدن .

٣ - ومنهم من قال : أنّه مجموع الروح والبدن .

٤ - أو من قال : كلّ منهما .

يقول " وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه (أي في كلام الله) ، هل هو اللفظ فقط ، أو المعنى فقط ، أو هما ، أو كلّ منهما ؟

فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه " . وهذا تقدم الكلام عليه في مسألة ؛ هل الكلام يطلق على اللفظ ، أم يطلق على المعنى

المعبّر عنه بهذا اللفظ . إذن الإنسان ما هو ؟ هل هو الروح أم البدن ؟ يقول : " والحق أنّ الإنسان اسم لهما " ؛ بمعنى أن

الإنسان لا يسمّى إنسان إلا إذا كان جسد فيه روح ؛ فيسمّى إنسان . يقول : " وقد يطلق على أحدهما بقرينه وكذلك الكلام "

؛ يعني الكلام يراد به ؛ اللفظ أحياناً ، ويراد به المعنى أحياناً ، ويحدد هذا المعنى القرينة (سياق الكلام) ، كذلك - يقول -

قد يراد بالإنسان ؛ الروح ، وقد يراد بالإنسان ؛ الجسد ، لكن لا بد من قرينة . الأصل أن الإنسان لا يطلق عليه هذا الاسم

إلا باجتماع الروح مع الجسد .

عاد مرّة أخرى ليبين حقيقة الروح الذي دل عليه الدليل وقام عليه البرهان . هو ذكر الأقوال السابقة - التي ذكرناها -

لكن هذه الأقوال لا مستنداً لها ولا حجة ولا برهان لمن قال بها ! القول الصحيح : يقول : " والذي يدلّ عليه الكتاب

والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل ؛ أنّ النَّفْس - أي الروح - جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس " . الروح جسم

مخالف لهذه الأجسام التي نشاهدها ؛ يعني يخالف لجسم الإنسان ، يخالف لجسم الجبل ، لجسم الطير . " مخالف بالماهية " :

أي بالحقيقة لهذه الأجسام المشاهدة . بمعنى أنّه جسم ليس له مثيل ؛ هذا معنى كلام المؤلف ! هنا لنا هنا وقفه سنعود عليها مرة أخرى ! يقول (لهذا الجسم المحسوس) : " وهو جسم نوراني ، علوي ، خفيف ، حي ، متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء (أي أعضاء الإنسان ؛ يعني يدخل في كل الأعضاء ، ويمتزج بكل الأعضاء) ، ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون ، والثآري في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء (أي أعضاء الإنسان) ، صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف " أي الروح ، إذا كانت هذه الأعضاء قابله أنّها تتحمل وتتقبل هذا الجسم التي هي الروح ، يقول : " بقي ذلك الجسم اللطيف ساريا في هذه الأعضاء (يعني بقي هذا الجسم حي متحرك) ، وأفادها هذه الآثار ؛ من الحسّ والحركة الإرادية ، وإذا فسدت هذه (أي فسدت هذي الأعضاء) ، بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن قبول تلك الآثار ؛ فارق الروح البدن ، وأنفصل إلى عالم الأرواح " .

مناقشة :

كلام المؤلف - رحمه الله - هنا بعضه يحتاج إلى دليل ! هو نقله عن ابن القيم - رحمه الله - في كتاب " الروح " ، وابن القيم وابن أبي العزّ أجباء إلى قلوبنا ، لكن الحق أحب إلينا - كما قال ابن القيم مع أبي إسماعيل الهري - ، فقول المؤلف هنا - وهو الذي نقله عن ابن القيم رحمه الله - : " أنّ الروح جسم " يفتقر إلى دليل ! وليس هناك دليل يدل على أنّ الروح جسم ؛ اللهمّ إلا أدلّه مُحتمله ، لكن ليست بنص صريح ! ولهذا نقول : أنّ الروح توصف ، وتبين حقيقتها بما ثبت بالكتاب والسنة من الأوصاف ، وما عداها يجب الإمساك ؛ لا نتوسّع في ذلك . نحن ذكرنا أنّ الأقوال السابقة جميعها تفتقر إلى دليل ، وتحتاج إلى برهان ، كذلك أيّ قول يأتي به إنسان - كائناً من كان - فيصف به ماهيّة هذه الروح ، و حقيقة هذه الروح ؛ نقول : ما دليلك ، ما الدليل على هذه الصفة ؟ الآن المؤلف سيذكر أوصافاً بأدلتها ، فهذا هو الحق ، يقال - مثلاً - : أنّ الروح تسمع ، أنّها تسيل ، أنّها تتوفى ، أنّها تُقبض ، أنّها تصعد ، أنّها تنزل ، كلّ هذه صفات ثبتت بالنص فنقول بها ، ولا نتخرج في ذلك . من قال بصفة من صفاتها ، أو حدد ماهيّة من ماهياتها ، فنقول له : ما دليلك ؟ ولهذا الحق أنّنا نثبت لها الصفات الثابتة بالأدلة ، والتي سيذكر المؤلف الآن شيئاً منها في قوله .

يقول : " والدليل على ذلك " ، يريد أن يستدل على هذا الضابط الذي ذكره ، لكنّ الأدلة التي ذكرها تشهد لبعض هذه الصفات ، لا تشهد بجميع هذه الصفات !

الأدلة على بعض صفات الروح :

١ - يقول : " قوله تعالى : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} . هذه الآية نستدل منها على ؛ أنّ النفس تتوفى ، يقول : " ففيها الإخبار بتوفيتها ، وإمساكها ، وإرسالها " . نثبت لها الوفاة ، والإمساك ، والإرسال .

٢ - يقول : " وقوله تعالى : {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم} . ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها ، ووصفها بالإخراج والخروج ، إذن نصف الروح ، ونقول : أنّها تخرج ، وتخرج .

٣ - والإخبار بعذابها ذلك اليوم : {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم} . إذاً هي تُعَذَّب بهذا الشكل ، وسيوضح هذا تفصيلاً ؛ حديث البراء الذي سيأتي في مسألة ؛ عذاب القبر ، ونعيم القبر ، والإخبار عن مجيئها إلى ربها .

٤ - يقول : " وقوله تعالى : {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} . ففيها الإخبار بتوفى

النفس بالليل " . فهذي أيضا صفه من صفات النفس ؛ أنها تتوفى بالليل ، " وبعثها إلى أجسادها بالنهار " ؛ بمعنى أنها تُبعث مرّة أخرى إلى أجسادها ، فلها تعلّق بالجسد ، وانفصال عنه حال النوم ، وحال اليقظة ، " وتوفّي الملائكة لها عند الموت " ، بمعنى : إنّ الملائكة تتوفى هذه الأنفس عند الموت . فهذي كلها صفات ثابتة بالأدلة ، فنقول بها دون أدنى تحرج .

٥ - يقول : " وقوله تعالى : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } . يقول في هذه الآية : " وصفها بالرجوع ، والدخول ، والرضى " ، وصفها ؛ بالرجوع ؛ { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي } ، فهي ترجع إلى ربها . ووصفها بالدخول ؛ { فَادْخُلِي فِي عِبَادِي } . ووصفها بالرضى { ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً } . إذا هي ترضى وتخرج وتدخل ، وأيضا ممّا يؤخذ من هذه الآية : أنها تسمع ، ولهذا خُوطبت وتستجيب .

٦ - ثمّ ذكر دليلاً من السنّة ، يقول : " وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنّ الروح إذا قبض ؛ تبعه البصر) ، فيه ؛ وصفه بالقبض ؛ بمعنى قبض الروح . " وأنّ البصر يراه " ؛ يرى الروح .

ربّما من قال إنّ الروح جسم ، أخذه بمفهوم هذا الحديث ! لكنّ الحديث ليس بصريح في هذه المسألة !

٧ - " وقال صلى الله عليه وسلم - في حديث بلال - : (قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ ؛ حين شاء ، " ورَدَّهَا عَلَيْكُمْ " ؛ حين شاء .

٨ - وقال صلى الله عليه وسلم : (نسمة المؤمن طائرٌ يعلّق في شجرٍ الحنّة) " ؛ إذن وصفها - بهذه الصفات الثابتة في السنّة - ؛ أنها تُقبض ، أنها تكون نسمة . نحن نثبت لها هذه الصفات الثابتة في الكتاب والسنّة ، ونقف عند هذا الحد ؛ لأنّ

الروح أمرٌ غيبي ، ليس ممّا يُشاهد ويحس - كما ذكر المؤلف - ومُخالفٌ تماماً لهذه الأجساد والأجسام المُشاهدة المحسوسة . إذا كانت أمراً غيبياً ؛ فيتوقف في ذلك على ما ورد به النصّ فقط ، فنثبت ما ثبت به النصّ ، ونتوقف في ما لم يرد به النصّ .

٩ - يقول المؤلف : " وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة ؛ من خطاب ملك الموت لها ، وأنها تخرج ، وتسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء " . هذه من الصفات الثابتة للروح أنها ؛ تسيل كما تسيل قطرة الماء من فيّ السقاء . " وأنها

تصعد " يعني تصعد إلى السماء ، " ويوجد منها - من المؤمن - كأطيب الريح " ؛ يعني تكون لها رائحة . " ومن الكافر ؛ كأنّ ريح ، إلى غير ذلك من الصفات ، وعلى ذلك - يقول - أجمع السلف ، ودلّ العقل " ؛ يعني دلّ العقل على ثبوت هذي

الصفات للروح . " وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة " ؛ أي من خالف هذي الأدلّة ، ومن خالف هذه الصفات ، وذكر لها صفات أخرى - الذي ذكرتها في بداية الحلقة - يقول : " ليس معهم إلا الظنون الكاذبة " ليس لهم مستند لا من

الكتاب ، ولا من السنّة ، ولا حتى من العقل الصحيح السليم . يقول : " سوى الظنون الكاذبة ، والشبهة الفاسدة التي لا يُعارض بها ما دلّ عليه نصوص الوحي ، والأدلة العقلية " .

ثمّ أنتقل المؤلف ، وذكر الاختلاف في مسمّى النفس والروح - وهذا تقدم الكلام عليه في الحلقة السابقة - وأيضا يقول : " وقع في كلام كثير من النّاس أن لابن آدم ثلاث أنفوس " - وهذا أيضاً تقدم الكلام عليها في الحلقة السابقة - . هل الإنسان له

ثلاث أنفوس ، أم نفس واحدة تتنوع بحسب حالها ، وبحسب صفاتها ؛ لَوّامة ، ومطمئنة ، وأمّارة بالسوء ، وذكرنا القول الحق الذي تشهد له الأدلة في ذلك .

◀ مسألة : هل الروح تموت ، أم هي باقية لا تفنى ؟

الروح هذه ، هل هي تفنى كلياً ، أم أنها باقية ودائمة ؟ هل يلحقها الموت ، أم يقال أنها لا تبقى ؟ يقول : " وأختلف النّاس ؛ هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة : "

القول الأول : أنها " تموت " . ما دليلكم ؟ قالوا : " لأنها نفس ، والله عزّ وجلّ أخبر أنّ : { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ } ، الدليل

قول الله عز وجل : {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} . قالوا : فهي تفتى ضمن ما يفنى من المخلوقات ! أيضا قوله سبحانه وتعالى : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} . " فاهلاك يتناولها كما يتناول سائر المخلوقات ، ولم يُستثنى إلا الله عز وجل - لم يستثنى إلا نفسه - . أيضا ممّا استدلوا به : " وإذا كانت الملائكة تموت ، فالنفس البشرية أولى بالموت " . إذن هؤلاء لهم أربع أدلة استدلوا بها ؛ أنّ الروح تموت كما تموت سائر الأحياء

القول الثاني : " أنّ الأرواح لا تموت ، وأنّها خلقت للبقاء " ، (لم تخلق للفناء) ، " وإنّما تموت الأبدان " ، (التي هي محلّ الأرواح ، ومستودع الأرواح ؛ هي التي تموت) ، أمّا الأرواح ؛ فإنّ الله خلقها الله للبقاء ، فلا يلحقها الفناء . يقول (أدلة هؤلاء) : " قالوا : وقد دلّ على ذلك ؛ الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة ، إلى أن يُرجعها الله في أجسادها " . قالوا : الدليل على أنّ هذه الأرواح لا تموت ؛ الأدلة الكثيرة التي تدلّ على أنّ هذه الأرواح إذا فارقت أجسادها ؛ فهي إمّا معدّبة ، أو مُنعمّة) . ستأتي الأدلة على ذلك في الكلام على عذاب القبر ونيعمه .^(١)

الخلاصة : إذا عندنا قولان متعارضان :

القول الأول : أنّها تموت ، واستدلوا بالأدلة السابقة .

القول الثاني : أنّها لا تموت ، واستدلوا بالأدلة الدالة على أنّ الأرواح إذا فارقت الأجساد ؛ أنّها إمّا أن تكون معدّبة ، أو منعمّة .

الصواب في المسألة ؛ (القول الراجح) : يقول : " والصواب أن يقال " ؛ (يعني ؛ لا يُخطأ القول الأوّل ، ولا يُخطأ القول الثاني !) ، ويُمكن الجمع بين القولين " ، يقول : " والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها ، وخروجها منها " . إذاً الصواب : أنّ موت الروح ؛ أن تفارق الجسد ؛ (هذا هو الموت) ، أمّا أن تفتى كليّة ، وتُعدم كليّة ؛ فلا ! لنا وقفه مع ترجيح هذا القول .

الحلقة (١٠)

قلنا : أنّ الصواب : أنّه يمكن الجمع بين القولين ، وإعمال جميع الأدلة . وتوقفنا على : أنّ موت النفوس هو ؛ مفارقتها للجسد ، (هذا هو الموت) ، فإذا خرجت ؛ قيل ماتت ! فهي بهذا الشكل ذائقة الموت ، أمّا إن أُريد بها أنّها تفتى ، وتُعدم بالكلية ؛ فهي لا تموت بهذا الاعتبار ، ولا تفتى ، ولا تُعدم ، بل هي باقية ، خلقها الله عز وجل ؛ إمّا في نعيم ، أو عذاب - كما سيأتي في مسألة عذاب القبر ونيعمه - . قد يُشكل على هذا بعض الأمور ؛ يقول المؤلف : " وقد أخبر سبحانه أنّ أهل الجنة : { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى } " ، ما هي هذه الموتة ؟ نقول - كما ذكر المؤلف - : " وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد " ، إذا فارقت الروح الجسد ، فقد ماتت ، ولهذا قال الله عز وجل عن أهل الجنة : أنّهم (لا يذوقون فيها الموت ، إلا الموتة الأولى) .

◀ مسألة : ما الجواب عن قول أهل التّار : { رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ } . وقوله سبحانه : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؟ ؛ يعني ذكر موتتين في الآيتين .

يقول المؤلف : " فالمراد : أنّهم كانوا أمواتاً وهم نطفٌ في أصلاب آبائهم ، وفي أرحام أمهاتهم " . معلوم أنّ أصل الإنسان نُطفه في صلب أبيه ، وفي رحم أمّه عندما تعلّق هذه النطفة بالبويضة ، فهم في هذه الحالة هم أموات ، لهم وجود كنطفة ، لكنّها لا

(١) حذفت الجملة للتكرار

زالت في عالم الأموات ، وهذه هي الموتة الأولى . " ثُمَّ أَمَاتَهُمْ بَعْدَ أَنْ نُفِخَتْ فِيهِمُ الْأَرْوَاحُ ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ يَوْمَ النُّشُورِ " . يقول المؤلف : " وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة ، وإلا كانت ثلاث موتات ! " ، لو كان المقصود أَنَّ الله يُمِيت هذه الأرواح قبل يوم النشور ؛ لكان الموت الذي يلحق هذه الأرواح ؛ ثلاث موتات ، وليست بموتتين ! والله عَزَّ وَجَلَّ ذكر فقط أَنَّها موتتين ، قال تعالى : { رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ } ، وقال تعالى : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } . إذا الموتة الأولى لَمَّا كانوا نُطْف في أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ (نفخ الله فيهم الروح) ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ (لَمَّا فارقت هذه الأرواح الأجساد في الحياة الدنيا) ، ثم يُحْيِيهِمُ الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة (عندما تعود هذه الأرواح إلى أجسادهم) .

◀ مسألة : هل يلزم من صعق الأرواح (عند النفخ ، أو قرب يوم القيامة) ، أن تموت (هذه الأرواح) ؟

يقول المؤلف : " وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها " . معلوم - كما سيأتي - أَنَّ القيامة إذا قربت ، وأذن الله عَزَّ وَجَلَّ بزوال هذه الدنيا ؛ أمر إسرافيل ؛ فنفخ في الصور ؛ فصعق من في السماوات ، ومن في الأرض ، فهل يلزم من هذا الصعق أَنَّ الأرواح الموجودة - المعذبة والمنعمة - أَنَّها تموت ؟ يقول المؤلف : " لا يلزم من هذا الصعق أَنَّها تموت ! فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ إِذَا جَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ بِنُورِهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَوْتٍ ! " ؛ يعني : يريد أن يُثبت أَنَّ الأرواح لا تموت بالصعقة الأولى - كما أَنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ - إِذَا أذن الله عَزَّ وَجَلَّ بمجيئه لفصل القضاء ؛ فَالنَّاسُ يُصْعَقُونَ ، ولا يلزم من هذا الصعق الموت . يقول : " وسيأتي ذكر ذلك " ؛ في مسألة النفخ في الصور " . يقول : " وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتاً " . تعلمون أَنَّ موسى لَمَّا كلمه ربه في الطور ؛ سأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينظر إليه قال : { رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ } . قال { لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } . فصعق موسى هنا ؛ ليس موت ! وأيضاً صعق الأرواح يوم القيامة ؛ ليس بموت ! فهذا دليل على أن صعق الأرواح يوم القيامة ليس بموت . يقول : " والذي يدلُّ عليه ؛ أَنَّ نفخة الصعق ؛ موتٌ كُلُّ من لم يذق الموت قبلها من الخلائق " ؛ بمعنى أَنَّ الصعق موت لكل من لم يمت من هذه الكائنات الحيَّة قبل النَّفْخ في الصور ، " وأَمَّا من ذاق الموت " ؛ ومنها الأرواح لَمَّا فارقت أجسادها - كما تقدم أَنَّ الموت هو ؛ مفارقة الروح للجسد - يقول : " وأَمَّا من ذاق الموت " ؛ (ومنها الأرواح) ، " أو لم يُكتب عليه الموت من الحور والولدان " ؛ الحور العين ، والولدان الذين في الجنَّة ، " وغيرهم ، فلا تدلُّ الآية على أَنَّهُ يموت موتة ثانية ، والله أعلم " . هذا استنباط من المؤلف يشهد له مجموع الأدلة .

انتهى الكلام على الروح ، والمسائل المتعلقة بها ، وأطال المؤلف الكلام فيها قليلاً ، وذلك لكثرة من تكلم فيها قديماً وحديثاً ، ولكثرة المسائل المتعلقة بها ، ولهذا أَلَف فيها ابن القيم مؤلفاً مستقلاً اسماء " كتاب الروح " .

أنتقل بعد ذلك إلى مسألة لها تعلق بالروح ، ولها تعلق بيوم القيامة ، واليوم الآخر .

◀ مسألة : حياة البرزخ ، (عذاب القبر ونعيمه) :

يقول الإمام الطحاوي : " وبُعَذَابِ الْقَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ ، وَسُؤَالِ مَنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِهِ عَنْ ربه ، وَدِينِهِ ، وَنَبِيِّهِ ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَنْ الصَّحَابَةِ رَضَوَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : (والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران) " .

◀ الإيمان بعذاب القبر من لوازم الإيمان باليوم الآخر :

معلوم - كما تقدم - أَنَّ الإيمان باليوم الآخر ؛ ركن من أركان الإيمان ، لا يصح إيمان العبد ، ولا تصح عقيدته ، ولا يصح

إسلامه ، إلا بعد أن يؤمن باليوم الآخر ، ومن لوازم الإيمان باليوم الآخر ؛ أن يؤمن بعذاب القبر ، ونعيمه ؛ وذلك أنَّ عذاب القبر ؛ الذي هو يُسمى حياة البرزخ ؛ (الحياة التي بين الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة ؛ هذه تُسمى حياة البرزخ ، عالم البرزخ) ، هذه الحياة هي أوَّل منازل الآخرة ، ولهذا جاء في الأثر : (من مات ؛ فقد قامت قيامته) ، فأوَّل مراحل الدار الآخرة ؛ لَمَّا تُفارق هذه الروح الجسد ، وتنتقل إلى عالم الأرواح ؛ إلى حياة البرزخ ، إلى عالمٍ آخر مخالف تماماً لهذا العالم الذي نعيشه .

الأدلة على عذاب القبر ونيعمه :

عذاب القبر ونيعمه دَلٌّ عليه :

١ - الكتاب .

٢ - وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من صحيح السَّنة .

٣ - ودَلٌّ عليه العقل .

٤ - ودَلٌّ عليه الحِسُّ .

٥ - بالإضافة إلى الإجماع .

المؤلف ذكر جملة من أدلة القرآن والسَّنة سنذكرها ، ثمَّ ننقل ونذكر دَلالة العقل ، ثمَّ دَلالة الحسِّ .

أولاً : أدلة الكتاب كثيرة ، منها :

الدليل الأول : الذي ذكره المؤلف : " قوله تعالى : { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } " . لاحظ ؛ فرَّق بين العذاب الذي قبل قيام الساعة ، والعذاب الذي بعد قيام الساعة : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا } . متى هذا ؟ في حياة البرزخ ، في قبورهم ؛ يعرضون على النَّار صباحاً ومساءً ؛ بمعنى أنَّهم معدَّبون ، فهذا دليل صريح في إثبات عذاب القبر ، فلا يقول قائل - ممَّن يُنكر عذاب القبر ، كما حصل من بعض أهل الضلال - يقول : المقصود : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا } . النَّار يوم القيامة ؟ لا ، هو قال : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } . هذا بعد قيام الساعة ، لكن قبل قيام الساعة ؛ يُعرضون على النَّار صباحاً ومساءً .

الدليل الثاني : قوله سبحانه : { فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } ، الشاهد : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، (عذاباً دون ذلك) ؛ دون هذا العذاب . { فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } . هذا عذاب يوم القيامة ، هل لهم شيء قبل عذاب القيامة ؟ نعم ! متى ؟ في قبورهم : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } . دون هذا العذاب الأكبر . يقول : " وهذا يحتمل أن يُراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا ، وأن يُراد به عذابهم في البرزخ (وهو أظهر) ؛ لأنَّ كثيراً منهم مات ، ولم يُعذب في الدنيا ، أو المراد اعمُّ من ذلك " . يقول : الآية تحتل أنَّ المراد بـ " أنَّ لهم عذاباً دون ذلك " :

١ - ما أصابهم في الدنيا من القتل والأسر .

٢ - وتحتل الآية : أنَّ المراد به عذاب القبر .

لكن الذي يظهر ؛ (كأنَّه رجح عذاب القبر) ، وهذا هو الراجح ؛ لأنَّ من الكفار من مات ولم يؤسر ، ولم يُقتل . مات ، وهو في عيشة هنيئة ، في عيشة راضية .

من الأدلة - ولم يذكرها المؤلف ؛ لأنَّه اختصر - قوله سبحانه : { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } . استدل

ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية على إثبات عذاب القبر . وجه الدلالة : { وَلَنَذِيقَنَّ هُمِ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } . قد يقول قائل : (لعلهم يرجعون) ؛ بمعنى : أنَّ هذا العذاب في الدنيا ؛ لأنَّه بعد الموت ما يمكن أن يرجع إلَّا يوم القيامة ، لكن يقول ابن القيم : " ما كان هذا ليغيب عن حبر الأمة ، وترجمان القرآن ؛ (عن ابن عباس) ؛ لَمَّا استدلَّ بهذه الآية على إثبات عذاب القبر . الله عزَّ وجل ، قال : { وَلَنَذِيقَنَّ هُمِ الْعَذَابِ الْأَذْنَى } (من) هنا تبعيض ، يعني سنذيقهم جزء من العذاب الأدنى ؛ وهو القتل ، والأسر ، والابتلاء في أموالهم وأولادهم ؛ { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، جزء من هذا العذاب الأدنى سينالهم حال الحياة . أين الجزء الثاني؟ الجزء الثاني من العذاب الأدنى ؛ في قبورهم ، فالرجوع مرتبط بالعذاب الذي قبل الموت ؛ من الابتلاء من الله عزَّ وجل لهؤلاء ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَنَبَّهُونَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، الجزء الثاني - لكن غير متعلق به الرجعة - وهو بعد الموت ، وقبل يوم القيامة .

ثانيا : ذكر المؤلف من الأدلة الدالة على إثبات عذاب القبر في السنة :

" حديث البراء بن عازب رضي الله عنه " ، وهو أطول حديث ذكر في حياة البرزخ ، وحال الروح من حضور الموت ، واحتضارها ، إلى أن ينتهي بها المطاف في قبرها ؛ إمَّا في نعيم ، أو عذاب ، والحديث ثابت في السنن ، وتلقته الأئمة - كما ذكر ابن جرير وغيره - بالقبول ، وهو أصل في هذه المسألة ، أوله : (" كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَعَدَ ، وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ؛ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ ! وَهُوَ يُلَحِّدُ لَهُ - أَي جَنَازَةَ هَذَا الشَّخْصِ الَّذِي يُلْحَدُ ، وَهُوَ مِنَ الْأَنْصَارِ - فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " ثلاث مرات ، ثم قال : " إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ؛ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ! أَخْرِجِي إِلَى مَغْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ " - وهذا دليل على أَنَّ الروح تسمع ، لا حظ ؛ يخاطبها ملك الموت ، فتسمع - " قال : فتخرج ، تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء - " وهذا دليل على صفة من صفات الروح ؛ أَنَّهَا تسيل ؛ يعني تخرج سهلة يسيرة - " فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن " - أي يأخذها الملائكة ، ويجعلونها في كفن من أكفان الجنة - " وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض " ؛ بمعنى يخرج من هذه الروح رائحة طيبة ، وهذا دليل على أَنَّ لها رائحة ! أيضا ثبت للروح رائحة - " قال : فيصعدون بها ، فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ " - وهذا أيضا دليل على صفة من صفات الروح ؛ أَنَّهَا تصعد ، ثم ذكر ... إلى أن تُعاد روحه إليه - " فقال : فتُعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ... فينادي منادي من السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من ريحها وطيبها ، ويُفسح له في قبره مدُّ بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : ابشر بالذي يسرك ! هذا يومك الذي كنت تُوعَد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ! فيقول : ربي أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال : وإنَّ العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه " ... - ثم ذكر في آخر الحديث - " فتُعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول هاهاه ، لا أدري ! ... إلى أن قال : " فينادي منادي من السماء : أن كذب فافرشوه من النَّار ، وافتحوا له باب من النَّار ! فيأتيه من حرِّها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف

أضلاعه " هذا دليل على إثبات عذاب القبر... في آخر حديث : " فيأتيه رجلٌ قبيح الوجه ، قبيح الثياب "الحديث) ، الشاهد : أنَّ هذا الحديث الطويل دليل صحيح صريح في إثبات عذاب القبر ونعيمه ، وهو من أوسع وأصح الأدلة التي جاءت في تفاصيل حياة البرزخ ، ولهذا صار عمدة عند أهل السنة في هذا الباب . يقول المؤلف : " وذهب إلى موجب هذا الحديث ؛ أي إثبات ما تضمنه هذا الحديث من هذا التفصيل دقيق ، جميع أهل السنة والحديث ، وله شواهد في الصحيح ، فذكر البخاري عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ؛ يعني له شواهد في الصحيحين ، علماً أنَّه ثابت ، لكن له شاهد في الصحيحين ، وهو حديث أنس رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ العبد إذا وُضع في قبره ، وتولَّى عنه أصحابه ؛ إنَّه ليسمَعُ قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل - محمد صلى الله عليه وسلم - فأما المؤمن فيقول : أشهد أنَّه عبد الله ورسوله ، فيقولان له : أنظر إلى مقعدك من التَّار ! أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً) ، قال قتادة : ورؤي لنا : (أنَّه يُفسح له في قبره) ... وذكر الحديث ، هذا الحديث ثابت في أصله ، وله شاهد في الصحيحين يدل على ما تضمنه هذا الحديث من تفاصيل وإثبات لعذاب القبر ونعيمه .

الحلقة (١١)

يقول المؤلف : " وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين ، فقال : إنَّهما ليُعَذَّبان ، وما يُعَذَّبان في كبير ! أمَّا أحدهما ؛ فكان لا يستتر من البول ، وأمَّا الآخر فكان يمشي بالتميمة ، فدعا مجريده رطبة ، فشَقَّها نصفين ، وقال : لعله يُخَفَّفُ عنهما ، ما لم ييبسا) ، " هذا الحديث دليل صريح لا يقبل التأويل ؛ أنَّ الإنسان قد يُعَذَّب في قبره ، فالنَّبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بهذين القبرين وهما يُعَذَّبان ؛ لأنَّ الله تعالى أطلعه على ذلك ، وليس هذا لسائر البشر ؛ كما سيأتي قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : (لولا أن لا تدافنوا ، لأسمعتكم ما أسمع) ، هذا الحديث أيضاً استدل به أهل السنة على مسألة أخرى ، وهي :

«مسألة : هل عذاب القبر مستمر أم مُنقطع ؟»

يعني من عُدِّب في قبره هل عذابه مستمر إلى أن تقوم الساعة ، أم أنَّه مُنقطع ؟

الجواب : أنَّه بحسب حال الإنسان :

١ - قد يُعَذَّب الإنسان بقدر ، ثمَّ يُنَّعَم ، إذا كان جُرمه لا يستحق العذاب إلى قيام الساعة . الحديث - الذي بين أيدينا - دليل على أنَّ العذاب يمكن أن يُخَفَّف ، فالنَّبي صلى الله عليه وسلم دعا مجريديتين رطبتين ، وشَقَّهما نصفين ، وجعل على كل قبرٍ جريدة ، وقال : (لعلَّ الله أن يُخَفَّفَ عنهما ما لم ييبسا) .

٢ - وقد يكون عذاب القبر مستمر إلى قيام الساعة ! ويدلُّ على ذلك حديث الإسراء والمعراج ، لمَّا رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم الزناة ، والذين يشربون الخمر ، والذين يقعون في أعراض النَّاس ، فقد يكون الجُرم يستحق العذاب إلى قيام الساعة .

مسألة : (لها ارتباط بالاعتقاد) ، وهي : يلاحظ من بعض النَّاس وضع باقات من الورود والزهور على بعض الأضرحة ؛ بحجة أنَّه لعلَّ هذا يُخَفَّفُ عن صاحب القبر ما هو فيه ! أو قد يوجد عند بعض النَّاس أنَّه تُرَشُّ القبور ببعض الأنواع من الماء ، مثل ؛ ماء الورد ، أو غير ماء الورد ، خاصة في بعض المناسبات ، نقول : هذا ليس له أصلٌ ، لا في الكتاب ولا في السنة . قد يستدل من يضع باقات الورود ، أو غيرها من الأشجار بهذا الحديث ! نقول لا دلالة لهذا الحديث إلى ما ذهبت إليه ؛ لأمرين

اثنين :

الأمر الأول : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَنَّ صَاحِبِي هَذَيْنِ الْقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ ، فَأَنْتَ مَنْ أَطْلَعَكَ عَلَى أَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ (الَّذِي وَضَعْتَ عَلَيْهِ إِكْلِيلَ مِنَ الزَّهْوَرِ) أَنَّهُ يُعَذَّبُ ؟

الأمر الثاني : أَنَّ هَذَا خَاصَّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِهَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَهُوَ يُخَفَّفُ بِسَبَبِ بَرَكَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الأمر الثالث : أَنَّ هَذَا لَمْ يُعْرَفْ لَا عَنْ الصَّحَابَةِ ، وَلَا عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، بَلْ لَمْ يُعْرَفْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَيْرِ هَذَيْنِ الْقَبْرَيْنِ ، فَقَدْ مَرَّ بِقُبُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَبَأَمْوَاتٍ كَثُرَ ، وَمَا صَنَعَ هَذَا مَعَهَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِهِذَيْنِ الْقَبْرَيْنِ ، وَلِهَذَا مِنْ فَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ تَعْبُدًا ، نَقُولُ أَنَّ فَعْلَكَ هَذَا خِلَافَ السُّنَّةِ ، وَقَدْ يَصْدُقُ عَلَيْكَ أَنَّكَ صَاحِبُ بَدْعَةٍ ! فَاحْذَرِ هَذَا الْعَمَلَ .

إِنَّمَا السُّنَّةُ : أَنْ تَدْعُو لَصَاحِبِ الْقَبْرِ ؛ أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ التَّثْبِيتَ ، أَنْ تَسْلَمَ عَلَيْهِ - كُلُّ هَذَا ثَابِتٌ - لَكِنْ أَنْ تَضَعُ نَوْعَ مِنَ الزَّهْوَرِ وَالْوَرُودِ ، أَوْ نَوْعَ مِنَ الْأَشْجَارِ ، فَإِنْ اعْتَقَدْتَ أَنَّهُ يُخَفَّفُ عَلَيْهِ ، فَأَنْتَ عِنْدَكَ إِسَاءَةٌ ظَنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى ؛ أَنَّهُ يُعَذَّبُ ، وَالْأَوَّلَى أَنْ تُحَسِّنَ الظَّنَّ بِمَوْتَانَا إِذَا كَانُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَرْجُو لَهُمُ الْخَيْرَ ، وَنَأْمُلُ لَهُمُ الْعَفْوَ وَالرَّحْمَةَ وَالْكَرَامَةَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

ثم ذكر المؤلف : " وفي صحيح أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ ، أَوْ الْإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا ؛ الْمُنْكَرُ ، وَلِلْآخَرِ ؛ النَكِيرُ) . " هذا حديث يدل على :

١ - إثبات عذاب القبر .

٢ - وفيه دلالة أخرى - إلى ما ذكره الإمام الطحاوي - " أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَأْتِيَانِ الْعَبْدَ فِي الْقَبْرِ ؛ أَنَّهُمَا يُسَمَّيَانِ : الْمُنْكَرُ وَالنَكِيرُ ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى هَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، (فَقَدْ ثَبَتَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ ؛ كَمَا عِنْدَ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرِهِ) . ثُمَّ قَالَ الْمَوْلَفُ : " وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا " ؛ بِمَعْنَى أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ ، وَنَعِيمَ الْقَبْرِ مِمَّا تَوَاتَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِضَافَةً إِلَى دَلَالَةِ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ ، فَهِيَ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَجِبُ إِثْبَاتُ عَذَابِ الْقَبْرِ يَقِينًا اسْتِنَادًا إِلَى هَذِهِ الْأَدَلَّةِ ، وَسُؤَالُ الْمَلَائِكَةِ ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ ، وَلَا نَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ ! إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وَقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ .

مسألة : الْمَشْكَلَةُ أَنَّ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عَذَابَ الْقَبْرِ (وَمِنْهُمْ الْمُعْتَزِلَةُ) ، اسْتَدْنُوا فِي ذَلِكَ إِلَى عَقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ ! كَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالُوا :

١ - لَا يُمْكِنُ لِلْعَقْلِ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّ هَذِهِ الْحَفْرَةَ ؛ أَنَّهَا تَتَّسِعُ وَتَضِيقُ !

٢ - ثُمَّ يَقُولُونَ : نَحْنُ نَشَاهِدُ هَذَا الْقَبْرَ ، لَا نَرَى فِيهِ أَثَرَ لِلْعَذَابِ ! نَكْشِفُ الْقَبْرَ وَلَا نَرَى فِيهِ أَثَرَ لِلْعَذَابِ ، أَوْ النَّعِيمِ ؛ لَمْ يَتَحَرَّكْ ! حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ نَضَعُ الزُّبُقَ عَلَى صَاحِبِ الْقَبْرِ ! وَيُمْكِنُ أَنْ نَكْشِفَهُ بَعْدَ مُدَّةٍ نَرَى أَنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ هَذَا الزُّبُقُ ! أَيْنَ الْإِجْلَاسُ ؟ أَيْنَ السُّؤَالُ ؟ وَلَا نَسْمَعُ شَيْءًا !

الشاهد : أَنَّهُمْ قَاسُوا الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ! وَأَنْزَلُوا التَّصَوُّصَ فِي مِيزَانِ عَقُولِهِمْ ! الْمَوْلَفُ يَقُولُ : " نَحْنُ نُثَبِّتُ عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ ، لَكِنْ كَيْفِيَّةُ هَذَا الْعَذَابِ ، كَيْفِيَّةُ هَذَا النَّعِيمِ ، هَذَا مِمَّا لَا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ " . اللَّهُ أَعْلَمُ ! نَحْنُ نَسْتَسْلِمُ لِنُصُوصِ الْوَحِيِّينَ ، وَنُثَبِّتُ مَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَالْكَيْفِيَّةُ لَمْ يُفْصَحْ عَنْهَا ؛ فَتُمْسِكُ ! فَلَا نَقِيسُ هَذِهِ الْأُمُورَ بِعَقُولِنَا ، فَضِلْ . يَقُولُ : " إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وَقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ ؛ بِكَوْنِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ ! " ؛ بِمَعْنَى لَا يُمْكِنُ أَنْ نَقِيسَ ؛ كَيْفَ

يُعذب ! وهو ما تحرك ؟ كيف يتسع القبر ؟ كيف يضيق ؟ الله أعلم .

ثالثاً : الدليل العقلي :

" والشرع لا يأتي بما يُحيله المعقول ، ولكنّه قد يأتي بما تُحار فيه العقول " . وهذا هو الدليل العقلي على إثبات عذاب القبر : نحن نقول (الدليل العقلي) : أنّ هذا غير مستحيل عقلاً ، فإذا كان ليس بمستحيل (أي يمكن عقلاً ؛ بمعنى يجوز عقلاً) ، فقد ثبت بما جاز عقلاً بما ثبت بالكتاب والسنة . يقول الشرع (الكتاب والسنة) لا يأتي بما يُحيله المعقول ، يستحيل ؛ لأنّ الله لا يُنزل وحياً يستحيل على ما خلق (الذي هو العقل) ، لكن قد يأتي الشرع بما تُحار فيه العقول ! العقول لها حدّ ولها طاقة ! الله عز وجل ما أعطى هذا العقل الحرّيّة في إدراك كل شيء ! وإذا كان العقل قد لا يدرك بعض الأمور المُشاهدة ، المحسوسة له ، فكيف يدرك الأمور الغيبيّة الغائبة عنه ؟ أليس العقل وقف حائراً تجاه الروح (أقرب الأشياء إليه) ؟ الروح هذه الموجودة في جسد الإنسان ! وقف العقل حائراً ليحدد ماهيتها ! فإذا حار العقل في ذلك ، فمن باب أولى أن يُحار في أمور بعيدة عنه ، ثمّ العقول ليست على درجة واحدة ! فقد يُحار هذا الإنسان بعقله في هذه المسألة ، لكن يفتح الله عزّ وجل على هذا الإمام ، أو هذا العالم ، أو هذه الجماعة ما لا تُحار فيه عقولهم ! يقول : " لكنّه قد يأتي بما تُحار فيه العقول ؛ فإنّ عود الروح إلى الجسد ليس على وجه معهود في الدنيا ! بل تُعاد الروح إليه إعادة المألوفة في الدنيا " . قضيّة إعادة الروح إلى الجسد بعد الموت هذه لها تعلّق آخر ، ليست التعلّق الموجودة في الحياة الدنيا ، معروف أنّ تعلّق الروح بالجسد في الحياة الدنيا ؛ كما نُشاهد الإنسان يذهب ، ويأتي ، ويتكلم وتسمع منه ، ويفعل بإرادته ومشيتته ، بخلاف تعلّق الروح بالجسد في حياة البرزخ . ولهذا أنتقل المؤلف إلى مسألة : أنواع تعلّق الروح بالبدن ، لكن قبل أن ننقل إليها ، فلا بأس أن نذكر :

رابعاً : الدليل الحسيّ على إثبات عذاب القبر :

وقد ذكره ابن القيم وغيره - أنّ الله عزّ وجل قرّب إلينا إثبات عذاب القبر ، ونعيم القبر بدليل حسيّ مُشاهد ! ؛ لأنّ من أنكر عذاب القبر ، قال : أليس يُدفن في القبر الواحد أكثر من شخص أحياناً ! وأنتم تقولون : أنّ أحدهم مُعذب ، والآخر مُنعم ، قد يكون ! قد يكون أحدهم مؤمن ، والآخر كافر ! أو أحدهم مؤمن ، والآخر منافق ، أو فاجر ! كيف ما يؤثر هذا على هذا ؟ ابن القيم يقول : هناك مثلاً حسيّ : النائم الذي عندك - مع العلم أنّ حياة الآخرة تختلف تماماً جملةً وتفصيلاً عن الحياة الدنيا ، وعن ما نشاهده في الحياة الدنيا ، لكن هذا مثال تقريبي ، يقول : النائم أمامك ! أحياناً يكون في عالم آخر تماماً غير العالم الذي أنت وإياه فيه ! قد يكون في حياة منعمة ، وفي قصور وأنهار وأشجار ، وقد يكون في حياة بئيسة ؛ مُعذب ، يتعرض لأصناف الأذى ، وهو أمامك لم يتحرك ! بل ذكر ابن القيم : أنّ النائمين أحدهما بجانب الآخر ، بل قد يكونا في لحاف واحد ، أحدهما يعيش في أحلام سعيدة ومسرور ، والآخر على الضدّ من ذلك ! يقول : أحياناً يستيقظ الإنسان ، ويعلوه شيء من آثار ما شاهده في النوم ! وهذا مثال بسيط جداً " حسي " مشاهد ، وحياة الآخرة تختلف تماماً .

مسألة : تعلّق الروح بالبدن :

ننتقل إلى كلام المؤلف في تعلّق الروح بالبدن ؛ ذكر المؤلف التعلّق ، أو الأنواع هذه ليردّ به على هؤلاء المنكرين لعذاب القبر لمّا قالوا : الآن أليست الأرواح تُرد إلى أجسادها ؟ ما تحرك هذا الجسد ؟ ما فعل ؟ ما ترك ؟ ولهذا أنكروا عذاب القبر ! ولهذا قال : " رجوع الروح إلى الجسد في حياة البرزخ يختلف عن رجوعها ، أو تعلّقها بالجسد في الحياة الدنيا ، ويختلف عن تعلّقها بالجسد في الحياة الآخرة ! " ، ولهذا قال : " فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلّق ؛ مُتغيرة الأحكام ! " .

تعلق الروح بالبدن ؛ خمسة أنواع ، وهي :

النوع الأول : تعلقها به في بطن الأم جنيناً . معلوم أنّ الطفل إذا كان جنيناً في بطن أمّه ، إذا مرّ عليه أربعين يوم ، ثمّ أربعين يوم ، ثمّ أربعين يوم - كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه - أرسل إليه الملك : (إنّ أحدكم ليُجمع في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة ، ثمّ يكون علقه مثل ذلك ، ثمّ يكون مضغةً مثل ذلك ، ثمّ يُرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح) . فإذا نُفِخ فيه الروح ؛ دخلت فيه الحياة ، صار يتحرك .

◀ مسألة : هل تعلق الروح بالجسد وهو جنين في بطن أمّه ، مثل تعلقها في الحياة الدنيا ؟

الجواب : لا ! يختلف ، ولهذا تعلق الروح بالجسد لها أحكام ، ولها صفات ، ولها حال تختلف تماماً عن الحال إذا خرج حياً إلى الدنيا .

النوع الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض ، والروح متعلقة بالجسد ، هذا النوع ، ولها أحكامها ، ولها صفاتها .
النوع الثالث : تعلقها به في حال النوم ؛ ولهذا هي تصعد في حال النوم وترجع ، فتعلقها يختلف عن تعلقها به في حال الدنيا (في حال اليقظة) ، ويختلف عن تعلقها به لما كان جنيناً في بطن أمّه ، والثالث ؛ تعلقه به في حال النوم ؛ فلها به تعلق من وجه ، ومُفارقة من وجهٍ آخر ! ولهذا قال تعالى : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} . الزمر ٤٢ .

النوع الرابع : تعلقها به في البرزخ - وهذا هو الشاهد - تعلق الروح بالجسد في البرزخ ، معروف من حديث البراء : (أنّه إذا صُعد بها ، أُعيدت إلى جسده) ، هذا التعلق ؛ هل هو مثل تعلقها به في الدنيا ؟ الجواب : لا ، ولهذا صارت لها حالة ، ولها صفات تختلف تماماً عما كانت عليه في حال الدنيا . يقول المؤلف : " فإنّها وإن فارقت وتجرّدت عنه ، فإنّها لم تفارقه فراقاً كلياً ؛ بحيث لا يبقى لها إليه التفاتٌ ألبته " ؛ يعني الروح أثناء الموت فارقت الجسد ، هل انفصلت تماماً ؛ (أي ليس هناك أدنى علاقة بين الاثنين) ؟ لا ! هناك علاقة ، ولهذا ستعود . ما نوع هذا التعلق ؟ الله أعلم ، لكنّه يختلف ، تعود تعود كما ثبت في النّص . يقول : " فإنّه ثبت ورود ردها إليه وقت سلام المسلم " ؛ ثبت أنّه إذا جاء المسلم ؛ يُسلم على صاحب هذا القبر - كما ثبت عند أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - : (ما من أحد يسلم عليّ ، إلّا ردّ الله عليّ رُوحاً ؛ حتى أُرَدّ عليه السلام) ، هنا تعود الروح إلى جسدها ، فيرد السلام . كيفيّة الإعادة ؟ كيفيّة ردّ السلام ؟ الله أعلم ! لم تأتِ النّصوص بتفصيل ذلك . يقول : " وورد : أنّه يُسمع خفق ناعلم ؛ حين يؤلّون عنه " ، كما ثبت - قريباً - لما ينصرف المشيعون لهذا المدفون ، وتعود الروح إلى الجسد ، يسمع قرع النعال (يسمع حركة النعال) ، وهم منصرفون إلى بيوتهم . يقول : " وهذا الردّ إعادة خاصّة ، لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة " ؛ لا يعني هذا أنّ البدن أصبح حياً ! إنّما هذا تعلق خاص ؛ حياة البدن تكون عندما تتعلّق به التعلّق التام ؛ يوم القيامة ، إذا نُفِخ في الصور ، وعادت الأرواح إلى أجسادها ، وقامت حيّة مرّة أخرى .

النوع الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد . وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ! ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه . أعظم تعلق الأرواح بالبدن ، وأكمل أنواع تعلق الأرواح بالبدن ؛ هو النوع الخامس ؛ عندما تقترن الروح بالبدن ، وتتعلّق به يوم القيامة ، وليس هناك أدنى مناسبة بين هذا التعلّق وبين التعلّقات السابقة ؛ لا في القبر ، ولا في الحياة الدنيا ، ولا في النوم ، ولا عندما كان جنيناً في بطن أمّه ، ولهذا إذا تعلّقت الروح بالجسد في هذه المرحلة ؛ أصبح في حالة لا تقبل النّوم ، ولا تقبل الموت ؛ كتب الله عزّ وجل له البقاء ، وعدم الفناء ، ولهذا قال المؤلف : " إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ، ولا

نوما ، ولا فسادا ؛ فالتَّوَم أخو الموت ! فتأمل هذا يُزيح عنك إشكالات كثيرة " . فالذين أنكروا عذاب القبر ! السبب أنَّه اضطرب عندهم هذا الموضوع .

الحلقة (١٢)

لا زال الكلام حول عذاب القبر ونعيمه ، ومسألة حياة الروح ، وعلاقة الروح بالجسد ؛ لأنَّ مسألة حياة البرزخ والروح ، مسألتان متداخلتان ! ولهذا قدَّم المؤلف الكلام على عذاب القبر ، بالكلام عن الروح ، ثمَّ تكلم عن عذاب القبر ونعيمه ...

◀ مسألة : السؤال في القبر ؛ هل هو للروح وحدها ، أم للروح والجسم ؟

تقدَّم في الأدلَّة السابقة أنَّ الإنسان إذا وُضِعَ في قبره ؛ أنَّه يأتيه ملكان ، فيسألانه عن ربه ، ودينه ، ونبيه ، وهذا ممَّا تواتر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . هذه الأسئلة المُلقاة من الملائكة ، هل هي على الروح وحدها ، أم على الروح والجسد معاً ؟ يقول المؤلف : " وليس السؤال في القبر للروح وحدها - كما قال ابن حزم - " ، فابن حزم ذهب إلى أنَّ السؤال فقط للروح ! ولكن المؤلف يقول : لا . القول الراجح ، والقول الصحيح : أنَّه ليس للروح وحدها . هناك قول ثاني - وهو أشدُّ بعداً - ولهذا قال : " وأفسد منه ؛ قول من قال : إنَّه للبدن بلا روح " ؛ أنَّ السؤال يكون للبدن دون الروح .

إذاً عندنا الآن قولان :

القول الأول : قول ابن حزم ؛ أنَّ السؤال للروح دون البدن .

القول الثاني : من قال : أنَّه للبدن دون الروح .

يقول : " والأحاديث الصحيحة تردُّ القولين " ؛ بمعنى ما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في سؤال الميت ، يُردُّ المذهبين ؛ بمعنى أنَّ السؤال يكون للروح مع الجسد .

مسألة : عذاب القبر ؛ هل هو للنفس والبدن جميعاً ، أم للبدن دون النفس ، أم للنفس دون البدن ؟

يقول : " وكذلك عذاب القبر " ، عذاب القبر هل هو للنفس والبدن جميعاً ، أم للبدن دون النفس ، أم للنفس دون البدن ؟ يقول المؤلف : " وكذلك عذاب القبر ؛ يكون للنفس والبدن جميعاً " ، فكما أنَّ السؤال يكون للروح مع البدن ، كذلك العذاب والنعيم يكون للبدن مع الروح ، فللبدن مُتعلِّق بالروح " . باتفاق أهل السُنَّة والجماعة ؛ تُنعم النفس ، وتُعذَّب مفردة عن البدن ، ومتصلة به " . يقول : " واعلم أنَّ عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكلُّ من مات ، وهو مُستحق للعذاب ؛ ناله نصيب منه " ؛ أي عذاب القبر ، هو عذاب البرزخ ، فكلُّ من مات وهو مستحق للعذاب ، فسيناله هذا العذاب ، مهما كانت حال جسده ، يقول : " ناله نصيبه منه ، قَبْرٌ أو لم يُقبر " ؛ أي ليس العذاب متعلق بهذه الحفرة ! لا ، سينال نصيبه من هذا العذاب ، وسيأخذ حَقَّه من هذا العذاب ؛ لأنَّ التَّصَوُّص أثبتت أنَّه سيعذَّب ، سواءً دُفِن أو لم يُدفن . يقول : " أكلته السباع ، أو احترق حتى صار رماداً ، ونُسِف في الهواء ، أو صُلِب ، أو غُرِق في البحر " ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور " ؛ يعني وصل هذا العذاب ، أو وصل هذا التَّعِيم لهذا الشخص الذي احترق ، أو هذا الشخص الذي غرق ، أو هذا الشخص الذي أكلته السباع ، أو هذا الشخص الذي تفتت تماماً ؛ كما هي الحال الآن - عافانا الله وإياكم - في بعض الحروب ، واستخدام بعض الأسلحة التي لا تُبقي أيُّ أثر للإنسان ، أو بعض الحوادث التي لا تُبقي أي أثر للإنسان ، فهل هذا الإنسان إذا كان - لا سمح الله - مستحقاً للعذاب ؛ أنَّه سيسلم من عذاب القبر ؛ لأنَّه لم يُدفن ؟ الجواب : لا ، سينال العذاب روحه وجسده ، بغض النَّظَر عن واقعه الآن ! دُفِن أو لم يُدفن ، فهذا أمرٌ غيبي ، والله عز وجل على كل شيءٍ قدير ، وكما ذكرنا سابقاً أنَّ حياة البرزخ ، والحياة الآخرة تختلف تماماً عن الحياة التي نعيشها ، فهي مُباينة تماماً لما نشاهده ،

ولما نحسُّه ، يقول : " وما ورد من إجلاسه ، واختلاف أضلاعه ، ونحو ذلك " ؛ أي ما ورد من الأحاديث ؛ أنّه يجلس في قبره ، ويُسأل ، وأنَّ القبر يضيق عليه ، فتختلف أضلاعه ، ونحو ذلك من مدِّ قبره (إفساح قبره مدَّ بصره) ، يقول : " فيجب أن يُفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مُرادَه من غير غلوٍ ، ولا تقصير " ؛ بمعنى أن نُجري هذا النص على ظاهره ، ونؤمن به ، ونُصدِّق به حقاً ، من غير أن نُعمل فيه عقولنا ، ونقول كيف ، أو نغلو ، فنُفصِّل ، ونُدقِّق في قضية تفاصيل هذا الأمر بالشيء الذي لم يرد به النَّص . إذاً الأصل : أن نقف مع النَّص حيث وقف ؛ نُجري النَّص على ظاهره ؛ يُعذب ؛ يُعذب ؛ يُفسح له في قبره ،،، يُفسح له في قبره يضيق عليه قبره ،،، يضيق عليه قبره ، يُجلس ،،، يُجلس ، كيف ذلك ؟ كيف يمكن تصوُّره ؟ الله أعلم . يقول : " فلا يُحمَل كلامه ما لا يحتمله " ؛ بمعنى لا يأتي الإنسان ، كما هي الحال وللأسف عند بعض القُصَّاص ؛ يتوسعون في هذا الباب ، ويبدأ يُفصِّل لك تفاصيل دقيقة ؛ كأنَّه يُشاهد حال هذا المقبور ! لا ، عقيدة أهل السُنَّة ، ومنهج أهل السُنَّة في مثل هذه المسائل : أن يدور الإنسان مع النَّص ، لأنَّها أمور غيبية ، لا مجال للعقل فيها ، فالعقل لا يحيلها ، لكن لا نأتي ونُعمل العقل فيها ، ونبدأ نقول ؛ ويلزم من كذا كذا ، ويلزم من كذا كذا ، لا ! يقول : " ولا يقصِّر به عن مُرادَه ، وما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك ، والعدول عنه من الضلال ، والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله " ؛ بمعنى أنَّ الإنسان متى ما عدل عن ظاهر النَّص ، وعدل عن ما أتى به النَّبي ، ومُراد النَّبي صلى الله عليه وسلم ؛ تاه في طرق الضلال والانحراف - كما هي الحال عند أهل البدع الذين أنكروا عذاب القبر ، أو أنكروا غيره من الأمور الغيبية - والسبب في ذلك : أنَّهم لم يلتزموا النَّص الذي كان الواجب عليهم أن يلتزموه ! كان الواجب عليهم ؛ أن يُسلِّموا له ، كان الواجب عليهم ؛ أن يقابلوه ، كما قابله الصحابة لما سمعوه من النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فهل قابلوا هذه النصوص بكيف ، ولماذا ، وهذا لا يمكن أن يُعقل ؟ لا ! قالوا : سمعنا وأطعنا ! ولهذا النَّبي صلى الله عليه وسلم - في حديث البراء - يجلس ويجلس الصحابة حوله ، ويشرح لهم تفاصيل ما يجري على الإنسان بعد الموت ، ومع ذلك ما نُقل عن أحد منهم أنّه قال : كيف يا رسول الله ، نحن الآن أمامنا قبور قد تنكشف ، ولا نرى فيها أي أثر لذلك ! لا ؛ سمعنا وأطعنا ، نُؤمن بذلك ، نُصدق به ، ولا نُعمل فيه عقولنا . يقول : " والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام " ؛ يعني سوء فهم النَّص الذي جاء عن الله ، أو جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ؛ هو أصل كل بليَّة ، وأصل كل ضلال ، وأصل كل انحراف حدث في الإسلام ، يقول : " وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيَّما إذا أُضيف إليه سوء القصد ، والله المستعان " ؛ يعني إذا اقترن مع ذلك سوء قصد صاحبه - كما هي الحال عند بعض غلاة أهل الضلال ، عندما أرادوا إفساد عقائد النَّاس ، وسعوا في إبعاد النَّاس عن المعتقد الصحيح - إذا انضم هذا القصد إلى عدم فهم النَّص الفهم الصحيح ، فحدَّث ولا حرج من الضلال والانحراف الذي ينتج عن هذا الأمر .

ثم انتقل المؤلف إلى مسألة أيضاً جديدة متعلقة بالمسائل السابقة :

«مسألة : ما أنواع الدُّور التي يمرُّ بها الإنسان ، وأحكام كل دار ؟

يقول : " فالحاصل أنَّ الدور ثلاث " ؛ الدور التي يمرُّ بها الإنسان ، أو المراحل التي يمرُّ بها الإنسان ، ثلاثة مراحل ، يقول : "

١ - دار الدنيا .

٢ - ودار البرزخ .

٣ - ودار القرار . "

؛ ثلاثة دُور، لا رابع لها . الله عزَّ وجل جعل لكل دارٍ أحكاماً تخصها ؛ فهناك :

١ - أحكام تخصُّ الإنسان في الدار الدنيا .

٢ - وأحكام تخصُّ الإنسان في دار البرزخ .

٣ - وأحكام تخصُّ الإنسان في الدار الآخرة .

البرزخ - كما ذكرت لكم - هي المرحلة بين مرحلتين ، هي الحياة بين حياتين ، هي الحياة التي تمرُّ بالإنسان بعد موته إلى قيام الساعة . يقول : " وقد جعل الله لكل دارٍ أحكاماً تخصُّها :

ورُكِّب هذا الإنسان من بدن ونفس " ؛ الإنسان الذي يمرُّ بهذه المراحل ، وهذه الدُور الثلاثة ؛ رُكِّب من عنصرين أساسيين ، بل لا يُسمَّى إنسان حقيقة إلا بوجود هذين العنصرين : النفس والجسد . يقول :

١ - " وجعل أحكام الدنيا على ؛ الأبدان ، والأرواح تبع لها " ؛ أي أن الأصل أن أحكام الدنيا كلها متعلقة بهذا البدن ، والروح تبع .

٢ - حياة البرزخ العكس ؛ يقول : " وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبع " ، فحياة البرزخ التي بعد الموت ، وقبل قيام الساعة ، الأحكام فيها كلها متعلقة بالروح ، والبدن تابع لها ؛ يعني كأنَّ الأصل هي الروح ، كما أنَّ الأصل في الحياة الدنيا ؛ الجسد .

٣ - يقول : " فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام النَّاس من قبورهم - صار الحكم والتَّعْييم والعذاب على الأرواح والأجساد معاً " . الحياة الدنيا على الجسد ، والروح تبع ، حياة البرزخ على الروح ، والجسد تبع ، في الحياة الآخرة على الاثنين معاً .

يقول : " فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ، ظهر لك أنَّ كون القبر روضة من رياض الجنَّة ، أو حفرة من حفر النَّار ؛ مطابق للعقل " ، وهذا ما عاد إليه : " أنَّ ما ثبت من التُّصوص في إثبات عذاب القبر ، ونعيم القبر ؛ أنَّه لا تحيله العقول - كما يزعم المعتزلة أنَّ هذا مستحيل عقلاً - لا ، لا يمكن أن تحيله العقول . " وأَنَّه حق لا مِرية فيه ، وبذلك يتميَّز المؤمنون بالغيب من غيرهم " ، وهذه أمانة وعلامة من علامات الإيمان بالغيب ، وإلا لو كان الغيب مكشوفاً للجميع ؛ لم يكن ثمة هناك أي فائدة للإيمان بالغيب ، الإيمان بالغيب هو الذي يُميَّز المؤمن عن غيره ، {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}

مسألة : لماذا تُحجب التوبة في حالتين ؟ ذكر أهل العلم الحكمة في ذلك :

١ - إذا غرَّعت الروح ؛ لأنَّه انكشف الغيب ، وتبين لهذا الإنسان الحقيقة ، فإذا آمن ماله قيمة ، كان الإيمان ممدحة لك لما كان الأمر غائب عنك ، وكانت الأنبياء تخبرك ، وكانت رسل الله عزَّ وجل تدعوك إلى الإيمان بهذا الشيء ؛ هناك كذا وكذا وكذا ، فإذا كان الإيمان صادق ؛ صدَّقت - ولو لم ترى - ولكن كونك تؤمن به إذا رأيته (ما فيه شيء جديد) ، ولهذا ما تنفع الإنسان التوبة .

٢ - إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ وأيقن النَّاس بالحقيقة ، بالساعة . يقول : " ويجب أن يُعلم أنَّ النَّار في القبر والتَّعْييم ، ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وإن كان الله تعالى يُحيي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحتة حتى يكون أعظم حرّاً من جمر الدنيا ، ولو مسَّها أهل الدنيا لم يُحسُّوا بها " ، يقول نحن نؤمن ونعتقد أنَّ نار القبر تختلف عن نار الدنيا ، والله عزَّ وجل قد يجعل هذا القبر صندوق من النَّار ؛ فيُحيي عليه جنات هذا القبر ، لكن لو جئنا ولمسنا القبر ، ما وجدنا فيه أي إحساس ، هذا أمر غيبي ، لا يمكن أن ندركه في الدنيا . يقول : " بل أعجب من هذا : أنَّ الرجلين يُدفنان ؛ أحدهما إلى

جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من حفر التَّار ، وهذا في روضة من رياض الجَنَّة " ؛ بمعنى أَنَّهُ يمكن - كما يحصل في بعض الكوارث ، كما تحصل في بعض الحالات - أن يدفن أكثر من ميت في قبر واحد ، ويكون أحدهما في روضة من رياض الجَنَّة ، والآخر في حفرة من حفر التَّار ، فلا هذا يتأثر بهذا ! بمعنى أَنَّ المُعَذَّب لا ينتفع من نعيم هذا ، والمُنْعَم لا يتأذى من عذاب هذا ؛ لأنَّ هذه أمور غيبية ، والله أعلم بكيفية ذلك . يقول : " لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حرَّ ناره ، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه . وقُدرة الله أوسع من ذلك وأعجب " ؛ يعني هذا كُلُّه متعلق بقدره الله عزَّ وجل ، والله على كل شيء قدير ، يقول : " ولكن التُّفوس مولعة بالتكذيب بما لم تُحط به علما " ؛ نعم ! التُّفوس جُبلت على أَنَّها فقط تتعلق بالأمور المُشاهدة المحسوسة ، أمَّا الأمور الغائبة عنها ، فقد تتردد ، والغالب عليها أَنَّها تُكذَّب هذا الشيء ! ولهذا لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدين ؛ آمن به القليل ، وكذَّب به الكثير ، والله عزَّ وجل ، قال : { وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَلَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } ، وذكر النَّبي صلى الله عليه وسلم الحديث الآخر : (أَنَّ النَّبِيَّ يَأْتِي وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ - فقط - وَيَأْتِي النَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) ، وقال عن قوم نوح : (وما آمن معه إلا قليل) ؛ أكثر من تسعمائة سنة يدعو النَّاس ، وما آمن معه إلا قليل ؛ لأنَّ النَّاس مولعون فقط بالإيمان بما يشاهدونه ، والرسول أتت بالأمور الغيبية ، حتى العبادات التي أمروا بها لتحقيق هذا الغيب ، والإيمان بهذا الغيب . يقول : " وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلى من هذا بكثير " . هذه هي الأدلَّة الحسية على إثبات عذاب القبر ، وأنَّ الله أرانا في هذه الدار الدنيا ما هو أبلى وأعظم من ذلك ، فلماذا صدَّقنا وآمنا بهذا ، وكذَّبنا بذلك . يقول : " وإذا شاء الله أن يُطلع على ذلك بعض عباده ؛ أطلعه ، وغَيَّبه عن غيره " ، عذاب القبر ونعيمه ؛ قد يُطلع الله عزَّ وجل ذلك على بعض العباد ؛ كما أطلع الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم على عذاب بعض من يُعَذَّب في القبر ، كما مرَّ معنا في الصحيحين ؛ أَنَّهُ مرَّ بقبرين يعذبان ، فعَلِمَ أَنَّهما يعذبان ، ومرَّ بقبور ، فعَلِمَ أَنَّهُم يُعَذَّبون ، ولهذا سأل : من أصحاب هذه القبور ؟ فذكروا أَنَّهُم أَناس ماتوا في جاهلية ، وقال في الحديث الآخر : (لولا أن لا تدافنوا ، لأسمعتكم ما أسمع) . يقول : " ولو أطلع الله على ذلك العباد كُلُّهم ؛ لزالَت حكمة التكليف ، والإيمان بالغيب " ؛ لو أطلع النَّاس على ما يحدث في حياة البرزخ ، لما كان هناك حكمة للتكليف ؛ أي لآمن الجميع ، وما كان هناك حكمة ؛ لأن يكون هناك مؤمن ، وهناك كافر .

يقول : " ولما تدافن النَّاس ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : (لولا أن لا تدافنوا ، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر ما أسمع) " ، فالتَّيَّ صلى الله عليه وسلم - كما ثبت في صحيح مسلم - أَنَّهُ سمع عذاب القبر ، لكن ذكر أَنَّهُ لو أسمع النَّاس ؛ لَنُكِل النَّاس أن يدفن بعضهم بعضا ، يقول : " ولَمَّا كانت هذه الحُكْمَةُ منتفية في حق البهائم ، سمعت ذلك وأدركته " ؛ لَمَّا كانت البهائم غير مُكَلَّفة ، وغير مطلوب منها أن يدفن بعضها بعضا ؛ سمعت عذاب ، أو أطلعها الله عزَّ وجل على شيء من عذاب هؤلاء الذين يُعَذَّبون .

مسألة جديدة متعلقة بمسألة عذاب القبر ونعيمه .

مسألة : هل سؤال منكر ونكير خاص بهذه الأمة ؟

يقول : " وللنَّاس في سؤال منكر ونكير : هل هو خاص بهذه الأمة أم لا ؟ " ، التَّيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : (إِنَّ هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها) ، فهل يعني هذا أن سؤال منكر ونكير خاص بهذه الأمة ، أم هو عام في الأمم جميعها ؟ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال - كما صح عنه - : (إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها) ؛ بمعنى أَنَّها تُسأل من قِبَل الملكين ؛ (منكر ونكير) ، فهل يعني أَنَّ هذا الابتلاء ، وهذا السؤال من قبل الملكين خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقوله : (

إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ (؟ أم هو عام في الأمم السابقة ، وفي جميع الأمم ؟

الحلقة (١٣)

استناداً لحديث : (إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا) ، أم هو عام في الأمم السابقة ، وهذه الأمة ؟ ذهب بعض أهل العلم (ومنهم ابن عبد البر) إلى أَنَّ السُّؤال والابتلاء خاصٌّ بهذه الأمة ؛ استناداً لظاهر الحديث ! ولهذا قال المؤلف : " وللنَّاسِ فِي سُّؤال منكر ونكير ؛ هل هو خاصٌّ بهذه الأمة ، أم لا ؟ ثلاثة أقوال ، في حديث زيد بن ثابت عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا) - منهم من يرويه : (تُسأل) - وعلى هذا اللفظ يُحتمل أن تكون هذه الأمة قد خُصَّت بذلك ، وهذا أمرٌ لا يُقطع عليه ! ويظهر عدم الاختصاص ، والله أعلم .

الأقوال ثلاثة :

- القول الأول : أَنَّهُ خاصٌّ بهذه الأمة .
- القول الثاني : أَنَّهُ غيرُ خاصٍّ بهذه الأمة .
- القول الثالث : وهو قول جماعة من السلف ، ورجَّحه ابن عبد البر ، ولعلَّه هو الراجح أَنَّهُ يُتَوَقَّف ؛ لِأَنَّ الأدلَّةَ فِيهِ مُحْتَمَلَةٌ .

فمن قال أَنَّهُ خاصٌّ بهذه الأمة ؛ استدل بظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا) . ومنهم من قال : إِنَّهُ عام ؛ لعموم الأحاديث في سؤال المدفون : " أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا مَاتَ أَتَاهُ مَلَكٌ " ؛ لم يُخصَّ بهذه الأمة . والقول الثالث التوقف ! وهو ما رجحه الإمام ابن عبد البر ؛ قال : لِأَنَّ التَّصَوُّصَ فِي هَذَا مُحْتَمَلٌ ، فَلَا يُقَطَّعُ بِهِذَا ، وَلَا يُقَطَّعُ بِذَاكَ .
من المسائل التي جرى فيها الخلاف :

◀ مسألة : سؤال الأطفال ؛ هل يُسألون ، أم لا ؟ فيها ثلاثة أقوال :

- ١ - منهم من قال : أَنَّهُمْ يُسألون وَيُبتَلون كما يُبتلى غيرهم ؛ لعموم الأحاديث .
 - ٢ - ومنهم من قال : لَا يُسألون ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِمُ التَّكْلِيفُ ، وَالسُّؤال خاصٌّ بالْمُكَلَّفِينَ .
 - ٣ - والقول الثالث : التوقُّف .
- ولعلَّ أَقْرَبَ الْأَقْوَالِ التَّوقُّفُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِذَا دَلِيلٌ ، لَا مِنَ الْكِتَابِ ، وَلَا مِنَ السُّنَّةِ ، وَالْمَسْأَلَةُ مُحْتَمَلَةٌ .
من المسائل المتعلقة بعذاب القبر ونعيمه :

◀ مسألة : هل يدوم عذاب القبر أم ينقطع ؟ - أشرنا إلى هذا سابقاً - يقول المؤلف : " وهل يدوم عذاب القبر ، أو ينقطع ؟ جوابه : أَنَّهُ نَوْعَانِ " ؛ عذاب القبر نوعان :

- ١ - منه ما هو دائم ؛ يعني عذاب القبر دائم لا ينقطع إلى قيام الساعة ، المثال على ذلك والدليل عليه قوله سبحانه عن آل فرعون : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا } ؛ (مافيه انتظار) ، { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } ، وأيضاً يدلُّ على أَنَّ عذاب القبر منه ما هو دائم في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قصة الكافر : (ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ ، فَيُنْظَرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) ، وهذا دليل على أَنَّ عذابه دائم .

النوع الثاني : أَنَّهُ مَدَّةٌ ، ثُمَّ يَنْقَطِعُ ؛ وهو عذاب بعض العصاة الذين خفَّتْ جرائمهم ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ ، ثُمَّ يُخَفَّفُ عَنْهُ ، كما تقدم ذكره في المحَصَّاتِ العشر ، وهذا فيما تقدَّم في الفصول السابقة ؛ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُطَهَّرُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِجِزْءٍ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ؛ تَكُونُ ذُنُوبُهُ خَفِيفَةً ، يَكْفِي فِي تَمْحِيطِهَا أَنَّهُ يَذُوقُهُ شَيْءٌ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، ثُمَّ يُخَفَّفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ ،

وينقله إلى النعيم؛ لأنه طُهر بشيء من عذاب القبر.

◀ مسألة: أين مُستقرُّ الأرواح بعد الموت؟

هذه الأرواح إذا خرجت إلى أين تذهب؟ أين مكانها؟ أين مُستقرُّها؟

اختلف النَّاس في هذا اختلافاً كثيراً، وتعددت أقوالهم، وتباينت، وذكر المؤلف شيئاً من هذا بالتفصيل:

يقول: "وقد اختلف في مُستقرِّ الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة"، إذا خرجت هذه الأرواح من الأجساد في الدنيا، وحُكِم على الإنسان أنه مات؛ توفي، أين تذهب روحه؟ أين مُستقرُّها؟ يقول:

١ - "ف قيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النَّار"؛ هذا قول، أنَّ أرواح المؤمنين تذهب إلى الجنة، وأرواح الكفار إلى النَّار.

٢ - "وقيل: إنَّ أرواح المؤمنين بِنِاء الجنة على بابها"، لا تدخل، لكنَّها على باب الجنة، "يأتيهم من روحها ونعيمها".

٣ - "وقيل: على أفنية قبورهم".

٤ - "وقال مالك: بلغني أنَّ الروح مُرسلة؛ تذهب حيث شاءت"؛ يعني مالها مكان مُحدد.

٥ - "وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عزَّ وجل؛ يعني أين مكانها؟ الله أعلم! وسكتوا، ولم يزيدوا على ذلك.

٦ - "وقيل: إنَّ أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت، ببئر بضر موت".

٧ - "وقال كعب الأحمار: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خدَّ إبليس".

٨ - "وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت".

٩ - "وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله".

١٠ - "وقال ابن حزم وغيره: مُستقرُّها حيث كانت قبل خلق أجسادها"؛ يعني الله عزَّ وجل - يقولون - خلقها من قبل، فمستقرُّها بعد مُفارقة الأجساد؛ هو مُستقرُّها قبل أن تلتحق بالأجساد.

١١ - "وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامَّة المؤمنين على أفنية قبورهم"؛ يعني في أفنية قبورهم.

١٢ - "وعن ابن شهاب (أي؛ الزُّهري)، أنه قال: بلغني أنَّ أرواح الشهداء كطيرٍ خُضرٍ مُعلَّقة بالعرش، تغدوا وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربَّها كل يوم تسلِّم عليه". إذاً الزُّهري ذكر ما جاء في بعض النصوص: (أنَّ أرواح الشهداء كطيرٍ خُضرٍ مُعلَّقة بالعرش)، وما عداها سكت عنه.

١٣ - "وقالت فرقة: مُستقرُّها العدم المحض"؛ بمعنى أنَّها تُعدم؛ وهذا رأي الفلاسفة، يقول: "وهذا قول من يقول: إنَّ النَّفس عَرَضٌ من أعراض البدن"؛ العرض لا بدَّ أن يقوم بالجسم، كما هو عند المتكلمين - وربَّما تقدم الكلام على ذلك عندكم في الفصول السابقة - كحياته وإدراكه، "وقولهم مخالف للكتاب والسُّنة"؛ لا شك أنَّ هذا القول باطل - كما ذكرنا في مسألة فنَاء الأرواح -.

١٤ - "وقالت فرقة: مُستقرُّها بعد الموت؛ أبدانٌ أُخر، تُناسبُ أخلاقها، وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كلُّ روح إلى بدن حيوان، يُشاكل تلك الروح! وهذا قول التناسخية مُنكري المعاد"، هذا قول أهل التناسخ الذين ينكرون أصلاً أن هناك معاد وهناك جنة ونار، يقولون: إذا مات الإنسان انتقلت روحه إلى جسد آخر يتناسب مع أخلاق الجسد

الأوّل، وأعمال الجسد الأوّل، فإن كانت أخلاقه وأعماله طيّبة، انتقلت إلى جسم وجسد طيّب، وإن كانت أعماله خبيثة، وأفعاله وأخلاقه خبيثة، انتقلت إلى جسم وجسد خبيث، لكن هذا قول باطل وظاهر البطلان! وليس هذا مجال المناقشة. المؤلف يريد أن يذكر جملة الأقوال التي وردت في ذلك، ثمّ سيوضح الرأي الراجح في المسألة، يقول: "وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم"؛ بمعنى أنّه لم يقل بهذا القول أحدٌ من المسلمين، يقول: "ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال، والكلام عليها". ومن أراد التوسّع؛ فليرجع لمثل "كتاب الروح" لابن القيم، فقد ذكر هذه الأقوال، وناقشها قولاً قولاً، وبين الفساد الذي تضمنه هذا القول.

يقول: "ويتلخّص من أدلتها"؛ أي أدلة خروج الأرواح، والكلام على حياة البرزخ، يتلخّص من مجموع هذه الأدلة، وهو القول الراجح: "أنّ الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت"؛ أنّها ليست على درجة واحدة، يقول:

١ - "فمنها: أرواح في أعلى عليّين (في الملأ الأعلى)، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم"، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا مرَّ بهم ليلة أُسْرِيَ به، فليسوا الأنبياء على درجة واحدة، فالله فضّل بعض النبيّين على بعض، كما جاء في الآية، وأيضا درجاتهم، ودرجات أرواحهم في الآخرة متفاوتة.

٢ - "ومنها: أرواح في حواصل طير خُضِر"، وهذا ثبت في صحيح السنّة، "تسرح في الجنّة حيث شاءت؛ وهي أرواح بعض الشهداء، لا كل الشهداء"، لا كلّهم بل من الشهداء من تحبّس روحه عن دخول الجنّة لدين عليه، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: "كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش: (أنّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: مالي إن قُتلت في سبيل الله؟؛ يعني إن أنا جاهدت وقتلت في سبيل الله، ما الثمن الذي آخذه مقابل هذا العمل، فقال: الجنّة"، قال ثمن هذا العمل الجنّة؛ لك الجنّة، يقول: "فلمّا ولّى، قال: إلا الذين، سارني به جبريل آفناً)؛ لك الجنّة، تنتقل روحك إلى الجنّة إذا قتلت في سبيل الله، إلا في حالة واحدة؛ إذا كان عليك دين، فإنّ هذا الدين يحبسك أن تلحق بأصحابك الشهداء إلى الجنّة، فتبقى محبوساً في دينك.

٣ - يقول: "ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنّة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنّة)؛ بسبب الدّين الذي قال فيه أحد الصحابة؛ عليّ دين هذا الرجل، فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنّ روحه محبوسة على باب الجنّة بسبب هذا الدين

٤ - "ومنهم من يكون محبوساً في قبره".

٥ - "ومنهم من يكون محبوساً في الأرض".

٦ - "ومنها أرواح تكون في تنشور الزناة والزواني".

٧ - "وأرواح في نهر الدم؛ تسبح فيه، وتُلَقَم الحجارة"، كما ثبت هذا في صحيح السنّة في حديث الإسراء لَمَّا أُسْرِيَ النبي صلى الله عليه وسلم به؛ رأى الزناة، والزواني في التنور، وأى الذي يسبح في الدم؛ الذي يأكل الربا، ورأى المرأة التي حبست الهرة؛ لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، رآها محبوسة في الثّار بسبب حبس هذه الهرة، ورأى عمرو بن لُحي يجرّ قُصْبِهِ في الثّار، يقول: "كل ذلك تشهد له السنّة".

إذن لو سُئلنا: أين مستقر الأرواح بعد مفارقتها الأجساد؛ بعد موتها؟ نقول: ليس لها مكان مُحدّد! فهناك أرواح في أعلى عليّين، وهي أيضاً متفاوتة؛ كأرواح الأنبياء، هناك أرواح في حواصل طير، هناك أرواح محبوسة على أبواب الجنّة، وهناك أرواح في تنور الزناة، في بحر الدم، في النار... إلى آخره، كما ثبتت بذلك الأحاديث، الشاهد: أنّنا نثبت ما ثبت به

النَّص ، وما سكت النَّص عن ؟؟؛ نُمِسِكَ . فالأقوال السابقة ؛ الذي قال في بئر برهوت ، في جابية دمشق ، في مكان فلان ، هذا ليس عليه أدلة صريحة صحيحة ! يقول : " أمّا الحياة التي اختصَّ بها الشهيد ، وامتناز بها عن غيره ، في قوله تعالى : {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} ، يقول : ما نوع هذه الحياة ؛ حياة هذه الروح ؟ الله عزَّ وجلَّ مَيَّز أرواح الشهداء بحياة تختلف عن حياة بقيَّة الأرواح الأخرى ، يقول : " قوله تعالى : {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} ؛ أَنَّ الله تعالى جعل الحياة التي خُصَّ بها روح الشهيد أَنَّ الله جعل أرواحهم ، كما ثبت عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ في أجواف طير خضر - كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّهُ قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما ثبت في صحيح مسلم وغيره - : لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يعني يوم أحد - جَعَلَ اللَّهُ أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب مُدَلَّاتٍ في ظلِّ العرش) ؛ بمعنى أَنَّ الله خَصَّ الشهداء بحياة خاصَّة ؛ جعل أرواحهم في حواصل طير خضر ، يقول : " فَإِنَّهُمْ لَمَّا بَدَلُوا أبدانهم لله عزَّ وجلَّ ؛ حتى أتلَّفها أعداؤه فيه " ؛ بمعنى لَمَّا قَدَّمُوا أجسادهم ، وقَدَّمُوا أغلى ما يملكون ، رخيصةً في سبيل الله ، فأتلَّفها أعداؤه ؛ أعداء الله عزَّ وجلَّ بالقتل أعاضهم عن هذه الأبدان في البرزخ ؛ أبداناً خيراً منها ، تكون فيها إلى يوم القيامة ، ويكون تنعُّمها بواسطة تلك الأبدان ، أكمل من تنعُّم الأرواح المجردة عنها " ؛ يعني بقيَّة أرواح المؤمنين لا يُنشَأ لها أبدانٌ آخر في حياة البرزخ ، بل هي مُرتبطة بأبدانها ، أمّا الشهداء فيُعْطون هذه الطيور ، يقول : " ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير ، أو كطير ، ونسمة الشهيد في جوف طير " ، وتأمل لفظ الحديثين ؛ ففي الموطأ : أَنَّ كعب بن مالك كان يُحَدِّث أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (إِنَّ نَسْمَةَ الْمُؤْمِنِ ؛ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ؛ يعني نسمة ؛ روحه ، في جوف طير ، يذهب ويسرح حيث شاء في الجنة ، ويعود إلى قناديل مُعلَّقة إلى شجر في الجنة ، يقول : فنقله : " نسمة المؤمن ؛ تنعُّم الشهيد وغيره ، ثُمَّ خَصَّ الشهيد بأن قال : (هي في جوف طير خضر) ، ومعلوم أَنَّها إذا كانت في جوف طير صَدَقَ عليها ؛ أَنَّها طير ، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار ، فتصيبهم من النعيم في البرزخ أكفى نصيبهم ؛ من النعيم في البرزخ أكمل من غيرهم من الأموات على فرشهم ، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم ، فله نعيم يختصُّ به ، لا يُشاركه فيه من هو دونه " ؛ يعني : قد يكون الميت على الفراش أفضل ؛ كما هي الحال ، مثلاً : في أن يكون عالمًا ، ويكون المقتول الشهيد عاميًا ، فقد يكون هذا العالم في أعلى ، لكن كون الشهيد خُصَّ بهذا النوع من النعيم ؛ لا يعني أَنَّ من مات على فراشه ، وهو أفضل من الشهيد ؛ أن يُخَصَّ بنوع من النعيم لا يشاركه فيه الشهيد .

◀ مسألة : هل ستبقى أجساد الشهداء إلى يوم القيامة ؟

يقول : " وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ " ؛ كما ثبت عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : (أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ) . يقول : " وأمّا الشهداء فقد شوَّهَدَ منهم بَعْدَ مُدَدٍ من دفنه كما هو ! لم يتغير ! كما حصل من عبد الله بن حرام رضي الله عنه لَمَّا جاء ابنه جابر بعد مُدَّةٍ وأُخْرِجَهُ ؛ أخرجهُ طَرِيقًا يَتَشَنَّى " . يقول المؤلف : " يحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره ، ويُحْتَمَل أَنَّهُ يَبْلَى مع طول المُدَّة - والله أعلم - وكأَنَّهُ - والله أعلم - لَمَّا كانت الشهادة أكمل ، والشهيد أفضل ، كان بقاء جسده أطول " ؛ يعني هل الشهداء تبقى أجسادهم إلى يوم القيامة ؟ يُحَرِّمُ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَهَا ، كما هي الحال بالنسبة للأنبياء ؟ الله أعلم ! الأنبياء ثبت بهم النَّص ، فنقول : أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ ، أمّا الشهداء فقد شوَّهَدَ حِسًّا ؛ أَنَّ الشَّهيدَ خرج من قبره كما دُفِنَ ، كما ذَكَرْتُ

لكم في قصة عبد الله بن حرام . لكن هل تبقى إلى يوم القيامة ؟ ما فيه نص ! لكن نقول : الله أعلم أن أجسادهم إن كانت ستبلى ، لكن لا يكون بلاؤها مثل بلاء سائر الأجساد ؛ بمعنى أن البلاء يتأخر أن ينالها ؛ بسبب الشهادة التي نالوها

الحلقة (١٤)

الإيمان باليوم الآخر:

سبق الحديث عن كلام المؤلف فيما يتعلق بحياة البرزخ بنعيم القبر وعذابه ، وانتهى بنا المطاف إلى كلام الإمام الطحاوي فيما يتعلق بالبعث وجزاء الأعمال ، فما تقدم الكلام عنه حول عذاب القبر ونعيمه ، هو مُقدِّمة - كما ذكرت لكم - وبداية القيامة الصُّغرى بالنسبة لكل شخص ، وإنَّما للإيمان باليوم الآخر متعلق - جملة - بالإيمان بالبعث بعد الموت ! وإن كان الإيمان بعذاب القبر ونعيمه من لوازم الإيمان باليوم الآخر . يقول الإمام الطحاوي : " ونؤمن بالبعث ، وجزاء الأعمال يوم القيامة ، والعرض ، والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب ، والعقاب ، والصراط ، والميزان " . ذكر - الطحاوي - في هذه الجملة بعضاً من لوازم الإيمان باليوم الآخر . إنَّ الإيمان باليوم الآخر مسألة عظيمة وكبيرة ، تضمَّنَت الإيمان بعدة

مسائل منها :

- ١ - الإيمان بعذاب القبر ونعيمه - وتقدم الكلام عليه - .
- ٢ - الإيمان بالبعث .
- ٣ - والجزاء .
- ٤ - والعرض .
- ٥ - والحساب .
- ٦ - وقراءة الكتاب .
- ٧ - والميزان .
- ٨ - والثواب والعقاب .
- ٩ - والجنة والنار .

سيُشير المؤلف إلى شيءٍ من هذه المسائل باختصار وأدلتها ، لكن قبل أن نعود إلى كلام ابن أبي العز في هذه المسألة ؛ يُحسِّن أن نقف حول هذا الأصل الذي هو :

الإيمان باليوم الآخر ، وهو الأصل الخامس من أصول الإيمان ؛ بعض الوقفات ومنها :

أولاً : أنَّه يجب الإيمان بـ " البعث والمعاد " كما وردت التُصوص الشرعيَّة ، وَلِنَعْلَمَ أَنَّهُ رَكْنٌ من أركان الإيمان ؛ لا يُوجد الإيمان إلا به ، ومن كفر به ، أو جحده ؛ فقد خرج من رِبْقَةِ الإيمان ؛ لأنَّه أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة .
ثانياً : من لوازم الإيمان باليوم الآخر : " الإيمان بالمعاد " ؛ كما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة والإجماع والعقل والفِطْر السليمة ، فمعاد الأبدان ، وحشر الأجساد ؛ هذا تواترت به ، بل استفاضت ، وعُلِمَ من الدين بالضرورة بدلالة ؛ الكتاب ، والسُّنة ، والإجماع ، ودلالة العقل ، ودلالة الفطرة السليمة - سيأتي تفصيل ذلك - .

ثالثاً : (من الأمور المتعلقة بذلك) ؛ أنَّ الأنبياءَ كُلَّهم متفقون على الإيمان باليوم الآخر ، فهو أصلٌ من أصول الدين الذي أجمعت عليه الرسل ، فجميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم - وسنذكر جملة من الأدلة المتعلقة بهذا الأمر - اتفقوا على الإيمان باليوم الآخر .

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ ، وَرَدَّ عَلَى مَنْكِرِيهِ فِي غَالِبِ سُورِ الْقُرْآنِ ؛ فَالْقُرْآنُ مِلَّةٌ بِالْحَدِيثِ عَنْ هَذَا الْيَوْمِ ، فَأَوْجَزَ فِي مَوَاضِعَ ، وَفَصَّلَ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ، وَبَيَّنَّ بِمَا لَا يَدَعُ لِقَائِلٍ مَقَالًا .

رَابِعًا : بَيَّنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَفَاصِيلِ هَذَا الْيَوْمِ ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ وَأَهْوَالٍ ، وَمَوَاقِفَ ؛ بَيَانًا لَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقَةِ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ :

أ - لِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ؛ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ . لَا يُمْكِنُ لِنَبِيٍّ أَنْ يَأْتِيَ وَيُكْمَلَ مَا بَدَأَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَوْ يُوَضِّحَ مَا أَجْمَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْيَوْمَ الْآخِرَ مَبْنَاهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَأْتِيَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ .

ب - لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ هُوَ وَالسَّاعَةُ ؛ كَهَاتَيْنِ ، وَقَدْ أَشَارَ بِأَصْبَعِيهِ ؛ السَّابِقَةِ وَالْوَسْطَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِقُرْبِ مَبْعَثِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْقِيَامَةِ ، بَلْ إِنَّ مَبْعَثَهُ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ .

ج - لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " الْحَاشِرُ " ، وَ " الْمُقَفَّيَّ " كَمَا هِيَ مِنْ أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .
" الْحَاشِرُ " : الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِهِ ؛ أَيِ وِرَاءَهُ ، فَالنَّاسُ يُبْعَثُونَ بَعْدَهُ مَبَاشَرَةً .
" الْمُقَفَّيَّ أَوِ الْمُقَفَّيَّ " : أَيِ الْمُتَّبَعِ لِلنَّبِيِّينَ .

خَامِسًا : (مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي التَّنَبُّهُ لَهَا ؛ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) يَقُولُ : " أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى أَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا ؛ مِنْ نُوحٍ ، إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، إِلَى مُوسَى ، إِلَى عِيسَى ، إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا يَأْتِي (يَعْنِي مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ) : حِينَ أُهْبِطَ آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، قَالَ اللَّهُ لَهُ : { قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } ، ثُمَّ قَالَ : { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } ؛ يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ إِخْرَاجٌ وَبَعْثٌ بَعْدَ الْمَوْتِ ، بَلْ إِبْلِيسُ كَانَ يَعْلَمُ بِالْبَعْثِ ؛ وَلِذَلِكَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَمُدَّ فِي حَيَاتِهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ؛ فَقَالَ رَبُّهُ : { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ } قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ } ، وَنُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، قَالَ اللَّهُ عَنْهُ : { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا } ، وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَكَى اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } ، وَحَكَى عَنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } ، وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - لَمَّا نَاجَاهُ - : { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ، حَكَى اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } وَقَالَ : { وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } ، وَفِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ وَمِنْهَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ عَلَى وَقُوعِهَا ؛ فَقَالَ : { بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } ، { قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ } ، { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } ، { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } .

سَادِسًا : مِمَّا يَنْبَغِي التَّنَبُّهُ لَهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ : أَنَّ هَذَا الْبَيَانَ ، وَهَذَا التَّفْصِيلَ ، وَكَثْرَةُ تَكَرَّارِهِ فِي الْقُرْآنِ ، وَعَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ضَلَالٍ بَعْضَ الْفَلَسَفَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا مَعَادَ الْأَبْدَانِ ، وَجَحَدُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَزَعَمُوا أَنَّ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ لَا مِنْ بَابِ الْحَقِيقَةِ ! وَلَعَلَّنَا نَقْفُ كَمَا وَقَفَ الْمُؤَلِّفُ حَوْلَ :

◀ مَسْأَلَةٌ : مِنْهُجٍ وَطَرِيقَةٍ الْقُرْآنِ فِي مَسْأَلَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَادِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ :

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ - وَكَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا - مِلَّةٌ بِالْأَدْلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْيَوْمِ ؛ إِيجَازًا وَتَفْصِيلًا ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : " ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ دَلَائِلِ الْمَعَادِ وَبَرَاهِينِهِ مَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِقَرِيبٍ مِنْهُ ، وَذَكَرَ فِيهِ مِنْ أَصْنَافِ الْحُجَجِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ عَامَّةُ

الخلق ؛ فإنه سبحانه دلّ على إمكان إحياء الموتى ، وقدرته على ذلك بطريقتين .

طريقة القرآن في إمكان إحياء الموتى ، وإعادة النَّاس من قبورهم إلى الدار الآخرة :

ذكر شيخ الإسلام أنَّ للقرآن في هذا طريقتين :

الطريق الأول : طريق الوجود والأعيان .

والثاني : طريق الاعتبار والبرهان .

الطريق الأول (الذي هو طريق الوجود والأعيان) : هو أعظم الطريقتين ، إذ لا أدلّ على إمكان الشيء ؛ من وقوع الشيء (

فإذا وُجِدَ فهو أعظم دليل على إمكانه) ؛ يعني إنَّ وقوع الشيء دليل على إمكان وقوعه ، هذا أعظم دليل حسي وعقلي

مشاهد على إمكان وقوع هذا الشيء ، يوضحه الأمثلة التالية :

أولاً الأدلة النقلية من القرآن الكريم :

١ - الله عزَّ وجل ذكر بعض قصص أقوام ماتوا (أماتهم الله) ، ثم أحياهم ، ورآهم النَّاسُ أحياءً ، فهذا دليل على إمكان إحياء الموتى بعد موتهم ، فوقَّع الشيء بعد أن لم يكن ، وممَّا ذكرَ الله في هذا الأمر ؛ الرهط من بني إسرائيل الذين سألوا موسى أن يُريهم الله جهرة ، فأماهم الله ثم أحياهم ، قال تعالى : { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } .

٢ - من الأمثلة التي ذكر الله عزَّ وجل في بني إسرائيل : صاحب البقرة ؛ الذي قَتَلَ ولم يُعلم قاتله ، أمرهم الله عز وجل أن يذبحوا بقرة ، إلى أن قال سبحانه : { فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا } اضربوا هذا الميت ببعض (جزء) هذه البقرة التي أمروا بذبحها - في سورة البقرة - ، قال تعالى : { كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ؛ لأنَّهم لما ضربوه بهذا الجزء قام هذا الميت وأحياه الله عزَّ وجل ، بعد أن كان ميتاً ، وأخبر أنَّ القاتل هو فلان .

٣ - من الأدلة (أو من الأمثلة) : الألوف من بني إسرائيل ؛ قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } أدلة حسيّة واضحة ؛ أحياهم أمام النَّاس ، ورأوهم وخاطبوهم .

٤ - من الأمثلة : صاحب القرية الذي أماته الله عزَّ وجل مائة عام ، قال تعالى : { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } ماذا قال ؟ : { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } ؛ أي أحياه ، { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } .

٥ - من الأمثلة : قصة طيور إبراهيم ، قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي } فأمره الله عزَّ وجل أن يأخذ أربعة من الطير ، قال تعالى : { فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا } ؛ يعني أخذ الأربعة طيور ، وقتلهم ، ثم عجن لحمهن (بعضهن مع بعض) ، ثم فرّقهن ، ثم دعاهن ، فأتينه سعياً ، أحياهن الله .

٦ - من الأدلة : أصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ، قال تعالى : { ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا } ، ثم أحياهم الله عزَّ وجل - على القول بأنَّهم ماتوا - .

٧ - الله عزَّ وجل أقدر بعض خلقه على إحياء الموتى ، كما أقدر عيسى عليه السلام أنَّه يُحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه ، والأبرص .

إذن هذه القصص ، وهذه الأمثلة ؛ دليل على إمكان وقوع البعث ، وهذا من أعظم الأدلة العقلية الحسية المُشاهدة .

- الطريق الثاني (وهو إثبات الإمكان بالقدرة ، والاعتبار ، والقياس بطريق الأولى) :

ذكر شيخ الإسلام أنَّ لهذا صُورًا كثيرة ، من أبرزها :

١ - الاستدلال على ذلك بإحياء النبات بعد موته ، فالله عزَّ وجل استدل على إمكان البعث يوم القيامة ؛ بإحياء النبات بعد أن كان ميتا ، فالله قادر على إحياء الموتي كقدرته على إنبات النبات ، وهذا كثير في القرآن . قال تعالى : { إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى } .

٢ - الاستدلال على ذلك بخلق الحيوان نفسه - لعلنا سنأتي بذكر بعض الأدلة أثناء استعراض كلام المؤلف ، إنَّما الآن نذكرها على سبيل الإجمال - الاستدلال على ذلك بقدرته سبحانه وتعالى على خلق الحيوان نفسه (ومنه الإنسان) ، وأن قدرته سبحانه على إعادة قدرته على الابتداء ، بل هو أهون عليه ؛ وكلاهما هي . { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } ، فالذي خلق الإنسان من العدم ، فمن باب أولى أن يكون قادرًا على أن يعيد هذا الإنسان مرة أخرى بعد الإماتة .

٣ - أيضا الاستدلال على ذلك بخلق ما هو أعظم من خلق الإنسان مثل : خلق السماوات والأرض ، قال تعالى : { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى } ، فإذا كان قادرًا على خلق السماوات والأرض - وهي أعظم من خلق الإنسان - فمن باب أولى أن تكون لديه القدرة سبحانه على إعادة الإنسان مرة أخرى .

هذه هي أنواع الأدلة النقلية الواردة في القرآن على إثبات اليوم الآخر ، وقلنا : إنَّ إثبات اليوم الآخر ، ثبت :

١ - بالدليل النقلی .

٢ - والدليل العقلي .

٣ - وبالإجماع .

٤ - وبالحس .

ثانياً : الدليل العقلي :

أشار الله إليه بقوله سبحانه : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } . فالله سبحانه وتعالى ، عقلاً ؛ اقتضت حكمته أن لا يخلق النَّاس سُدىً وعبثاً ؛ أي بأن لا يُجازى المحسن على إحسانه ، ولا المسيء على إساءته ، ولهذا نزه نفسه أن يتصف بهذه الصفة ! هذا لا يمكن أن يقبل عقلاً ، قال تعالى : { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } ، تنزه أن لا يجعل يوماً يُجازى فيه كلِّ بحسب عمله ، ولهذا ذكر ابن كثير : أنَّ أحد كفار قريش قال : ما من ظالمٍ إلا وسيُبتلى في هذه الدنيا ، وسيُجازى في هذه الدنيا على قدر ظلمه ، إلى أن مات أحد الذين ظلموا ، وطمعوا ، وتجبروا ، حتماً عن نفسه ؛ بمعنى ما يُسمَّى اليوم بسكتة ؛ (بالموت المفاجئ ، لم يتعرض إلى شيء من الأذى) ، فقال : لولا أن الأَمَ (بمعنى : أن يلومني كفار قريش) ، لقلتُ أنَّه لا بد أن يكون هناك يومٌ يُجازى المحسن على إحسانه ، وهذا المسيء الظالم على ظلمه ، فاستدل بعقله على إمكان البعث ! وأنَّ الحكمة تأبى أن يُترك النَّاسُ بلا جزاء .

- ثالثاً : دَلَّ على إثبات اليوم الآخر : الفطرة وإجماع الرسل :

الإنسان فطره الله عزَّ وجل على أن يعتقد أنَّه لا بد من يوم يُجازى فيه كلُّ على عمله - وهذا أمرٌ فطري - ولهذا لا يمكن أن يُصلح النَّاسُ ، وأن تصلح لهم الحياة ، إلا بأن يكون هناك يوم يُجازى فيه المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته . هذا بإيجاز الكلام حول هذه المسألة ، ونعود لكلام المؤلف حيث قال : " والإيمان بالمعاد ممَّا دَلَّ عليه الكتاب ، والسُّنة ،

والعقل ، والفطرة السليمة ، فأخبر سبحانه في كتابه العزيز ، وأقام الدليل عليه ، وردَّ على مُنكره في غالب سور القرآن " ؛ قُلْ ما تجد سورة ، إلا وفيها الإشارة لهذا اليوم ؛ سواء إيجازاً أو تفصيلاً ، تصريحاً أو تلميحاً ، وقد ذكر بعض أهل العلم أنَّ القرآن فيه آلاف الأدلَّة على إثبات اليوم الآخر .

الحلقة (١٥)

الإيمان بالبعث والجزاء :

وقف بنا المطاف عند قول الشارح : " الإيمان بالمعاد دلَّ عليه الكتاب والسُّنة ، والعقل ، والفطر السليمة ، فأخبر الله سبحانه وتعالى عنه في كتابه العزيز ، وأقام عليه الدليل ، وردَّ على مُنكره في غالب سور القرآن ، وذلك : أنَّ الأنبياء عليهم السلام كُلُّهم متفقون على الإيمان بالآخرة " ، هذا ممَّا أجمعت عليه الرسل قاطبة ، ولهذا ذكر الله عزَّ وجل في كتابه شيئاً من الأدلَّة الدالَّة على أنَّ الأنبياء أثبتوا هذا الأمر عياناً لأُممهم . يقول : " فَإِنَّ الإقرار بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري " ؛ الإيمان بوجود الرب ، هذا أمر مفطورٌ عليه الخلق قاطبة . يقول : " كُلُّهم يُقر بالربِّ ، إلَّا من عاند ؛ كفرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فَإِنَّ مُنكره كثيرون " ، ولهذا كَثُرَت الأدلَّة ؛ بسبب كثرة المُنكرين . يقول : " ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بُعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المُقَيِّ - بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء " . قد يقول قائل : لماذا هذا التفصيل الدقيق جاء في القرآن وفي السُّنة بخلاف ما ذكره الأنبياء السابقون ؟ علَّل المؤلف ، وذكر المؤلف هنا السبب :

الأمر الأول : أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، فهو آخر من سيُفصِّل في هذا الموضوع ، ليس بعده نبي يأتي إذا أصبح عند النَّاس لبس ؛ فيوضح هذا اللبس .
الأمر الثاني : أنَّه بُعث قريباً من الساعة ، فهو من علامات الساعة ، ومن أمارات الساعة ، فقد قال - كما صحَّ عنه - : (بُعثت أنا والساعة كهاتين) .

الأمر الثالث : أنَّ من أسمائه عليه الصلاة والسلام ؛ الحاشر (الذي يُحشر النَّاس على قدمه) .
يقول : " لهذه الأمور ؛ بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء ، ولهذا ظنَّ طائفة من المتفلسفة ونحوهم ، أنَّه لم يُفصح بمعاد الأبدان إلَّا محمد صلى الله عليه وسلم " . الفلاسفة لما أرادوا إنكار اليوم الآخر ، قالوا : أبداً ما فيه أحد أفصح هذا الإفصاح ، إلَّا محمد صلى الله عليه وسلم . يقول : " ولهذا جعلوا هذا حجَّة لهم في إنكار اليوم الآخر ، وأنَّ ما أخبر به إنَّما هو من باب التخييل ، ومن باب الخطاب ، كما يقول الجمهوري " ؛ يجذب إليه قلوب النَّاس ، ويسوس به عامَّة النَّاس ، وهذا كلام باطل ، كلام فاسد ، تردَّه نصوص الكتاب والسُّنة ، ويردُّه العقل ، وتردُّه الفطر السليمة ، يقول : " والقرآن بين معاد النَّفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع ، وهؤلاء - أي الفلاسفة - يُنكرون القيامة الكبرى ، وينكرون معاد الأبدان ، ويقول من يقول منهم : إنَّه لم يُخبر به إلَّا محمد صلى الله عليه وسلم على طريق التخييل " ، بمعنى أنَّه يُخيَّل على عامَّة النَّاس ؛ أنَّ فيه يوم آخر ، وفيه حشر ، وفيه قيام النَّاس من قبورهم ، وفيه جنَّة ، وفيه نار ! ولماذا يُخيَّل عليهم ؟ قالوا : لأجل أن يسوسهم ، ولأجل أن تصلح به أحوالهم ، وتصلح به حياتهم ، ويصلح به معاشهم . يقول المؤلف : " وهذا كذب ، فَإِنَّ القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء ! " . ليس الذي جاء بها النَّبي صلى الله عليه وسلم فقط ، بل الأنبياء سبقوه إلى إثبات هذا اليوم ، لكن هو فضَّل أكثر ، لكن هم يُنكرون اليوم الآخر جملة وتفصيلاً .

الأدلة على إثبات اليوم الآخر:

يقول: "من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}"; بمعنى أن الله أخبر عن القيامة من لحظة نزول آدم إلى الدنيا؛ أن هناك يوم آخر، أنهم سيعودون للآخرة مرة أخرى، يقول: "ولمّا قال إبليس اللعين - وهذا في الآخرة - {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} ". فإبليس - وهو المعاند لله عز وجل، المستكبر على أمره - كان يُقرُّ بهذا اليوم، ويعترف، ويعترف أنه كائن لا محالة. يقول: "وأما نوح عليه السلام فقال: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} " فهذا إثبات من نوح لهذا اليوم خلافا لما ذكره الفلاسفة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي شدّ وأخبر بهذا اليوم، يقول: "وقال إبراهيم عليه السلام: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} ". إلى آخر القصة. وقال: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} ". وقال: {رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى} الآية، وأما موسى عليه السلام، فقال الله تعالى - لمّا ناجاه - : {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ} . بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإتّما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه (يعني أخذ هذا الأمر عن موسى): {وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، إلى قوله تعالى: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}، إلى قوله: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} وقال موسى: {وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ}، وقد أخبر الله - في قصة البقرة - : {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّمُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} . - يقول المؤلف - وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم؛ من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد؛ يذكر ذلك فيها في الدنيا والآخرة. يقول: "وأمر نبيه أن يُقسِمَ به على المعاد، فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ} ". وقال تعالى {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} وقال تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَشَبَعْنُ ثُمَّ لَتُبْعَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ". وذكر أيضا أن الله أخبر عن اقترابها، فقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}، {سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}، إلى أن قال: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا}، وذمّ المكذبين بالمعاد، فقال: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} ". وذكر أيضا قولهم - كما في سورة الإسراء - : {وَقَالُوا أَيْنَ كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَتَيْنَا لَمْبَعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبٌ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}، المؤلف تكلم على هذه الآية، وبيّن أن فيها حجة ظاهرة واضحة، وتضمنت أيضا دلالة عقلية على إثبات اليوم الآخر.

الأدلة العقلية على البعث:

أولا: من الأدلة العقلية - ما أشرنا إليه - "وهي قوله سبحانه: {وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ

رَمِيمٌ...} فلورام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان ، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة ، أو بمثلها في ألفاظ تُشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ، ووضح الأدلة ، وصحة البرهان ؛ لما قدر ! فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده مُلحد ، اقتضى جواباً ، فكان في قوله : {وَنَسِي خَلْقَهُ} " ، ضرب لنا مثل ؛ لَمَّا جاء وفَتَّ العظم أمام النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : أُجِيبِي هذه الله - عزَّ وجل - بعدما أَرَمْتُ ؟ فأنزل الله : {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} ، {وَنَسِيَ خَلْقَهُ} نسيَ أَنَّهُ خُلِقَ من العدم ، أنشأَ من العدم ، من لا شيء . يقول : " ما وَفَى بالجواب ، وأقام الحجة ، وأزال الشبهة " ، ثم يقول : " فقال : {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} ، فاحتج بالإبداء على الإعادة " . كونه بدأها وأنشأها من لا شيء ؛ واستدل بهذا على القدرة على الإعادة ، و " وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أنَّ من قدر على هذه " ؛ من قدر على أن يخلق الإنسان من لا شيء ، فهو أولى بالقدرة على إعادته مرة أخرى ، إذ لو كان عاجزاً عن الأولى ؛ لقلنا : أَنَّهُ عاجزاً عن الثانية ! يقول : " وأَنَّهُ لو كان عاجزاً عن الثانية ؛ لكان عن الأولى أعجز وأعجز ، ولَمَّا كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه ، وعلمه بتفاصيل خلقه ، أتبع ذلك بقوله : {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} " ، بمعنى أَنَّهُ قادر ، وعالم بإعادة هذا الإنسان مرَّةً أخرى " ، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأوَّل ، وجزيئاته ، ومواده ، وصورته ؛ فكذلك الثاني ، فإذا كان تامَّ العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ؟ " ، الله عزَّ وجل لَمَّا أنشأ الخلق الأوَّل ؛ أنشأ الإنسان من العدم ، وهو عالم بصورته ، وجزيئاته ، وما يتكوَّن منه ، قادر - وهو متصف بهذه الصفة - كامل القدرة والعلم ، فهو قادر على الإعادة مرة أخرى .

ثانياً : يقول : " ثمَّ أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر " ، يقول : تكلمة الآية ؛ هي إجابة لسؤالٍ مفترض من ملحد آخر ، يقول : " العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة " ، العظام إذا أَرَمَتْ وتفتتت عادت طبيعتها إلى اليبوسة ، يقول : " والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة ، رطبة بما يدلُّ على أمر البعث ، ففيه الدليل والجواب معاً " ، أجاب الله عز وجل عن ذلك فقال : {الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ النار} ، النار بطبيعتها يابسة ، والشجر الأخضر بطبيعته رطب ، فالله عزَّ وجل أخرج هذا الضد من هذا الضد ، فهو قادرٌ أن يحيي الموتي مرة أخرى ؛ بعدما صارت هذه العظام وهذه الأجساد ؛ يابسة فتاتا ، يقول : " فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة (الذي هو النَّار) ، من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة ، فالذي يُخرج الشيء من ضده (أخرج النَّار اليابسة من الشجر الرطب ؛ المليء بالماء) ، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ، ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودَفَعَهُ ؛ من إحياء العظام وهي رميم " .

ثالثاً : يقول : " ثمَّ أكَّد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجلَّ الأعظم ، على الأيسر الأصغر " ؛ بمعنى إذا كان قادراً على أن يخلق ما هو أعظم من الإنسان ، فمن باب أولى أن يكون قادراً على خلق هذا الإنسان الضعيف الصغير ، يقول : " فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل ؛ فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر ، فمن قدر على حمل قنطار ؛ فهو على حمل أوقية أشدَّ اقتداراً " ، مَنْ كان قادراً على حمل هذه الطاولة التي بين يدي ؛ من باب أولى يكون قادراً على حمل هذا القلم ، الله عزَّ وجل أوضح ذلك في قوله - تكلمة للآيات - : {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} إذا كان الله خلق السماوات والأرض - وهذا لا يختلف فيه أهل الشرك ، أنَّ الذي خلق السماوات والأرض هو الله - أليس قادراً على أن يخلق الإنسان مرة أخرى ، وهو أصغر من السماوات والأرض . يقول : " فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض ، على جلالتهما ، وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما ، وسعتهما ، وعجيب خلقهما ، أقدر على أن

يحيي عظاماً قد صارت رميماً ، فيردّها إلى حالتها الأولى . كما قال في موضع آخر : {لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} . " ، وقال : {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ بَقَادِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} .

رابعا : ثم أكد سبحانه ذلك ، وبينه ببيان آخر ، وهو أنّه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة ، والتعب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لا بد معه من آله ومُعِين ، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوّنه ؛ نفس إرادته ، وقوله للمُكوّن : كن ، فإذا هو كائن كما شاء وأراد .

خامسا : ثم ختم هذه الحجة بإخباره أنّ ملكوت كل شيء بيده ، فيتصرف فيه بفعله وقوله : {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} . يقول ومن الأدلة العقلية ما سبق بيانه ؛ دليل عقلي صريح في إمكان البعث ، هذا الدليل النقلي الدال على الدليل العقلي فيه عدة أجزاء ذكرناها - :

١ - الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة .

٢ - إخراج أحد الضدين من الآخر .

٣ - الاستدلال بخلق الكبير على خلق الشيء الذي هو أصغر منه ؛ {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} .

خامسا : من الأدلة العقلية ما أشار إليه المؤلف هنا بقوله : {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًّا أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} ، فاحتج سبحانه على أنّه لا يتركه مُهملاً عن الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، وأنّ حكمته وقدرته تأبى ذلك أشدّ الإباء ؛ " لا يمكن أن يُترك الإنسان بلا حساب ولا عذاب ، ولا عقاب ولا جزاء على أفعاله ، هذه تتنافى تماما مع حكمة الله عز وجل ، تتنافى مع عدله سبحانه وتعالى ، " كما قال تعالى : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} ، إلى آخر السورة . فإنّ من نقله من نطفة إلى علقة - لاحظ مراحل عمر الإنسان - ، ثم مضغة ، ثم شق سمعه وبصره ، ورُكّب فيه الحواس والقوى ، والعظام والمنافع ، والأعصاب ، والرباطات (التي هي أشده) ، وأحكم خلقه غاية الأحكام ، وأخرجه على هذا الشكل والصورة ؛ التي هي أتم الصور ، وأحسن الأشكال ، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة أخرى ؟ " . لا يمكن أن يُتصورَ هذا عقلا ، الله عز وجل نقل خلقه خلال هذه الأطوار ، وخلال هذه المراحل ، أيعجز أن يعيد الخلق مرة أخرى ؟ لا يمكن ، يقول : " أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سُدى ؟ فلا يليق ذلك بحكمته ، ولا تعجز عنه قدرته ، فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز ، الذي لا يكون أوجز منه ، والبيان الجليل ؛ الذي لا يتوهم أوضح منه ، ومأخذه القريب ؛ الذي لا تقع الظنون على أقرب منه ، يقول : كم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج ، كما في قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} ، في آية الحج ، إلى أن قال : {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} ، وقوله تعالى : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} ، إلى قوله : {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} .

يقول المؤلف : " والقائلون بأنّ الأجسام مركبة من الجواهر المُفردة ، لهم في المعاد خبط واضطراب " ، القائلون بأنّ الأجسام مركبة من الجواهر المُفردة ؛ هؤلاء جمهور المتكلمين ، جمهور أهل الكلام ، ذهبوا إلى أنّ الإنسان جسمٌ مركّب من جواهر مُفردة ! والجوهر الفرد هو - كما عرّفه أهل الكلام - : الذي لا يقبل التجزؤ ، لا بالفعل ، ولا بالقوة ! يعني الأشياء عندهم تقبل الانقسام إمّا بنفسها ، أو بفعل فاعل إلى أن تنتهي إلى ذرّة ، وإلى جزء لا يقبل التجزؤ ، لا بالفعل ، ولا بالقوة ! المسألة

خلافية وليس هذا مجال الكلام فيها ، أصلاً وجود هذه الجواهر المفردة ، هل هي موجودة ، أو غير موجودة ؟ ليس هذا مجال الحديث عنها ، الشاهد : أهل الكلام يقولون : أنَّ أجسام بني آدم مركبة من هذه الجواهر المفردة ، يقول الشيخ : " لهم في المعاد خبط واضطراب . وهم فيه على قولين :

١ - منهم من يقول : تُعدم الجواهر ، ثمَّ تعاد " هذه الجواهر المفردة التي هي مركبة من الأجزاء ؛ أنَّها تُعدم بتاتا ، ثمَّ تُعاد مرة أخرى .

٢ - " ومنهم من يقول : تُفَرَّق الأجزاء ثمَّ تجتمع " .

الشيخ يقول : " أُورِدَ عليهم : الإنسان الذي يأكله حيوان ، وذلك الحيوان أكله إنسان ، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا ، لم تُعدَّ من هذا ؟ " ؛ يعني : اختلطت الأمور ، وتداخلت ! يقول المؤلف : " وأُورِدَ عليهم : أنَّ الإنسان يتحلل دائماً ، فماذا الذي يُعاد ؟ أهو الذي كان وقت الموت ؟ فإن قيل بذلك ، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة ! لأنَّه - غالباً - أنَّ الإنسان حال الموت يكون في حال ضعف ، وهو خلاف ما جاءت به النصوص " ؛ النصوص تذكر أنَّ الإنسان يقون بِخُلُقَةٍ متكاملة ، حتى جاء في الحديث : (أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ حِفَاةَ عِرَاقٍ غُرْلًا) ؛ غُرْلًا ؛ (غير مختونين) ! ويقول : " وإن كان غير ذلك ، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض " ؛ يعني كون بعضها يُعاد بهذا الشكل ، وبعضها بشكل آخر .

الحلقة (١٦)

◀ مسألة : كلام المتكلمين : ما لشيء الذي يعاد يوم القيامة ؟ (ما الجسم الذي يعاد يوم القيامة ؟)

ذكرنا أَنَّهُمْ يزعمون أنَّ الجسم مكوّن من جواهر مفردة ، وذكرنا أنَّ الجوهر الفرد هو ما لا يقبل التجزء ؛ لا بالفعل ولا بالقوة ، وليس هذا مجال الحديث عنه ، الشاهد : أوضح المؤلف أنَّ هذا الكلام فيه اضطراب ، وفيه اختلاف ، ولا يمكن أن ينضبط ! ما نوع هذه الجواهر ؟ حتى هم مختلفون ، هل هي تستحيل وتُعدم ، ثمَّ تُعاد مرّةً أخرى ؟ هل هي تعاد نفس الجواهر ؟ ما نوع الجسم الذي يُعاد ؟ أهو الجسم الذي عند الموت ، أم قبل ذلك ؟ ولهذا قال رحمه الله : " فادعى بعضهم أنَّ في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني " ؛ لأنَّه اعترض على أنَّ هذا الإنسان إذا قلتم أنَّه يعاد من هذه الجواهر ، فهذا الإنسان الذي أكله حيوان ، والحيوان أكله إنسان آخر ، فاختلط ! امتزج ! ما الشيء الذي يُعاد ؟ أي الأجساد التي تعاد ؟ يقول : " والعقلاء يعلمون أنَّ بدن الإنسان نفسه كلّه يتحلل ، ليس فيه شيء باق " ، يقول أنَّ العقلاء مجمعون على أنَّ هذا الجسد يتحلل ، ولا يبقى منه شيء " ، فصار ما ذكره في المعاد ، ممّا قوَّى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان " ، يقول : أنَّ هذا الكلام ، وهذا الاضطراب الذي حصل من المتكلمين ؛ هو الذي فتح المجال للفلاسفة ، فأنكروا معاد الأبدان ! والذي كفرهم أهل العلم بسببه ، وخالفوا ما أجمعت عليه الرسل والأنبياء . إذن ما الصواب ؟ ما القول الحق في المسألة ؟ يوضح هذا المؤلف ، يقول : " والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء : أنَّ الأجسام تنقلب من حال إلى حال ، فتستحيل تراباً " يعني تتحلل من شيء إلى شيء ؛ من مرحلة إلى مرحلة ، من طور إلى طور ، إلى أن تنتهي ، إلى أن تعود تراباً كما كانت في الأوّل ، الله عزَّ وجل خلق الإنسان من تراب (من طين) ؛ كما ثبت هذا بصريح القرآن والسنة ، ثمَّ يُنشئها الله نشأةً أخرى ، كما استحال في النشأة الأولى ؛ فإنَّه كان نطفة ، ثم صار علقة ، ثم صار مضغة ، ثم صار عظاماً ولحماً ، ثم أنشأه خلقاً سوياً ، كذلك الإعادة ؛ يُعيد الله بعد أن يبلى كلّه إلا عجب الذنب ! كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (يعني مستثنى من هذا الفناء ؛ عجب الذنب) ، يقول : " أَنَّهُ قال : كُلُّ ابن آدم يبلى ، إلا عجب الذنب ، منه خُلِقَ ابن آدم ، ومنه يُرْكَب) ، الحديث في الصحيحين ، يقول : " وفي حديث آخر (هذا في

الحديث الطويل الذي فيه أحداث يوم القيامة) ، جاء في الحديث : (إِنَّ الْأَرْضَ تُمَطَّرُ مَطَرًا كَمَيِّ الرِّجَالِ ، يَنْبَتُونَ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبَتُ النَّبَاتُ) . يقول : " إذا النشأة نوعان تحت جنس واحد ، يتفقان ويتمثلان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه ، والمعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم الإعادة ، ولوازم البداية فرق ! " ؛ يعني الإعادة ليست كالبداءة ، بل بينهما فروق ، يقول : " فعجب الذنب هو الذي يبقى ، وأمَّا سائرُه فيستحيل ، فيُعاد من المادة التي استحال إليها " ؛ المادة التي استحال إليها تراب ، فيعاد إلى التراب مرة أخرى ، ومعلوم أنَّ من رأى شخصاً وهو صغير ، ثم رآه وقد صار شيخاً ، عَلِمَ أَنَّ هذا هو ذاك " ، علماً أنَّه اختلف ، وتباينت به أطوار الحياة ، فالإنسان هذا الذي استحال ، ثُمَّ أعاده الله مَرَّةً أُخْرَى ؛ هو الإنسان الذي كان في الحياة ، كما أنَّ هذا الطفل الصغير الذي رأيته صغيراً في المهد ، بل جنيناً خرج من بطن أمِّه ، ثُمَّ رأيته شيخاً كبيراً ، أقول هذا الإنسان هو هذا الإنسان ! كذلك إذا أُعيد هذا الإنسان مَرَّةً أُخْرَى يوم القيامة ، هو هذا الإنسان الذي في الحياة الدنيا ؛ الذي عمل الخير والشر ، وسيجازى عليهما ، يقول : " وكذلك سائر الحيوان والنبات ، فمن رأى شجرة وهي صغيرة ، ثُمَّ رآها كبيرة ، قال : هذه تلك ، وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة ، حتى يقال إِنَّ الصفات هي المتغيرة ، لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها ، فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا عَلَى صُورَةِ آدَمَ " ؛ يعني على صورة غير الصورة التي في الحياة الدنيا ، ما هي صورة آدم ؟ قال : " طوله ستون ذراعاً ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، وروي : أَنَّ عَرَضَهُ سَبْعَةُ أَذْرَعٍ وَتِلْكَ نَشْأَةٌ بَاقِيَةٌ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِلْآفَاتِ ، وَهَذِهِ النَشْأَةُ فَانِيَةٌ مُعَرَّضَةٌ لِلْآفَاتِ " ؛ أي نشأة هذا الجسم الذي خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؛ الذي خلقه الله من نُطْفَةٍ ، ثُمَّ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مُضْغَةٍ ، ثُمَّ الْعِظَامِ ، ثُمَّ اللَّحْمِ ، هذه النشأة خلقت للفناء أو للبقاء ؟ بلا شك خلقت للفناء ، للموت ، لكن النشأة الثانية التي يدخلون بها الجنة ، ويدخلون بها النَّارَ ؛ خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ ، فتختلف هذه النشأة عن هذه النشأة ، لكن لا يعني أَنَّ هذا الإنسان مختلف تماماً عن الإنسان الذي في الدنيا ، لا ، هو نفسه الإنسان .

يقول : " وقوله : وجزاء الأعمال (أي قول المؤلف الطحاوي) ، قال تعالى : { مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ } ، وقال { يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } ، والدين : الجزاء ، يقال : كما تدين تُدان ؛ أي كما تُجَازَى تُجَازَى ، وقال تعالى : { جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . إذن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أَنَّ الإنسان يوم القيامة يُجَازَى بعمله ؛ إن خيراً فخييراً ، { جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، { جَزَاءُ وَفَاقًا } ، { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ، وقوله سبحانه : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، وقوله تعالى : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، وقال صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى - كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه - : يا عبادي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه) " ، الشاهد أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُجَازِي الإنسان بعمله ، وسيُفَصَّلُ المؤلف الكلام على هذا لاحقاً .

◀ مسألة : العرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب :

يقول المؤلف : " وقوله : والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب " ؛ أي هذه الأمور ممَّا يجري يوم القيامة ؛ العرض ، والحساب ، وقراءة الكتاب ؛ كتاب الإنسان الذي كُتِبَ فيه أعماله ، والثواب والعقاب . بدأ يذكر شيئاً من الأدلة على هذه الأمور التي هي من لوازم الإيمان باليوم الآخر ؛ الإيمان بها :

أولاً : الأدلة من القرآن الكريم

قال : " قال تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ } ، هذا الدليل على العرض ؛ أَنَّ التَّاسِ يعرضون يوم القيامة ، فقلوه : { يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ } ؛ يعني لا يمكن للإنسان أن يفرّ ، لا يمكن للإنسان أن يتستر من هذا العرض ؛ معروض أمام الله عزّ وجل ، وأمام ملائكته ، وأمام خلقه ، ثمّ ذكر الدليل الآخر : { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَاَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا } . " يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا " ؛ أي معروض على الله عزّ وجل ، وقوله تعالى : { وَاعْرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } . فهذه الأدلة ؛ دالة على إثبات العرض على الله عزّ وجل ، وقال تعالى : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } . بمعنى أَنَّ كل إنسان سيعرض عليه كتابه ، وقال تعالى : { وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمَتَاهُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } . ولهذا قال : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } . ووجدوا ما عملوا في الدنيا حاضرا في هذا الكتاب ، وقال تعالى : { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } . الزلزلة ، وذكر أيضاً قوله : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } ، ابراهيم ؛ أي برزوا جميعا . وقوله تعالى : { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ...إِلَى قَوْلِهِ ... إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } . غافر ، إثبات الحساب ، وقوله تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ..

◀ الأدلة من السنة :

ثمّ قال المؤلف : " وروى البخاري في صحيحة ، عن عائشة رضي الله عنها ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك) ؛ أي ليس أحد سيجرى عليه الحساب إلا هلك .

مسألة : استشكلت عائشة رضي الله عنها آية ، تبادر إلى ذهنها أَنَّها تتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ! (فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : { فَاَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } ، كيف يكون أَنَّ من يحاسب سيهلك ؟ والله أخبر أَنَّ المؤمن سيُؤْتَى كتابه بيمينه ، ونتيجة ذلك ؛ سيُحاسب حساباً يسيراً ؟ فماذا أجابها المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْض " ، (أي هذا ليس حساب ، إِنَّمَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُ ؛ يُعْرَفُ عَلَيْهَا فَقَطْ) ، " وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُدْبٌ " ؛ يعني أَنَّهُ لو ناقش في حسابه لعبيده ؛ لعدَّبهم - وهو غير ظالم لهم - ولكنَّه تعالى يعفو ويصفح " ، ليس هنا حساب ، وإِنَّمَا هو عرض ، لكن لا يُحاسب المُحاسبة ؛ أي هذا مقابل هذا ! لعدَّب جميع عباده ! وهو غير ظالم لهم سبحانه ، لكن من باب عطفه ، ومن باب رحمته ، ومن باب كرمه ، وجوده أَنَّهُ يعفو ويصفح ، ويعرض عليهم أَعْمَالَهُمْ ، ولا يُحاسبهم عليها .

◀ مسألة : الصعق :

ثم قال : " وفي الصحيح عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، أَنَّهُ قال : (إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ) ، وهذه مسألة ذكرها المؤلف اعتراضية ، يقول : " إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ ، فأكون أوَّل من يُفَيِّق ، فإذا موسى أخذ بقائمة العرش ، فلا أدري ! أفاق قبلي ، أم جُوزِي بصعقة يومَ الطور ؟) ، وهذا صعق في موقف القيامة ؛ إذا جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ يُصْعَق الخلائق كلهم .

مسألة : فإن قيل : كيف تصنعون بقوله في الحديث : (إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ ، فأكون أوَّل من تنشق عنه الأرض ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ؟) ؛ يعني الآن المؤلف يقول أن حديث : (أَنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ) ، هذا إذا جاء الله عزَّ وجل لفصل القضاء ، واجتمع النَّاس لفصل القضاء ، فإنَّهم يُصْعَقُونَ ، في الحديث الآخر : (إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ ، فأكون أوَّل من تنشق عنه الأرض ؛ (يعني الصعقة الأولى ، كأنَّ فيه تعارض) ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش) ، المؤلف يقول : لا ، ليس فيه تعارض ! يقول : " قيل : لا ريب أنَّ هذا اللفظ قد ورد هكذا ، (الذي هو اللفظ الثاني) ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنَّه دخل منه على الراوي حديثاً في حديث ! " ، اذن فيه تداخل حديث ؛ أدخله الراوي ، اختلط عليه ، إنَّما الثابت ؛ الحديث الذي قبله : أَنَّ الصعق في موقف القيامة ، فيكون النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أوَّل من يُفَيِّق ، فإذا موسى أخذ بقائمة العرش ، وسيتبين السبب في ذلك ! يقول : " فرُكِبَ بين اللفظين ، فجاء هذان الحديثان هكذا ؛ أحدهما : (أَنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ ، فأكون أوَّل من يفيق) - كما تقدم - والثاني : (أنا أوَّل من تنشق عنه الأرض يومَ القيامةِ) ، فدخَّل الراوي هذا الحديث في الآخر ؛ فأدخل الراوي هذا الحديث على هذا الحديث ، فحصل هذا الإشكال ، يقول : " ... هذا الحديث في الآخر ، وممَّن نبه على هذا ؛ أبو الحجاج المزي رحمه الله " ؛ (الإمام المعروف ؛ صاحب تهذيب الكمال ، الإمام المحدث) ، " وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم ، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير " ؛ (صاحب التفسير ، وصاحب البداية والنهاية) ، والجميع من أهل الحديث ، يقول : " وكذلك اشتبه على بعض الرواة ، فقال : (فلا أدري أفاق قبلي ، أم كان ممَّن استثنى الله عزَّ وجل ؟) ، والمحفوظ : أن الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأوَّل ، وعليه المعنى الصحيح ، فإنَّ الصعق يومَ القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء " .

مسألة : أنَّ هذا الصعق يحصل متى ؟ الصعق الذي فيه يفيق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيرى موسى باطشاً في قائمة من قوائم العرش ؛ ممسكاً بقائمة من قوائم العرش ،، هذا في عرصات القيامة ، يقول : " إذا جاء لفصل القضاء ، فموسى عليه السلام إن كان لم يُصْعَق معهم ، فيكون قد جُوزِي بصعقة يوم تجلَّى ربه للجبل ، فجعله دكاً " ؛ يعني موسى سلم من هذا الصعق ؛ لأنَّه جُوزِي قبل أصلاً ؛ صُعِقَ لَمَّا تجلَّى ربه للجبل ، فإذا تجلَّى للخلائق جميعاً ، سلم من الصعق مرة أخرى ، ولهذا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم رأى موسى لم يُصْعَق ، ليس معناه أَنَّهُ صعق ، ثمَّ أفاق قبل النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، يقول : " فجُعِلَت صعقة هذا التجلِّي عوضاً " ؛ التجلِّي يومَ الطور ، يوم يسأل الله عزَّ وجل أن يُريه نفسه جهرة : { قَالَ رَبِّ ارْني أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ } . الأعراف ، يقول : " فجُعِلَت صعقة هذا التجلِّي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلِّي ربه يومَ القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تُهمله " .

◀ تابع لدليل مسألة : العرض والحساب ...

يقول المؤلف : " وروى الإمام أحمد ، و الترمذي ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، عن الحسن ، قال : سمعت أبا موسى الأشعري ، يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يُعرض النَّاس يومَ القيامة ؛ ثلاث عَرَصات ، فعرضتان جدال ومَعَاذِير ،

وعرضة تطاير الصحف ، فمن أوتي كتابه بيمينه ، وحوسب حساباً يسيراً ، دخل الجنة ، ومن أوتي كتابه بشماله ، دخل النار . ثم ذكر شعراً عن ابن أبي الدنيا في هذا المعنى .

◀ مسألة : الصراط

من لوازم الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالصراط .
والصراط هو : الجسر الممدود على متن جهنم - أعادنا الله منها - جاءت الإشارة إليه في القرآن تلميحاً لا تصريحاً ! في قوله سبحانه : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا } . مريم ، وإنما جاء ذكر الصراط صريحاً في نصوص السنة ، بل ممّا تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوته ، وجاء في صفاته بعض التّصوص ؛ منها الصحيح ، ومنها الضعيف ، ومنها الموقوف ، فممّا صحّ عنه عليه الصلاة والسلام : (أنّه جسر على متن جهنم) ، وممّا صحّ عنه أيضاً في صفة هذا الصراط ، أنّه : (دحّض ، مَزَلَّة) ، وممّا صحّ عنه عليه الصلاة والسلام : (أنّ عليه كلاليب) ، وممّا أيضاً ثبت في صفاته ؛ أنّ النَّاس يُجَاوِزُونَهُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ ، لكن ورد موقوفاً عن بعض الصحابة ، وبعض السلف أنّ من صفاته : (أنّه أحدٌ من السيف ، وأدقُّ من الشعر ، وأحرُّ من الجمر) ، إلى غير ذلك من الصفات التي مبناها على التوقيف ، فإن ثبتت في صحيح السنة قلنا بها ، وإن لم تثبت توقفنا في ذلك .

◀ مسألة : بدعة المعتزلة في الصراط

أنكر الصراط بعض المعتزلة ، و " أولوا " الأحاديث التي جاءت في الصراط ؛ أولوها بأنّ المراد منها هي : الطريق الصحيح ! وليس على ما ورد من تفاصيل في السنة . السبب في هذا التأويل : تمشياً مع قاعدتهم العامة ؛ أنّهم يعرضون التّصوص من الوحيين على عقولهم !! فما قبلته عقولهم ؛ قالوا به ، وما التبس على عقولهم ؛ أولوه ، أو أنكروه ! فقالوا : أنّ العقل يستحيل أنّ الإنسان يمشي على الصراط بهذا الشكل إلى غيره ! ولكن من عليم أنّ الله على كل شيء قدير ، وأنّ الله خلقهم من لا شيء ، وخلقهم وفق الأطوار التي ذكرت ؛ فهو قادر على أن يجعل الإنسان يسير على هذا الصراط بهذه الصفة . إنّ أمور الآخرة ، وأمور الغيب - كما قلنا مراراً - مبناها على التسليم ، لا على التفكير ! وأن نزن هذه الأمور بعقولنا ، فقد لا تُدرك العقول حقيقة هذه الأمور .

الحلقة (١٧)

كان الكلام في الحلقة السابقة حول مسألة الصراط ، وأنّ الإيمان بالصراط من لوازم الإيمان باليوم الآخر ، وقد جاء تفصيل هذا الجسر الذي هو الصراط في صحيح السنة ، بل ممّا تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، خلافاً للمعتزلة ومن نحواهم ممّن أنكروا الصراط بهذه الصفة ، وأولوا النصوص الواردة فيه ، وأعطينا لمحة عامة حول مسألة الصراط ، ونعود مرة أخرى إلى كلام المؤلف حول هذه المسألة ؛ يقول : " وقوله - أي قول الطحاوي - ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم " ، هذا تعريفه ؛ يعني لو قيل لك عرف الصراط تقول : الصراط الجسر الممدود على متن جهنم الذي وردت صفاته في نصوص السنة ، يقول : " إذا انتهى النَّاس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط " ؛ بمعنى أنّ النَّاس إذا انتقلوا من موقف الحساب ، من عرصات القيامة ، انتقلوا إلى ظلمة دون الجسر ، دون الصراط ، ولهذا هناك قول : أنّ الذي يُعرض على الصراط فقط هم المؤمنون ، ومن تشبث بهم من المنافقين في الدنيا ! المنافقون عاشوا مندسين بين أظهر المؤمنين في الدنيا ، ويوم القيامة يتبعون المؤمنين إلى الجسر ، أمّا الكفار ، وأهل النار ، فيصرفون مباشرة إلى النار . المؤمنون والمنافقون يُعرضون على الجسر الذي هو الصراط ، لكن يجاوزه المؤمنون ، أمّا المنافقون ؛ فيتوقفون عند هذا الحد ، على ما سيأتي ، يقول

: " إذا انتهى النَّاس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط - كما قالت عائشة رضي الله عنها - : (أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أين النَّاس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : هم في الظلمة دون الجسر) ، وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، في هذا المكان ، المنافقون مع المؤمنين في جميع المراحل ، وفي هذا الموضع يحصل الافتراق والتباين ، يقول : " ويتخلَّفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويُحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم " ، في هذا أشار الله عزَّ وجل في سورة الحديد : { فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى } ، " روى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال : (يجمع الله النَّاس يوم القيامة ... إلى أن قال : فيُعْطون نورهم على قدر أعمالهم ؛ (هذا عند الجسر ، عند الصراط) ، فمنهم من يُعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يُعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يُعطى نوره مثل التَّخلة يمينه ، ومنهم من يُعطى دون ذلك يمينه ، حتى يكون آخر ذلك من يُعطى نوره على إبهام قدمه) " ؛ يعني نور ضعيف جدا ؛ يُضئ مرة ، ويطفى مرة ، إذا أضاء قدم قدمه ، وإذا طُفئ قال : " فيمُرُّون على الصراط ؛ والصراط كحدِّ السيف ؛ دحضُ مزله " ؛ يعني مكان لا تستقيم فيه الأقدام . الدحض المزله : الطين إذا خالطه الماء ، تصبح الأقدام ما تستقر فيه ، " (فيقال لهم : أمضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمرُّ كانقضاء الكوكب ؛ (يعني بسرعة كلمح البصر) ، ومنهم من يمرُّ كالريح ، ومنهم من يمرُّ كالطرف ، ومن منهم من يمرُّ كشدِّ الرحل ، ويرمل رملا ، فيمُرُّون على قدر أعمالهم ؛ حتى يمرُّ الذي نوره على قدر إبهام قدمه ؛ تجرُّ يدٌ ، وتعلّق يدٌ ، وتجرُّ رجلٌ ، وتعلّق رجلٌ ، وتُصيب جوانبه النَّار ، قال : فيخلصون ، فإذا خلصوا ، قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد) " ؛ لأنَّهم إذا جاوزوا الصراط ، فهذه آخر مرحله من مراحل الشدة التي يمرُّ بها المؤمن في القيامة . عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم : (أيعرف بعضنا بعضا يوم القيامة ؟) (يعني ؛ يعرف الوالد ولده ، يعرف الولد أمه وأباه ، يعرف القريب قريبه يوم القيامة) ، قال : أمّا في ثلاثة مواضع فلا) ؛ لأنَّها من أشدَّ المواضع ، وفيها التمحيص ، وفيها الافتراق .

◀ مسألة : ما هي هذه المواضع ؟

الموضع الأول : إذا تطايرت الصحف ، فلا يدري يأخذ كتابه يمينه ، أم بشماله . في هذا الموقف لا يعرف احد أحداً ، تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت ، ويتخلّى الوالد عن ولده ، والولد يتخلّى عن والده .

الموضع الثاني : إذا نُصب الميزان ، فلا يدري ، أيثقل ميزانه ، أم يطيش ؟

الموضع الثالث : إذا نُصب الصراط على متن جهنم . هذا هو الشاهد ؛ إذا وضع الصراط على متن جهنم ، فلا يدري ، يُجاوزه ، أم تخطفه الكلاب .

أيضاً جاء في بعض الأحاديث والآثار ؛ أنَّ الأنبياء على جنبات الصراط ، ودعواهم : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ؛ لأنَّه موقف عظيم ورهيب ، يقول المؤلف : " واختلف المفسرون في مُراد الورد المذكور في قوله تعالى : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } " ، وهذه هي الآية - التي ذكرت لكم - أنَّها دليل بالتلميح ، لا بالتصريح على إثبات الصراط ، يقول : " اختلف المفسرون في هذه الآية .

◀ مسألة : ما المقصود بـ " الورد " ما هو ؟

والأظهر والأقوى ؛ أنَّه المرور على الصراط ، قال تعالى : { ثُمَّ نُتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } ؛ بمعنى أنَّ الظالمين ستخطفهم الكلاب ، ويهوى بهم في النَّار - نسال الله السلامة - أمّا المؤمنون ، فيُنجيهم الله عزَّ وجل ، يقول : " في الصحيح أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (والذي نفسي بيده ، لا يلج النَّار أحدٌ بايع تحت الشجرة - معلوم أنَّ

أصحابه يوم الحديبية بايعوه تحت الشجرة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم بشرهم ، وضمن لهم الآن الجنة بهذا الحديث ، فقال : لا يلج النار (لا يدخل النار شخص بايع تحت الشجرة) : قالت حفصة يا رسول الله : أليس الله يقول : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } ؛ يعني ما فيه استثناء ! هؤلاء الذين بايعوا تحت الشجرة سيردون النار ! وأنت تقول : لا يمكن أن يلج النار أحد بايع تحت الشجرة ! يقول : " فقال : ردَّ النبي صلى الله عليه وسلم : ألم تسمعيه قال : { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } ، أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنَّ ورود النار لا يستلزم دخولها ! ؛ يعني لا يلزم من الورود ؛ لأنَّ الله قال : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } ، ما قال وإن منكم إلا داخلها ! لو قال : وإن منكم إلا داخلها ؛ صار فيه تعارض بين هذه الآية وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لن يلج أحد بايع تحت الشجرة) ، لكن الله عزَّ وجل قال : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } . يقول : " وَإِنَّ النَّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ لَا يَسْتَلْزِمُ حَصُولَهُ ، بل يستلزم انعقاد سببه " ؛ هذا مثال يبيِّن أنَّه لا يلزم من الورود الدخول والولوج ، يقول : " فمن طلبه عدو ليهلكوه ، ولم يتمكنوا منه ، يقال : نَجَّاهُ الله منهم " ؛ أي أنَّه ما أدركه العدو ، ولم يُمسِك به العدو ، ولم ينل منه العدو ، ومع ذلك يقال نَجَّاهُ الله منه ، يقول : " ولهذا قال تعالى : { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ خَيْرُ الْهَادِينَ } ، وقال : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ خَيْرُ الْهَادِينَ } ، وقال : { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ خَيْرُ الْهَادِينَ } ، ولم يكن العذاب أصابهم " ؛ الله عزَّ وجل بيَّن أنَّه نجاهم من العذاب ، هل معنى هذا أنَّهم علَّقهم شيء من العذاب ؟ لا ، يقول : " ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصَّهم الله به من أسباب النجاة ، لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الواردين النار ؛ يمرُّون فوقها ، على الصراط ، ثمَّ يُنَجِّي الله الذين اتَّقَوْا ، ويذر الظالمين فيها جثيا ، فقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور ؛ أنَّ الورود على النار في قوله تعالى : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } . هو المرور على الصراط " ، وليس معنى هذا أنَّهم يدخلون النار .

يقول " وروى الحافظ أبو نصر الوائلي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (علَّم النَّاسَ سنِّي ، وإن كرهوا ذلك وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة ، فلا تُحْدِثَنَّ فِي دِينِ اللَّهِ حَدَثًا بِرَأْيِكَ) ، أورده الدارقطني " ، الحديث فيه مقال ، يقول : " وروى أبو بكر أحمد بن سليمان التَّجَاد ؛ عن يعلى بن منبّه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزْيا مؤمن (بمعنى تجاوز بسرعة) ، فقد أطفأ نورك لهي) " ، وهذه كرامه من الله عزَّ وجل للمؤمن ، إن صحَّ الحديث ؛ أنَّ الله عزَّ وجل يجعل مع المؤمن هذا النور ، يُكافح لهب النار ، ولهذا ما يعلق المؤمن شيئا من لهب النار ، جُزْيا مؤمن ، أسرع يا مؤمن ، تجاوز يا مؤمن ، فقد أطفأ نورك لهي . انتهى كلام المؤلف إلى هنا عن مسألة الصراط ، وانتقل إلى مسألة أخرى أيضاً متعلقة بالأصل الخامس وهو الإيمان باليوم الآخر .

::الميزان::

من لوازم الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالموازين ، وقبل أن نرجع إلى كلام المؤلف حول الميزان ، نأخذ بعض العناصر التي ممكن أن تُنظم مسائل الميزان عندنا ؛ لأنَّ المؤلف ربَّما يكون عنده تقديم وتأخير .

«المسألة الأولى : متى يكون الميزان ، بالنسبة لأحداث يوم القيامة ؟»

الصحيح أنَّه لم يرد حديث صحيح يُعتمد عليه في ترتيب أحداث يوم القيامة ، وإنَّما هي مفاهيم عامَّة ، فُهم منها بعض أهل العلم في تقديم هذا ، أو تأخير هذا ، ولهذا القرطبي ذهب - كما سيذكر المؤلف - أنَّه إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ، يقول : لأنَّ الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ؛ يعني استنباط وليس فيه نص ، فالخلاف في هذه المسألة خلاف يسير ، سواء قبل الحساب ، أو بعد الحساب ، أو هذا بعد هذا ، أو ذاك بعده ، الشاهد : يلزم أن نؤمن بوجود

هذه الأشياء ، وأنها كائنه يوم القيامة ، هذا هو الأصل ، أمّا قضية الترتيب ، فهذا لم يرد فيه نص ، وإذا ورد فيه نص ، سلّمنا له ؛ كحال القاعدة العامّة .

«المسألة الثانية : ما هو هذا الميزان ، وما المراد به ؟

الميزان هو ميزان حقيقي ، كما ذهب إلى ذلك أهل السنّة ، هو ميزان حقيقي لا يُقدّر قدره إلا الله ، له كفتان ، يُعرض النَّاس عليه ، فيوزنون - على ما سيأتي - . وقد تواتر ، أو ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : شيء من صفات هذا الميزان ، وسيأتي أنّ بعض أهل البدع ؛ ومنهم المعتزلة ، أنكروا الميزان ، بهذه الصفة ، وخالفوا التّصوص الصريحة في ذلك .

«المسألة الثالثة : هل الميزان ميزان واحد ، أم موازين متعددة ؟

لو لاحظنا التّصوص لوجدناها أحياناً تأتي بصيغة الجمع ؛ قال تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا } ، وقال : { وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ } ، وقال : { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } ، وجاء ذكر الميزان مفرداً كما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيحين وغيرهما - : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) ، وفي الحديث الآخر : (والحمد لله تملأ الميزان) ، وفي الحديث الثالث : (ويأتي بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين كفتي الميزان) ، وفي الحديث أيضاً : (وإن ثقل ميزانه ... وإن خف ميزانه) ، إذاً هل الموازين متعددة ، أم ميزان واحد ؟ الذي عليه جمهور أهل السنّة أن الميزان هو ميزان واحد .

«مسألة : ما الجواب عن هذه التّصوص التي جاءت بصيغ الجمع ؟ الجمع بحسب ما يوزن فيها من الأعمال .

«المسألة الرابعة : ما الذي يوزن يوم القيامة ؟ ما الشيء الذي يوزن في هذا الميزان ؟ أهو العمل ، أم هو العامل ، أم الصحف ؟ الصحيح : هذه الأشياء جميعاً توزن في الميزان ، وكلّ ثبت في السنّة :

أ - وزن " الأعمال " : ثبت في أحاديث كثيرة منها : قول النَّبي صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيح البخاري - : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) ، إذاً الموزون هذا العمل ، أيضاً قول النبي : (الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان) .

ب - يوزن " العامل " : ثبت بصحيح ، وصرح السنّة أن العامل نفسه يوزن ، من ذلك ما ثبت في صحيح البخاري : (إنّه ليؤتى بالرجل السمين العظيم يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضه) ، ثم قال : اقرؤوا إن شئتم : { فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } ، الحديث الآخر : (يؤتى بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين كفتي الميزان ... إلى أن قال : فإن خف ميزانه أو ثقل) ، كذلك حديث بن مسعود ؛ لما تسلق شجرة ، وتكفأت الريح قميصه ، وبدت ساقاه ؛ ضحك الصحابة - وكانوا تحته - فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : (ممّا تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقيه ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : لهما في الميزان ؛ أثقل من جبل أحد) ، هذا دليل صريح على أنّ العامل يوزن بنفسه .

ج - ممّا يوزن " الصحف " : الدليل على ذلك حديث البطاقة الطويل - وسيأتي ذكره إن شاء الله عند استعراض كلام المؤلف - ؛ عندما يُمدد للإنسان تسع وتسعين سجلاً ، مدّ البصر ... في آخر الحديث : ستخرج له بطاقة فيها ؛ لا اله إلا الله ، فتوضع في كفه ، وتوضع السجلات في كفه ، فتثقل البطاقة بالسجلات .

الشاهد : الصحيح أنّ هذه الأشياء الثلاثة توزن يوم القيامة ، والجميع ثبت في صحيح السنّة .

«المسألة الخامسة : لماذا الميزان يوم القيامة ؟

هذا ممّا اعترض به أهل الضلال من المعتزلة ، قالوا : الميزان لا يحتاج له إلا البقال ! فيُرد عليهم ، ويُقال لهم : وجود الميزان ،

وخفة الميزان ، وثقل الميزان ؛ لو لم يكن فيه إلّا إظهار عدل الله عزّ وجل للخلائق ، وإلّا فالله عزّ وجل أصلاً قادر من الأصل ، ما فيه حساب ، وما فيه الصحف ، وما فيه صراط ، يقول : هؤلاء عملوا بعمل أهل الجنة إلى الجنة ، وهؤلاء عملوا بعمل أهل النار إلى النار ، لكنّ الله عزّ وجل يُحب أن يُظهر عدله للنّاس .

الحلقة (١٨)

مراجعة لما سبق : لا زال الحديث فيما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر ، ومع كلام المؤلف حول تفاصيل هذا اليوم ، وقد تقدم الكلام على الصراط وما فيه من الصفات الثابتة في سنّة النّبي صلى الله عليه وسلّم ، ثمّ انتقل المؤلف للكلام على الميزان ، وألحنا الماحة عامة لما يتضمنه الإيمان بالميزان ، ولعلنا في هذه الحلقة نستعرض كلام المؤلف حول هذه المسألة التي هي الميزان ، ولعلي أذكركم بما بدأناه في الحلقة السابقة : أنّ الميزان ميزان حقيقي - هذه عقيدة أهل السنّة والجماعة - له كفتان ، لا كما يزعم أهل الباطل من أهل البدع ؛ أنّ المراد بالميزان في التّصوُّص هو العدل ! نقول : هذا فيه تأويل للنّص على خلاف ظاهره ، ممّا لم يقيم عليه دليل لا من الكتاب ، ولا من السنّة ، ولا من لغة العرب ، ولا من العقل .

المؤلف يقول : " وقوله (أي قول الطحاوي) ، والميزان ؛ أي ونؤمن بالميزان " ، بمعنى أنّ من لوازم الإيمان باليوم الآخر ، فلا يكون الشخص مؤمناً باليوم الآخر ، إلا بعد أن يؤمن بالميزان حقيقة ، وعلى وفق ما وردت به التّصوُّص الشرعيّة .

«الأدلة على إثبات الميزان يوم القيامة :

قال تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } ، وقال تعالى : { فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } . يقول : " قال القرطبي : قال العلماء إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ؛ لأنّ الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإنّ المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها " ، هذا اجتهاد من الإمام القرطبي ، وأشرنا أنّه ليس لدينا نصّ صريح يدلّ على ترتيب هذه الأشياء ؛ هل الحساب قبل ، أم الميزان قبل ، فالقرطبي استنتجه استنتاجاً ، ولهذا الأولى في هذا التوقف ! ولا يثرب على من قدّم هذا ، أو هذا ؛ لأنّه المبني على فهم النّص لا أقل ، ولا أكثر ، وإنّما الواجب : أنّ نؤمن بالميزان على ما وصف الله ، ووصف رسوله ؛ هذا هو القدر الواجب ، أمّا قضية ؛ أنّ هذا قبل هذا ، أو ذلك قبل هذا ، فليس يترتب عليه أمر خطير .

يقول : " قال ، وقوله : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } ، يُحتمل :

١ - أن يكون ثمّ موازين متعددة ؛ توزن فيها الأعمال .

٢ - ويُحتمل أن يكون المراد الموزونات ، فجميع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، والله اعلم " .

وكما ذكرت لكم أنّ التّصوُّص جاءت - أحياناً - بصيغة لفظ الجمع ؛ الموازين - كما التّصوُّص التي معنا - وفيه نصوص جاءت بلفظ الميزان ، كما ثبت عن النّبي صلى الله عليه وسلم : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان) ، فالمسألة مُحتملة ؛ هل هي موازين ، أو ميزان ؟ لكن جمهور أهل السنّة قالوا : أنّه ميزان واحد . أما الجمع الذي جاء في التّصوُّص ، فالجمع - كما ذكر المؤلف - باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، وكثرة الأعمال الموزونة ، فترتب عليه في الصياغة وفي اللفظ ؛ جمع الميزان ، يقول : " والذي دلت عليه السنّة أنّ ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان " ؛ هذه عقيدة أهل السنّة والجماعة في ضابط الميزان أنّه : ميزان حسّي ، حقيقي ، ليس معناه العدل ، له كفتان حقيقيتان ، كفة تُثقل ، وكفة تطيش . يقول : " روى الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحُبلي ، قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي

الله عنه يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : - وهذا حديث البطاقة المشهور ، وسنستدل به على مجموعة من المسائل - (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ سَجَلًا ؛ كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْءٌ ؟) (ثُمَّ لَهُ أَعْمَالُهُ فِي سَجَلَاتٍ فِي تِسْعَةٍ وَتَسْعِينَ سَجَلٍ ، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ ؛ يَعْنِي طُولَ هَذَا السَّجَلِ ؛ كُلُّهَا مَلِئَةٌ بِالسَّيِّئَاتِ ! فَيَقَالُ لَهُ : أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْءٍ ؟ أَظْلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ، (الذي كتب هذه السجلات هم الكتبة الحافظون ، الذين سبقت الإشارة إليهم) ، قال : لا ؛ (ما يستطيع ينكر ؛ لَأَنَّهُ لَوْ أَنْكَرَ لَشَهِدَتْ عَلَيْهِ جَوَارِحُهُ ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . وقوله تعالى : { وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْظَفْنَاهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ، فقال : لا يارب ! فيقول : ألك عذر ، أو حسنة ؟ فيبتهت الرجل ، فيقول : لا يارب ! فيقول : بلى ! إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً ، لَا ظَلَمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ! (هل لك حسنة ، تلفت ، قال : ما عندي حسنة ، إِمَّا نَسِيَهَا ، وَإِمَّا تَجَاهَلُهَا ، يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ) فَتُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ ، فِيهَا : أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فيقول : احضروه ! فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ (بطاقة فيها ؛ لا اله إلا الله ، كيف حجمها ، ومقدارها مع هذه السجلات التسعة والتسعين) ، فيقول : إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قال : فتوضع السجلات في كَفَّةٍ ، والبطاقة في كَفَّةٍ ، قال : فطاشت السجلات ، فثقلت البطاقة ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسَمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ! " ، يقول : " هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَابْنُ مَاجَةَ ، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ ، وَزَادَ التِّرْمِذِيُّ : (وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ) ، وفي سياق آخر : (توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل ، فيُضَعُ فِي كَفَّةٍ ... الحديث) " ، ويقول : " في هذا السياق فائدة جلييلة وهي : أَنَّ الْعَامِلَ يوزن مع عمله ! " ، وهذا ذكرنا الخلاف فيه .

◀ مسألة : هل العمل هو الذي يوزن أم الصحائف أم العامل ؟

الصحيح : أَنَّ الْجَمِيعَ يوزن ؛ لما ثبت في الأحاديث السابقة :

١ - أدلة وزن العامل : يقول : " ويشهد له ما روى البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (إِنَّهُ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السَّمِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ) ، وقال : أقرؤوا إن شئتم : { فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا } " ، هذا الحديث يدلُّ على أَنَّ الْعَامِلَ يوزن ؛ أَنَّ الشَّخْصَ نَفْسَهُ يوزن ، يقول : " وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، أَنَّهُ كَانَ يَجْنِي سَوَاكٍ مِنَ الْأَرَاكِ ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقِينَ ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُوهُ ، فَضَحَكَ الْقَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مِمَّا تَضْحَكُونَ ؟) قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دَقَّةِ سَاقِيهِ ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ) " ، وهذا أيضاً دليل صريح في أَنَّ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ يوزن يوم القيامة .

٢ - أدلة وزن الأعمال : وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال أنفسها ، كما في صحيح مسلم " ؛ بمعنى أَنَّ الْعَمَلَ ؛ أي العرض نفسه ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ : كَيْفَ الْأَعْمَالُ توزن ، وهي أعراض ؟ الله عزَّ وجلَّ قادرٌ أَنْ يَحُولَ هَذِهِ الْأَعْرَاضَ إِلَى أَجْسَامٍ توزن ، وهذا ممَّا حَمَلَ الْمُعْتَزِلَةَ عَلَى إنْكَارِ الْمِيزَانِ ! عرضوا مثل هذه الأمور على عقولهم ؛ قالوا مثلاً : سبحان الله ، عرض ، وكيف يوزن العرض ؟ نقول : هذا إذا قسّموه بعقولكم ! لكن أليس الذي أقدر الإنسان أَنْ ينطق بهذا العرض بقادر أَنْ يَحُولَ هَذَا الْعَرْضَ إِلَى شَيْءٍ يوزن حسّاً ؟ يقول : " وقد ورد في الأحاديث بوزن الأعمال أنفسها ، كما في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ... الحديث) ، وفي الصحيحين - وهو خاتمة كتاب البخاري - قوله صلى الله عليه وسلم : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) " ، فهذه الأدلة كلّها تدلُّ على أَنَّ

الأعمال توزن يوم القيامة ، يقول : " وروى الحافظ أبو بكر البيهقي ، عن أنس ابن مالك رضي الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كَفَّتَيِ الْمِيزَانِ ، وَيُؤَكَّلُ بِهِ مَلِكٌ ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ ، نَادَى الْمَلِكُ بِصَوْتِ يُسْمِعِ الْخَلَائِقَ : سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ ؛ نَادَى الْمَلِكُ بِصَوْتِ يُسْمِعِ الْخَلَائِقَ : شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا) " ، الحديث في سنده مقال . يقول : " فلا يُلتفت إلى ملحد معاند ، يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن " ، ؛ يعني الذين أنكروا الميزان ، من الشُّبُه التي تمسكوا بها ؛ أَنَّ هذه الأعمال ، (أعمال ابن آدم) ، أعراض ، ليست أجساد ، وهو يقول : أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يوزن إِلَّا الشيء الجسم ، كيف يوزن العرض ؟ الشيخ يقول : لَا يُلتفت إلى هذا المعاند المعتزلي ، وغير المعتزلي ؛ الذي أنكر الميزان بناء على هذه الشُّبُه العقلية ، وإنَّما يقبل الوزن الأجسام ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْلِبُ الْأَعْرَاضَ أَجْسَامًا ! هل هذا يُعْجز الله عَزَّ وَجَلَّ ؟ هل هذا يستعصي على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ ؟ لَا يقول هذا مسلم ، فالله قادر على أن يحوِّل ، ويُصَيِّرَ هذه الأعراض إلى أجسام ؛ وتوزن هذه الأجسام - كما تقدم - ، يقول : " وكما روى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرُ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ! فَيَشْرَبُونَ ، وَيَنْظُرُونَ ، وَيَقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ ! فَيَشْرَبُونَ ، وَيَنْظُرُونَ ، وَيُرَوْنَ أَنَّ قَدْ جَاءَ الْفَرْجُ ! فَيُذْبِحُ ، وَيُقَالُ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ) " رواه البخاري بمعناه ، الشاهد من إيراد الحديث ؛ (لماذا أورده المؤلف هنا) ، أَنَّ الموت عرض ، الموت ليس جسم ، ومع ذلك يأتي به الله عَزَّ وَجَلَّ على صورة جسم ، فَيُذْبِحُ وينتهي الموت ، كذلك الأعمال ؛ يجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ - هذه الأعراض - أجسام فتوزن ، يقول : " ثبت وزن الأعمال ، والعامل ، وصحائف الأعمال ، وثبت أَنَّ الميزان له كفتان ، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات " ؛ بمعنى أَنَّ لَا نُعْمَلُ أَنْفُسَنَا ، أَنَّ لَا نُعْمَلُ عَقُولُنَا بكيفية هذه الأشياء ، نحن المطلوب مَنَّا أَنْ نُؤْمِنَ ونصدق بما ورد من هذه الصفات الثابتة ، نثبتها ؛ أدركتها عقولنا نور على نور ، عجزت عنها عقولنا - أقول وأكرر مرارا وتكرارا - إذا عجز العقل ، فترك هذا الأمر ، فعقلك لَا يُمَكِّنُ أَنْ يدرك كل شي ، المعتزلة عكسوا القضية ؛ أخذوا نصوص الميزان وعرضوها على عقولهم ، أخذوا نصوص الصراط وعرضوها على عقولهم ، أخذوا النصوص المثبتة لعذاب القبر ونعيمه وعرضوها على عقولهم ، بل أخذوا النصوص الواردة في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ وعرضوها على عقولهم ، ولهذا ضلوا ، وأضلوا . أمَّا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مَن نزل عليهم القرآن ، وفهموا الوحي ، وهم أدري وأعلم النَّاسَ بمفاهيم هذه النصوص ، ومعاني هذه النصوص ؛ سلَّموا لها ، سمعوا نصوص الميزان ، سمِعوا قول الله عَزَّ وَجَلَّ في صفات هذه الموازين ، ولم يُقابِلوا ذلك بكيف ، ولما ، ولماذا . يقول : " ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة ، كما أخبر الشارع ؛ لحفاء الحكمة عليه " ؛ لَأَنَّهُ خَفِيتَ عَلَيْهِ حِكْمَةُ هَذِهِ الْمَوَازِينِ ، يقول : " ويقدح في النصوص بقوله : لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمِيزَانِ إِلَّا الْبَقَالُ ، وَالْفَوَالُ " ، وهذا فيه سوء أدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ يعني كَأَنَّهُ يقول ما حاجة الله عَزَّ وَجَلَّ للميزان ! الميزان يحتاجه الفَوَالُ وَالبَقَالُ الذي يحتاج أَنَّهُ يَزِنُ الْأَشْيَاءَ لِلنَّاسِ ، وَيَقْتَنِعُ النَّاسَ مِنْ ذَلِكَ ، يقول : " وما أحرأه بأن يكون من الذين لَا يُقِيمُ لَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا " ؛ بسبب أَنَّهُ عَارِضُ هَذِهِ النُّصُوصِ ، وَرَدَّ هَذِهِ النُّصُوصِ ، واستهتر بمدلول هذه النصوص ، يقول : " ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده " ؛ يعني هناك حِكْمٌ كثيرة قد لَا نُدْرِكُهَا ، وَاللَّهُ لَهُ مِنَ الْحُكْمِ الْبَالِغَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِلْعُقُولِ إدراكها ، لكن يقول : لو لم يكن من حكمة وجود الميزان إِلَّا إظهار عدل الله عَزَّ وَجَلَّ للنَّاسِ ؛ إظهار عدله لجميع العباد ، يقول : " فلا أحد أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعَذْرَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ " ، ولأجل ذلك جعل للإنسان ملائكة يكتبون أعماله ؛ لأجل ذلك أعطى العامل كتابه يوم القيامة يقرأه أمام الخلائق ، تنكر من ذلك شي ؟ لأجل ذلك

أتى بالملائكة يشهدون عليه ؛ لأجل ذلك ختم الله على لسانه ، وأنطق جوارحه تشهد بما عمل ، وإلا فالله عز وجل قادر وعادل أن يقول عملت كذا وكذا كذا ، ولا يُمكن لأحد أن ينكر ، لكن يريد أن يظهر هذا العدل للناس ، للخلائق جميعاً ، فنصب الميزان ، ووزن العامل ، ووزن عمله ، ووزن بطاقته ، فبهذا يظهر عدله سبحانه وتعالى ، يقول : " فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا إطلاع لنا عليه ، فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم : {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} " ، فإذا كانت الملائكة - وهم من اقرب الناس إلى الله عز وجل - خفي عليهم حكمة خلق الإنسان ، وخلق بني آدم ، وتكليف بني آدم ، خفيت عليهم الحكمة ، ولهذا قالوا : كيف تخلق من يسفك الدماء ، ويقتل ، ويفعل المعاصي ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ ماذا قال الله لهم ؟ : {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ، ولهذا يقال للمعتزلة ، ولأضرابهم ممن أنكر الميزان ، أو أنكر شيئاً من أمور الغيب خاصة ، خاصة مما يتعلق باليوم الآخر ، أنكره بناء على عقله ، وبناء على خفاء الحكمة عليه ، يقال له : الله أعلم بما يعمل ! جعل الميزان ، وجعله لحكمة بالغة ، أدركها عقلك ، أدرك شيئاً منها ، الحمد لله ، لم يدركها عقلك ؛ اثبت ودع الحكمة لصاحبها .

◀ مسألة : مكان الميزان :

يقول : "وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي ؛ أن الحوض قبل الميزان ، والصراط بعد الميزان ، ففي الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتطص لبعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونُقِّوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة ! وليس يسقط منه أحد في النار ، والله اعلم " ، الشاهد : أنه أعود وأقول : ترتيب أحداث يوم القيامة ، وهذا قبل هذا ، ليس فيه نص صريح صحيح ! وما ذكره الإمام القرطبي ، أو ذكره غيره إنما مستندهم في ذلك ؛ مفاهيم عامّة ، وإلا فنحن علينا أن نثبت حقيقة هذه الأشياء ، ونثبت ما ثبت النص به ، ونكل الباقي علمه إلى الله عز وجل . إلى هنا انتهى المؤلف في الكلام عن الصراط والميزان .

الحلقة (١٩)

◀ مسألة : الجنة والنار مخلوقتان ، وموجودتان الآن ، ولا تفنيان أبداً !

لقد توقف المطاف بنا عند قول المؤلف : " الجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان " ، والكلام لا زال متعلقاً بالأصل الخامس من أصول الإيمان ؛ ألا وهو الإيمان باليوم الآخر ، فقول المؤلف : " الجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبداً ، ولا تبيدان " . ذكر الشارح : " أن هذا القول مما اتفق عليه أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل على ذلك أهل السنة ، ولا يعرف لهم مخالف ، حتى نبغت نابغة المعتزلة ! " ، وشدت عن جادة الصواب ، وزعمت أن الجنة والنار لم يُخلقا بعد ، وأن الله يُنشئها يوم القيامة ، ولهم في ذلك شبهة عقلية ونقلية ، سنأتي عليها بعد أن نذكر أدلة أهل السنة على ما ذهبوا إليه من أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وموجودتان ، لا أن الله يُنشئها يوم القيامة ، فمن ذلك ، (التصوص في هذا كثيرة جداً ، لكن المؤلف اقتصر على بعض هذه التصوص مما تقوم به الحجة ، وتظهر به المحجة) .

أدلة أهل السنة في أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن :

من ذلك قوله عز وجل : {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} ؛ يعني أن الجنة أُعدت ؛ أي انتهت ، ليس تُعد مستقبلًا ، وأيضاً قوله تعالى : {أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} ، وقال عن النار : {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} ، وقال : {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا} كانت ! وقال تعالى : {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} ، وذلك ليلة أُسري به عليه الصلاة

والسلام ، ويقول : " وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرۃ المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى ، كما في الصحيحين من حديث أنس . وأيضاً في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) " ؛ بمعنى يُعرض عليه مقعده من الجنة ، ومقعده من النار ؛ بمعنى أنَّها موجودة الآن يُشاهدها ويُبصرها . حديث البراء بن عازب رضي الله عنه : (وينادي من السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ؛ (هذا إذا مات ، الآن أفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة) ، فيأتيه من روحها وطيبها) ، وأيضاً ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : (خسفت الشمس في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكرت الحديث الطويل وفيه : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به ، حتى لقد رأيتني آخذ قِطْفاً من الجنة ؛ حين رأيتموني أُقَدَّم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ؛ حين رأيتموني تأخرت) ، فهذا دليل على أنَّهما موجودتان مخلوقتان ، ولهذا رآهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وحاول أن يأخذ من الجنة قِطْفاً من العنب ، ولهذا في الرواية الأخرى : (لو أخذته لأكلتم منه ، ما بقيت الأرض) ، وأيضاً ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس : (وأيم الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت ، لضحكتم قليلاً ، وبكيتم كثيراً ، قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : رأيت الجنة والنار) . وأيضاً ما ثبت في الموطأ والسنن من حديث كعب بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّمَا نَسْمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ ، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة) ؛ بمعنى : أي مؤمن يموت في أي وقت كان ، فروحه في جوف طير ، أو هي طير يعلق في شجر الجنة ، فهذا دليل على أنَّها موجودة . وذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه - كما في صحيح مسلم - أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، قال لجبريل : اذهب ، فانظر إليها ، وإلى ما أعددت لأهلها فيها) ، الحديث طويل ، الشاهد ؛ أنَّ هذا الحديث دليل صريح على أنَّ الله خلق الجنة والنار ، وليس يخلقهما يوم القيامة . يقول المؤلف : " وأمّا على قول من قال : إِنَّ الْجَنَّةَ الْمَوْعُودَ بِهَا هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا ، فالقول بوجودها الآن ظاهر " ؛ لأنَّه كان آدم موجود فيها ، وأهبط منها ، هذه أدلة أهل السنة في أنَّ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن .

◀ مسألة : ما شبهة المعتزلة عندما نفوا خلق الجنة والنار الآن ؟

الشبهة الأولى : تمسكوا ببناء على أصلهم الفاسد ؛ أنَّه يجب على الله كذا ، ولا يجب على الله كذا ، تحكماً من عند أنفسهم ! فأوجبوا على الله أموراً بناءً على قواعدهم العقلية التي اختطوها لأنفسهم ، فقالوا : إِنَّ خَلْقَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الآن ، وليس فيهما أحد ، نوعٌ من العبث ! ما فائدة خلقهما ؟ ، فلما غابت عليهم الحكمة ، نفوا أصل المسألة ! وهذا من عبث عقولهم ، فالله عزَّ وجل مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبْثِ ، ومنزَّه أن يفعل لا لحكمة ، فالله عزَّ وجل خلقهما لحكمة قد تظهر لبعض الناس ، وقد تخفى على كثير من الناس .

الشبهة الثانية : قالوا : أنَّهما لو كانتا موجودتين ، لوجب اضطراراً أن تفنيان يوم القيامة ! ولم ؟ قالوا : لأنَّ الله عزَّ وجل أخبر أنَّ كل شيء هالكٌ إلا وجهه ، وأخبر أنَّ كل نفس ذائقة الموت .

الشبهة الثالثة : قالوا : أنَّ الأحاديث التي فيها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكر : أنَّ الله يُحدث في الجنة أشياء جديدة : أ - كقوله عن امرأة فرعون : (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) ؛ بمعنى أنَّه يبني لها مستقبلاً ، هذا دليل أنَّها غير موجودة الآن !

ب - قالوا : ما ثبت عند الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي ، فقال : يا محمد ، أقرأ أمتك مِنِّي السلام ، وأخبرهم أَنَّ الجَنَّةَ طيبة التربة ، عذبة الماء ، وَأَنَّها قيعان ، وَأَنَّ غراسها - هذا هو الشاهد - سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) ، قالوا : إذن كل مؤمن يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فهو يغرس غرس في الجَنَّة ، فلو كانت مخلوقة مفروغاً من خلقها وبنائها ، ما تجدد هذا الغرس فيها .

ج - واستدلوا بحديث أبي الزبير ، عن جابر ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أَنَّهُ قال : (من قال سبحان الله وبحمده ، غُرست له نخلة في الجَنَّة) ، فلو كانت مخلوقة مفروغاً منها لم تكن قيعاناً ، ولم يكن لهذا الغرس معنى .
الجواب على هذه الشُّبهة التي ذكروها ، يُقال لهم :

أ - " إن أردتم بقولكم إِنَّها الآن معدومة - غير موجودة البتة - بمنزلة النفخ في الصور ، وقيام النَّاس من القبور ، وتطابير الصحف ، فلا شك أَنَّ هذا باطل جملةً وتفصيلاً ، تُرْده النَّصوص التي تقدم شيءٌ منها في إثبات أَنَّها موجودة ، وَأَنَّ النَّار موجودة أيضاً ، وإن أردتم أَنَّها لم يكمل خلق جميع ما أعده الله عزَّ وجل فيها لأهلها ؛ بمعنى أَنَّ الله يُحدث فيها أشياء ، وَأَنَّهُ لا يزال يُحدث فيها أمور منبئية على أمور ، فلا شك ، هذا لا خلاف فيه ، بل إِنَّ المؤمنين أصلاً إذا دخلوا الجَنَّة أحدث الله لهم أموراً أخرى في الجَنَّة ، وهذا حق لا يمكن رُدُّه ، لكن أدلتكم تدل على هذا القدر " ، تدل على أَنَّ الله عزَّ وجل يُحدث في الجَنَّة أشياء لم تكن موجودة ، ولا تُدَل على أَنَّها كانت معدومة ، ثمَّ وُجِدَت

ب - أما احتجاجكم بقوله سبحانه : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} ، فغاب عن عقولكم وعن نظركم أَنَّ المراد بالآية :

١ - كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ وَالْهَلَاكَ ؛ هَالِكٌ ، أَمَّا الجَنَّةُ والنَّارُ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ لهما البقاء ، وخلقهما للبقاء لا للفناء ، كذلك العرش ، فَإِنَّهُ كما ثبت ؛ سقف المخلوقات .

٢ - " وقيل أَنَّ المراد : إِلَّا مُلْكُهُ .

٣ - وقيل : إِلَّا ما أُريد به وجهه .

٤ - وقيل : إِنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا أَنزل : {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} ، قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، وطمعوا في البقاء ، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أَنَّهُم يموتون ، فقال : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} ، لَأَنَّهُ حي لا يموت ، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت ، وإِنَّمَا قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النَّصوص المُحكمة الدالَّة على بقاء الجَنَّة ، وعلى بقاء النَّار أيضاً ، على ما سيُذكر عن قريباً " ، الشاهد : أَنَّ معنى الآية التي ذكرتموها : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} ، ممَّا يقبل الفناء ، ولهذا يُستثنى من ذلك العرش ، ويُستثنى من ذلك الجَنَّة والنَّار ؛ لَأَنَّ اللَّهَ خلقهم للبقاء لا للفناء ، فالذي يفنى ؛ الذي خُلِقَ للفناء ؛ كبنى آدم ، وأيضاً الملائكة ، فقد ثبت أَنَّهُم يموتون إذا أذن الله لهم بذلك .

ج - أما قولهم أَنَّ خلقها الآن عبث ! فهذا كما أسلفت بناءً على قياس عقولكم ، والله عزَّ وجل يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وله فيما يفعل الحكمة البالغة ، قد تدركها عقولنا ، وقد تغيب عن عقولنا .

أَمَّا قول المؤلف : " لا تفنيان أبداً ، ولا تبديدان " ، هذا هو قول جمهور أئمة أهل السُّنَّة من السلف والخلف " ، فَإِنَّهُم ذهبوا إلى أَنَّ الجَنَّة والنَّار لا تفنيان أبداً ، باقيتان إلى أبد الآباد ، لكن من السلف من نُسب إليه أَنَّهُ قال بفناء النَّار دون الجَنَّة ، وسيأتي ذكر لهذا القول ، ومُسْتند هؤلاء ، وبيان الوجهة التي اتجهوا تجاهها ، لكن الذي يهمننا الآن ما أجمع عليه السلف ؛ أَنَّ الجَنَّة والنَّار باقيتان إلى أبد الآباد .

خالف في ذلك وشذ عن الخليفة وعن فرق الأمة : " الجهم بن صفوان " ؛ حيث زعم أنَّ الجنة والنار تفتيان مستقبلاً ، ولهذا أنكر عليه عامة أهل السنة ، بل كَفَرُوهُ على هذا القول ، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض ، وهذا القول ، قاله بناءً على أصله الفاسد الذي اعتقده ؛ وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث مستقبلاً ؛ قال : يستحيل أن يبقى شيء إلى ما لا نهاية له إلا الله عزَّ وجلَّ ، واستدلوا على هذا الأمر بحدوث الأجسام ، وأنَّ ما كان حادثاً فَإِنَّهُ لا بُدَّ أن يُعَدَّ ، شاركه في هذا القول أبو الهذيل العلاف ؛ شيخ المعتزلة ، لكنَّه خالفه في أنَّ الذي يفنى حركات أهل الجنة وأهل النار ، بحيث يصيرون كالجُمادات في سكون دائم ، لا يقدر أحد منهم على أيِّ حركة ، وهذان القولان ظاهراً البطلان ، وتقدَّم الرد عليهم عند كلام المؤلف -أخذتموه في المستوى الأول في مسألة تسلسل الحوادث - فلا حاجة إلى إعادة الكلام هنا ، وعلى كل حال القول ظاهر الفساد ، ولهذا فلا مستند لهم لا من العقل الصحيح ، ولا من الشرع الصحيح .

الأدلة من الكتاب على أبدية الجنة :

يقول : " أما أبدية الجنة ، وأنها لا تفتنى ولا تبديد ، فهذا ممَّا يُعلم بالضرورة ، ولم يُخالف في ذلك أحدٌ يُعتمد بقوله ، يشهد لذلك قول الله تعالى : { وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ } ؛ أي غير مقطوع ، ولا ينافي ذلك الاستثناء الوارد في آخر الآية : { إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ } ؛ لأنَّ السلف اختلفوا في المراد بهذا الاستثناء ! فمنهم من ذهب إلى :

١ - أنَّ معناه : إلا مُدَّة مكثهم في النَّار ؛ أي : أهل الجنة ممَّن استحقوا دخول النَّار ، ثم يُخرج منها ، لا المقصود جميع أهل الجنة ، يعني هذا الاستثناء مُتعلِّق بمن يدخل النَّار من أهل الجنة .

٢ - " هناك قول آخر : إلا مُدَّة مقامهم في الموقف .

٣ - وقيل : إلا مُدَّة مقامهم في القبور والموقف ؛ يعني هذا الاستثناء مُتعلِّق بمقامهم في الموقف ، أو مُدَّة بقائهم في القبور والموقف .

٤ - " وقيل : هو استثناء استثناء الرب ، ولا يفعله ، كما تقول : والله لأضربنَّك إلا أن أرى غير ذلك ، وأنت لا تراه ، بل تجزم بضربه .

٥ - وقيل : " إلا " ؛ بمعنى " الواو " ، فتكون معنى الآية : مادامت السماوات والأرض ، وما شاء ربك .

٦ - وقيل معنى " إلا " أي " لكن " ، وهذا رأي سيئويه ، فيكون الاستثناء منقطعاً ؛ يعني لا علاقة له بما تقدَّم ، ورجَّح هذا القول ابن جرير ؛ يعني يكون الكلام : خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - انتهى الكلام - ولكن ما شاء ربك ، هنا الاستثناء منقطع . " وقال : إنَّ الله تعالى لا خُلف لوعده ، وقد وصل الاستثناء بقوله : { عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ } - هذا كلام ابن جرير - قالوا : ونظيره ؛ تقول : أسكنتك داري حولاً إلا ما شئت ، أي سوى ما شئت ، أو لكن ما شئت من الزيادة .

٧ - وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنَّهم مع خلودهم في مشيئة الله عز وجل ؛ بأنَّهم - يعني - لا يخرجون ، مع أنَّهم خالدون ، فلا يعني هذا أنَّهم خارجون عن مشيئة الله عز وجل ، قالوا : وهذا يدل عليه : { وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } ، وقوله تعالى : { فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ } ، وقوله : { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ } ، ونظائره كثيرة ، يُخبر عباده سبحانه أنَّ الأمور كُلَّها بمشيئته ؛ ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

٨ - يقول : " وقيل أيضاً : إنَّ معنى " ما " ؛ بمعنى " مَنْ " ؛ أي إلا من شاء الله دخوله النَّار بذنوبه من السعداء .

وقيل غير ذلك ، وعلى كل حال فهذا الاستثناء يُعدُّ من المتشابه ، وقوله : { عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ } ، مُحْكَم " ، فيُردُّ المتشابه إلى

المحكم ، قصارى ما في ذلك أن نقول : إلا ما شاء الله ؛ متشابه ، ولهذا اختلف السلف في معنى هذا الاستثناء ، إذن اشتبه عليهم المعنى ، وعندنا مُحكم (عطاء غير مجذوذ) ، هذا باتفاق السلف ؛ أنه يدل على أبدية الجنة ، فنرد المتشابه إلى المحكم ، وبذلك - إن شاء الله - يسلم ظاهر الآية ، وتكون دليلاً لأهل السنة . يقول : " وكذلك قوله تعالى : {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} ، وقوله : {أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا} ، وقوله : {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} " ، كل هذه من الآيات المحكمة الظاهرة الواضحة في أبدية الجنة ، يقول : " وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن ؛ (أي أكد على أنهم خالدين فيها أبداً) ، هذا يدل على دوام هذا الخلود ، وأنه غير منقطع ، ولهذا قال سبحانه : {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} ، وهذا الاستثناء منقطع إذا ضممته إلى الاستثناء في قوله : {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} ، تبين لك المراد من الآيتين .
أدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها :

" فهي كثيرة جدا ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت) ، ما فيها أنها تنقطع ، ويموتون ، وقوله : (يُنادي مناد يا أهل الجنة ! إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا ، فلا تسقموا أبداً ، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وأن تحبوا فلا تموتوا أبداً) ، وتقدم أيضاً حديث ذكر ذبح الموت ؛ بمعنى أنه انتهى الموت ؛ ما فيه موت ، ما فيه إلا خلود ، يقول : " وأما أبدية النّار ودوامها " ، الآن عرفنا أبدية الجنة ودوامها ، هذا ممّا اتفق عليه أهل السنة ، وفناء الجنة والنّار لم يخالف فيه إلا الجهم بن صفوان ! أمّا أبدية النّار فروي عن بعض السلف أنها تفتنى .

الحلقة (٢٠)

◀مسألة : أبدية النار (أي خلود النّار مستقبلاً) ، هل هي باقية أم يأتي عليها زمان تفتنى وتنتهي؟

قلنا أنّ هذه المسألة كما ذكر المؤلف فيها ثمانية أقوال :

القول الأول : أنّ من دخلها لا يخرج منها أبداً ، وهذا قول الخوارج والمعتزلة . من دخل النّار لا يمكن أن يخرج منها ؛ سواء كان موحد ، أو غير موحد ! وبناء على قولهم : أنّ أصحاب الكبائر إذا دخلوا النّار لأجل التطهير ، فإنهم لا يخرجون منها .

القول الثاني : أنّ أهلها يُعذبون فيها ، ثمّ تنقلب طبيعتهم ، وتبقى طبيعة ناريّة ، يتلذذون بها ؛ لموافقتها لطبعهم ! وهذا قول إمام الاتحادية ابن العربي الطائي ومن وافقه ؛ بمعنى أنّ النّاس الكفّار يُعذبون في النّار ، مع كثرة عذاب النّار على رأي ابن العربي (شيخ غلاة الصوفيّة) ، فأثّرت تنقلب طبيعة أجسامهم إلى طبيعة ناريّة ، فبدل أن يتعذبوا بها ، أصبحوا يتنعمون بها ! وأصبحت النّار جزء منهم لا يتجزأ ! بلا شك هذا لا دليل عليه لا من العقل ، ولا من الشرع ، ولا من الحسّ .

القول الثالث : أنّ أهلها يُعذبون فيها إلى وقت محدود ، ثمّ يخرجون منها ، ويخلفهم فيها قوم آخرون ، وهذا القول حكاة اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأكذبهم النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وقد أكذبهم الله تعالى ، فقال عزّ من قائل : {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ، إلى آخر الآيات .

القول الرابع : إنّهم يخرجون منها ، وتبقى على حالها ليس فيها احد ؛ أي أنّ كل من دخلها من الكفار والمؤمنين يخرجون منها ، وتبقى النّار لا تفتنى ، لكن ليس فيها احد .

القول الخامس : أنّها تفتنى بنفسها ؛ لأنّها حادثة ، وما ثبت حدوثه ، استحالة بقائه ! وهذا قول الجهم بن صفوان ومن تبعه من الجهمية ، ولا فرق عنده بين الجنة في ذلك والنّار ، وهو أنّ الجميع يفتنى .

القول السادس : أَنَّهَا تَفْنَى حَرَكَاتِ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَصِيرُونَ جَمَادًا لَا يُحْسُونَ بِالْمَ ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْهذِيلِ الْعَلَّافِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ - كما سلف ذكره - .

القول السابع ، والقول الثامن هما القولان اللذان لهما أهمية خاصة ؛ لأنَّهما منسوبان إلى بعض أئمة السلف .
القول السابع : أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ شَاءَ - كما ورد في السُّنَّةِ - ثُمَّ يُبْقِيهَا مَا شَاءَ ، ثُمَّ يُفْنِيهَا ، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ ؛ أَنَّهَا تَبْقَى إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمُدَدِ وَالْأَزْمَنَةِ ، ثُمَّ تَفْنَى وَتَنْتَهِي .

القول الثامن : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، كما ورد في السُّنَّةِ ، ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له ، كما ذكر الشيخ . القول الأخير هو قول جمهور أهل السُّنَّةِ ، وهو القول الذي تعضده الأدلة ، ولهذا الشيخ الشارح قال : "وماعدا هذين القولين ؛ (أي السابع والثامن ؛ الأخيرين) ، ظاهر البطلان " ؛ يعني لا حاجة أن نقف عند الأقوال السابقة ؛ لأنَّ فساد هذه الأقوال ظاهر وواضح ، يقول : " وهذان القولان لأهل السُّنَّةِ ينظر في دليلهما " ؛ لأنَّ لكل قول دليل .

أولاً : أدلة من يقول أَنَّ النَّارَ تَبْقَى مُدَّةً ، ثُمَّ تَفْنَى :

١ - يقول : " فمن أدله القول الأول منهما (الذي يقول أَنَّهَا تَبْقَى مُدَّةً ، ثُمَّ تَفْنَى) ، قوله تعالى : { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } ، وقوله : { فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ } ، ولم يأتي بعد هذين الاستثنائين (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة ، { عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ } .

٢ - وقوله تعالى : { لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا } ؛ أي أزماناً ، لم يقل إلى مالا نهاية له .

٣ - يقول المؤلف : " وهذا القول (أعني القول بفناء النار دون الجنة) ، منقول (أي مروى) عن عمر ، وابن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وغيرهم " ، وقد روى ابن حميد - في تفسيره الشهير - بسنده إلى عمر رضي الله عنه قوله : لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج ، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه . ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى : { لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا } .

٤ - وأيضاً مما استدلوا به : قالوا أَنَّ النَّارَ مَوْجِبُ غَضَبِهِ ، والجنة موجبة رحمته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ (فوق العرش) : " إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي ") والحديث في صحيح البخاري .

٥ - قالوا فيما استدلوا به أيضاً : أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ الْعَذَابِ أَنَّهُ قَالَ : { عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ، و " أليم " ، و " عقيم " ، ولم يخبر ولو في موضع واحد ؛ أَنَّهُ نَعِيمٌ يَوْمٌ ! لاحظوا ؛ يقولون أَنَّهُ حَدَدَ هَذَا الْعَذَابَ بِيَوْمٍ ، بخلاف النعيم !

٦ - وقد قال تعالى : { قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } وهذا أيضاً من أدلتهم .

٧ - وقال حكاية عن الملائكة : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } ؛ أي أَنَّ رَحْمَتَكَ تَسَعُ كُلَّ شَيْءٍ بما فيها أهل النار ، فلا بدَّ أن تسع رحمتهم هؤلاء المعدِّبين ، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية ، لم تسعهم رحمتهم !

٨ - وقد ثبت في الصحيح ؛ تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة ، والمعدِّبون فيها متفاوتون في مُدَّةِ لبثهم .

٩ - قالوا : ما ورد من الخلود فيها والتأبيد ؛ أي ما ورد أَنَّ أَهْلَ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وعدم الخروج : { وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا } ، وَأَنَّ عَذَابَهَا مُقِيمٌ ، وَأَنَّهُ غَرَامٌ ؛ كُلُّهُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ لَا نِزَاعَ فِيهِ ، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ؛ ما دامت باقية ! " يقولون هذه الآيات والنصوص التي استدليت بها على أبدية النار ، وأبدية أهلها هي صحيحة ! لكن هذه تدلُّ على إلتئام باقون ما دامت النار باقية ! لكن نحن نقول أَنَّ اللَّهَ يَفْنِي النَّارَ ، فيفنى معها أهلها ، يقول : " وَإِنَّمَا يُخْرِجُ مِنْهَا فِي حَالَةِ بَقَائِهَا

أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه " . وهذا دليل عقلي .

ثانياً : أدلة من قال ببقاء النار وعدم فنائها :

قال : " من أدلتهم قوله تعالى {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} ، {لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} ، {فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} ، {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} ، {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} ، {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} ، {وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} بمعنى أنه علّق دخولهم الجنة بأن يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا مستحيل ، وأيضا دخولهم مستحيل ، {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} ؛ أي مُقيماً لازماً " .

يقول : " وقد دلّت السُّنة المستفيضة أنّه يخرج من النَّار من قال لا إله إلا الله " ؛ كأحاديث الشفاعة الكثيرة ، ومنها : (أخرجوا من النَّار من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان) ، يقول : " صريحة في خروج عصاة الموحدين من النَّار ، وأنَّ حُكم خروج هؤلاء (الذين هم الموحدين) من النَّار خاص بهم " ، فلو خرج الكفار من النَّار ؛ لم يكن للموحدين خاصيّة في ذلك ، ولكننا بمنزلة الكفار ، فصار أهل الكفر ، وأهل الإيمان بمنزلة واحدة . ثمّ قال المؤلف : " وبقاء الجنة والنَّار ليس لذاتهما ، وإنّما بإبقاء الله عزَّ وجلَّ لهما " ، وهذا هو القول الراجح ، وهو إنّ النَّار خالدة ، وأهلها خالدون فيها ؛ المستحقون للخلود ، وأنَّ أهل الجنة خالدون فيها مخلدون ، أمّا ما يروى عن عمر وغيره فكما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله : " أنّ الروايات فيها مقال ، يعني مطعون في صحتها !) ، وعلى فرض صحتها ؛ فيُحمَل قولهم على أنّ المراد بالنَّار التي تفتى (التي قالوا بفنائها) ؛ هي نار الموحدين ؛ لأنّه إذا أُخرج منها الموحدون ممّن استحقوا العذاب والتطهير ، لم يبقى لوجودها فائدة ، فيحكّم الله عليها بالفناء ، وذلك لصراحة وظهور دلالة أدلّة القائلين بخلود النَّار . يقول : " وقوله : {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (دُعِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ، ولم يُدركه ! قال : أو غير ذلك يا عائشة ! إنّ الله خلق للجنة أهلاً ؛ خلقهم لها ، وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنَّار أهلاً خلقهم لها ، وهم في أصلاب آبائهم) " ، رواه مسلم ، الشاهد : أنّ هذه الأدلّة تدلّ على كلام المؤلف : " وخلق لهما أهلاً ؛ خلق للجنة أهلاً ، وخلق للنَّار أهلاً " .

◀ مسألة : أنواع الموجودات :

ذكر المؤلف : " أنّ الموجودات نوعان :

أحدهما : مُسَخَّر بطبعه .

٢ - والثاني : مُتَحَرِّك بإرادته .

فهدى الأوّل لما سُخِّر له بطبعه ؛ بمعنى هداه لهذا الشيء ؛ لأنّ الله عزَّ وجلَّ سَخَّره بطبعه ، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره " ، الله عزَّ وجلَّ أرشده وبيّنه وهداه هداية يعرف معها ما يضره وما ينفعه ، ثمّ قسّم هذا النوع (النوع الثاني) ، إلى ثلاثة أنواع ؛ بمعنى الذي هو متحرك بإرادته :

الأوّل : نوع لا يُريد إلاّ الخير ، ولا يتأتّى منه إرادة السوء ، وهؤلاء الملائكة ، فهؤلاء خلقهم الله متحركين بإرادته ، لكنّ هذه الإرادة لا تأتي إلاّ بخير .

النوع الثاني : لا يُريد إلاّ الشر ، ولا يتأتّى منه إلاّ الشر ، وهؤلاء الشياطين .

والنوع الثالث (وهو موضوع النقاش) : هو من يتأتى منه الإرادتان ؛ إرادة الخير ، وإرادة الشر ، وهؤلاء هم الإنس . وذكر المؤلف أيضا هؤلاء (أصحاب الإرادتين ، وهم الإنس) ؛ ثلاثة أصناف :

- ١ - صنف يغلب إيمانه ، ومعرفته ، وعقله ، هواه وشهوته ، فيلتحق بأصحاب الصنف الأول ؛ (الملائكة) .
 - ٢ - وصنف عكسه ؛ (يغلبه هواه وشهوته ، تغلب إيمانه وعقله ومعرفته ، فيلتحق بالصنف الثاني ؛ (الشياطين) .
 - ٣ - وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله ، فيلتحق بالبهائم ، ويكون كحال البهيمة ؛ شهواني فقط .
- يقول المؤلف : " والمقصود ؛ أنه سبحانه أعطى الوجودين ؛ العيني والعلمي ، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده ، أيضا لا هداية إلا بتعليمه ، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته ، وثبوت وحدانيته ، وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه " ، وهذا تقدم الكلام فيه ؛ أن كل شيء بإرادة الله عز وجل ، فهو المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، والإنسان هو المتسبب ، وهو المبشر للعمل .
- بعد ذلك انتقل المؤلف للكلام على مسألة متعلقة بالقضاء والقدر ، لكنه لم يبحثها مستقبلاً ، وإنما بحثها في هذا الموضع ، وهي مسألة الاستطاعة .

◀ مسألة : الاستطاعة :

الاستطاعة التي هي : الطاقة والقدرة والوسع .

◀ مسألة : هل تكون مع الفعل ، أو قبل الفعل ؟

يقول الطحاوي رحمه الله : " والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يوصف المخلوق به تكون مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكين وسلامة الآلات ، فهي قبل الفعل ، وبها يتعلّق الخطاب ، وهو كما قال تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } " .

الاستطاعة تنقسم إلى قسمين : (كما ذكر الطحاوي) :

الأول : استطاعة " مُصاحبة للفعل " ، ومُقرّنة مع الفعل .

الثاني : واستطاعة " سابقة للفعل " ، وتحصل قبل الفعل .

أهل السنة والجماعة أثبتوا الاستطاعة بهذين القسمين ، وبهذا المعنى أنها تنقسم إلى قسمين ، ولهذا استطاعوا الجمع بين الأدلة ، والتوفيق بين النصوص ، فالذي عليه عامة أهل السنة أن للعبد قدرة ؛ هي مناط الأمر والنهي ؛ بمعنى أن التكليف مرتبط بهذه القدرة ، وبهذه الاستطاعة ، وهي التي تسبق الفعل ، وتكون قبل الفعل ، ولا يجوز أن تكون مع الفعل ، والسبب ؛ لأنه لو كانت القدرة هذه هي القدرة التي مع الفعل ، لكان لا يستطيع الحج إلا من حج فقط ، وهذا غير صحيح ، ولهذا قال المؤلف : " والقدرة التي يكون بها الفعل ، لا بُدَّ أن تكون مع الفعل " ، أما الاستطاعة التي فعلاً يتحقق بها الفعل ، فهذه تكون مُصاحبة للفعل ، لا سابقة له ، وهذه هي التي بيد الله عز وجل ، لكن التكليف غير منوط بها ، إنما منوط بالاستطاعة التي قبل الفعل ، وهي التي في قدرة العبد ، وهي ما أعطاه الله عز وجل لهذا العبد من التمكّن من سلامة الآلات ، ومن القدرة على الاختيار ، ولهذا بيّن له طريق الخير ، وطريق الشر ، فهو يستطيع أن يسلك طريق الخير ، ويستطيع أن يسلك طريق الشر ، فإذا سمع المؤذن ، يستطيع أن يقوم ، ويتوضأ ، ويذهب إلى المسجد ، وأيضاً يستطيع أنه وهو يسمع المؤذن أن يبقى في مكانه إلى أن يُصلي الناس ، ولا يؤدّي الصلاة حتى تخرج وقتها ، وهذه هي الاستطاعة قبل الفعل ، أما المُقارنة للفعل ؛ التي فعلاً قام وصلى ، فهذه القدرة المُقارنة للفعل ، والتي حصل بها الفعل ، هي التي بيد الله عز وجل .

أدلة النوع الأول من الاستطاعة (الاستطاعة السابقة للفعل (قبل الفعل)) :

يقول : " وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع التي قبل الفعل ، والتمكن وسلامة الآلات ، فقد تتقدم الأفعال ، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} . إذاً الاستطاعة هذه هي السابقة ، وهي المتقدمة ، فأوجب الحج على المستطيع ، فلو لم يستطع إلا من حج ، لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج فقط ، فلو كانت الاستطاعة واحدة ؛ وهي المقارنة للفعل ، ولا يستطيع الحج إلا من حج ، لقلنا أن الحج لا يجب إلا على من حج ، وهذا غير صحيح ، فالحج يجب أيضا على من لم يحج وهو مستطيع الحج ، فالذي ملك الزاد والراحلة ، وأعطاه الله عز وجل من القوة والتمكن ما يستطيع منها الذهاب إلى مكة ، لكنه لم يذهب ، فهذا يجب عليه الحج ، ولهذا يأثم بتركه . يقول : " وأيضا من هذا النوع من الاستطاعة السابقة للفعل ، قوله تعالى : {فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} ، فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة ، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى ، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ، هذا ظاهر الفساد ، ولم يعاقب من لم يتق ، وهذا يقول المؤلف : " معلوم الفساد " ، وكذلك قوله تعالى : {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا} ، والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات " ، من لم يستطيع الصيام ، ولم يستطع العتق ، فإطعام ستين مسكينا ، إذا كان كبير لا يستطيع الصيام ، أو مريض ، أو فقير لا يستطيع العتق ، وهذا كله سابق الفعل ، فعليه أن يطعم ستين مسكينا . يقول : " وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين : {لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ} ، يقو : الله كذبهم في هذا ، وكذبهم في ذلك القول ، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ، ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين " ؛ يعني لو كانوا فعلا يريدون الاستطاعة المقارنة للفعل ، ما كذبهم الله بهذا القول ، ولكن الله كذبهم ، فدل على أن هذه الاستطاعة هي الاستطاعة السابقة للفعل ، يقول : " وحيث كذبهم ، دل على أنهم أرادوا بذلك المرض ، أو فقد المال على ما بين الله تعالى بقوله : {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى} ... إلى أن قال : {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ} ، وكذلك قوله : {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} " ، وهذه الاستطاعة هي من الاستطاعة السابقة للفعل " ، والمراد استطاعة الآلات والأسباب ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : صل قائما ، فإن لم تستطع ، فقاعدا ، فإن لم تستطع ، فعلى جنب ، وإثما نفى استطاعة الفعل معها " ؛ بمعنى سلامة الآلات والقدرة والتمكن على الفعل .

الدليل على النوع الثاني من أنواع الاستطاعة (المقارنة للفعل) :

يقول : " وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة المقارنة للفعل ، فقد ذكروا فيها قوله تعالى : {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} " ، هذا هو الدليل على النوع الثاني من أنواع الاستطاعة المقارنة للفعل ، والتي يكون بها الفعل ، قال الله عز وجل : {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ} ، إذ لو استطاعوا لسمعوا ، ولهذا نفى الله عز وجل عنهم أنهم ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون ، والمراد : نفي حقيقة القدرة ، لا نفي الأسباب والآلات ، فالله عز وجل هنا لا ينفي عنهم الآلات ، ولا ينفي عنهم الأسباب ؛ لأنها ثابتة لهم ، الله أعطاهم السمع والبصر ، وأعطاهم العقول ، وبين لهم الخير والشر ، ولكنهم عموا عن ذلك ، فأخبر الله عز وجل أنهم ما كانوا يستطيعون السمع ، بناء على ذلك ، وذكر المؤلف : " أنه سيأتي لذلك زيادة بيان ، عند قوله : " ولا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُم ، إن شاء الله تعالى " . يقول : " ومن هذا النوع أيضا قول صاحب موسى : {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} ، وقوله : {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} ، الشاهد أن القول الصحيح في الاستطاعة هي : أنها تنقسم إلى قسمين ؛ سابقة للفعل ، ومع الفعل ، هذا هو القول الصحيح ، خلافاً لقول :

١ - المعتزلة الذين أثبتوا الاستطاعة السابقة للفعل فقط .

٢ - وقابلهم الجبرية ، وقالوا : أنَّ الاستطاعة فقط المصاحبة للفعل .

٣ - وأهل السُّنة قَسَمُوا إلى قسمين ، وهم أسعد النَّاس بالدليل .

الحلقة (٢١)

◀ تتمتع الكلام عن المخالفين لأهل السنة في الاستطاعة:

هم طائفتان:

▪ الجبرية الذين قالوا: إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل، وقالوا: إنه لا يمكن أن تكون القدرة تصلح للضدين، أي تصلح للخير والشر، بمعنى أن الله عز وجل يعطي هذا العبد قدرة أو استطاعة تصلح للخير والشر، لا، بل يعطيه قدرة واحدة هي المصاحبة للفعل، لا تصلح إلا للخير فيسلك طريق الخير، وإلا لا تصلح إلا للشر فيسلك طريق الشر، يقول: "ولذلك إذا أعطاه الله القدرة المستلزمة للخير فإنها لا تصلح إلا له، ولا تستلزم إلا الخير، وكذلك الشر.

▪ القدرية خالفوا في ذلك، قالوا: لا، الله عز وجل أعطى العباد قدرة بالتساوي، المؤمن والكافر لم يخص هذا بشيء ولم يخص هذا بشيء، البر والفاجر، المطيع والعاصي سواء، فهم لا يقولون: إن الله عز وجل خص أهل الإيمان وأهل الطاعة بإعانة حصل بها الإيمان وحصل معها الإيمان، لا، قالوا: بل هذا رجح بنفسه الإيمان، وهذا رجح بنفسه الكفر؛ استقلالاً عن مشيئة الله وقدرته، كحال الأب الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفاً، هذا جاهد به في سبيل الله وهذا قطع به الطريق.

يقول الشيخ: "لا شك هذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدرة"، لأنهم لما قالوا هذا القول بناء على نفي القدرة، نفي مشيئة الله عز وجل، بمعنى لا علاقة لله بفعل العبد، العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، ولهذا قالوا الله أعطاه قدرة، والناس متساوون في هذه القدرة، أنت اخترت الخير أنت الذي خلقت وأوجدت لنفسك الخير استقلالاً عن قدرة الله ومشيئته، لا علاقة لقدرة الله ومشيئته.

كذلك الذي أراد الكفر وأراد الشر، يقول: "فإنهم متفقون" - هذا قول أهل السنة - على أن الله على عبده المطيع نعمة دينية"، قالوا: ليس صحيح أن الناس سواء، بل الله عز وجل خص المؤمن بنعمة خاصة دون غيره من الكفار وأعانه على فعل الإيمان، ولم يُع الكافر، ولهذا قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} - هذا راجع إلى الله - {وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}

"فالقدرية يقولون هذا التحبيب وهذا التزيين عام في كل الخلق"، ليس هو خاص بالمؤمنين، ولا شك أن هذا مخالف لظاهر الآية، ولهذا الله عز وجل قال: {أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} والكفار ليسوا براشدين، وقال في الآية الأخرى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} إذاً الله عز وجل فرق بين الكافر والمؤمن، شرح صدر هذا للإيمان، وجعل صدر الكافر ضيقاً حرجاً، وهذا خلاف ما ذهب إليه هؤلاء. يقول: "وأيضاً مما يدل لذلك قوله سبحانه: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}

◀ إذا القدرة نوعان:

• "نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك، وهي السابقة للفعل، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي" الذي

من الله عز وجل، وترتب على ذلك الحساب والعقاب الجنة والنار، هي على هذه القدرة المصححة للفعل.

"وهذه لا تكون إلا قبل الفعل، وتبقى إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من

يقول إن الأعراض لا تبقى لزمانين"، وهذا الآن ليس محل بحث مسألة هل هي عرض أو ليست عرض، ثم هل العرض يبقى زمانين أو لا يبقى زمانين، ليس هذا مجال البحث فيه.

"وهذه القدرة قد تصلح للزدين"، تصلح للإيمان وتصلح للكفر، تصلح للطاعة وتصلح للمعصية، فالله عز وجل أعطاك البصر، تستطيع بهذا البصر أن ترى به ما أباح الله عز وجل، وبذات البصر وبنفس القدرة تستطيع أن ترى به ما حرم الله عز وجل، هذه اليد منحك الله عز وجل عليها القدرة في أن تقاتل بها في سبيل الله، تفعل بها الطاعات، تتوضأ بها، تمس الحجر الأسود بها، تسجد عليها، وأعطاك الله عز وجل أيضاً القدرة بحيث أن تستخدمها في معاصي الله عز وجل، تسرق، تقطع بها الطريق، تعتدي بها على عباد الله عز وجل، "وأمر الله عز وجل مشروط بهذه القدرة السابقة للفعل، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة"، ولهذا الزمن الذي لا يستطيع القيام لا يكلف بالقيام للصلاة ولا يحاسب على ذلك، يقول: "و ضد هذه العجز" كما تقدم ذلك.

• يقول: "وأيضاً فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه"،

◀ الشاهد أنه تكلم ببعض المسائل المتعلقة بالاستطاعة، ما ذكرته لكم هو زبدة الكلام حول الاستطاعة.

انتقل بعد هذا رحمه الله وذكر عند قول المؤلف: "وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد"

يقول: "اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية - سيذكرها على وجه الإجمال، لأنه تقدم الكلام عليها تفصيلاً - فزعمت الجبرية ورؤسهم الجهم بن صفوان أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش"، بمعنى أنهم نفوا الاختيار عن العبد، قالوا: كل ما يفعله الإنسان هو بإرادة الله عز وجل وإرادة الله عز وجل لا اختيار له البتة. قابلهم على الضد تماماً المعتزلة، وقالوا إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات هي بخلقها لا تعلق لها بخلق الله عز وجل"، الله لم يخلق هذه الأفعال ولم يشأها، هم الذين يخلقونها وهم الذين يفعلونها استقلالاً.

"أهل الحق أهل السنة والجماعة سلف الأمة قالوا: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة هي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق جميع المخلوقات، لا خالق لها إلا الله سبحانه وتعالى"، لا يخرج عن خلق الله شيء، الخير والشر، الطاعة والمعصية، الإيمان والكفر.

" فالجبرية غلوا في إثبات هذا القدر وهذا الحد، ولهذا نفوا فعل العبد كلياً، كما غلت المشبهة - كما ذكر المؤلف - في إثبات الصفات؛ فشبهوا، والقدرية نفاة القدر - قابلوهم فغلوا في النفي نفى خلق الله عز وجل - حتى جعلوا العباد خالقين مع الله " لأفعالهم وجعلوا مع الله خالقين.

أهل السنة توسطوا، أثبتوا عموم خلق الله عز وجل؛ لكن أثبتوا فعل العبد، والفعل يُنسب لمن باشره، الذي باشر الفعل الذي حمل هذا القلم يُنسب إليه الفعل، أنا الذي حملته فيُنسب لي الفعل، وآخذ وأجازي عليه.

يقول: "وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فكل دليل - هذه قاعدة عامة ليس في هذه المسألة، بل في كل مسألة جرى الخلاف فيها - أن كل دليل صحيح يقيمه الجبري - أو يقيمه

المبطل - فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء"، الجبري إذا استدل بأي دليل على مذهبه

" فهو يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة"، هذه الأدلة التي استدل بها الجبرية على خلق الله وعلى فعل

الله صحيحة، تدل على فعل الله وعلى عموم خلق الله لكن ليس فيها نفي لفعل العبد ولعمل العبد ولإرادة العبد، بل العبد يفعل باختياره ومشيئته، لا كما يزعم الجبرية أن حركاتك كحركات المرتعش وكالريشة في مهب الريح لا، بل له اختيار وله فعل، وهذا داخل تحت فعل الله.

ثم قال: "وكل دليل صحيح يقيمه القدري النافي للقدر فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته"، يقول الأدلة التي استدلت بها القدرية المعتزلة على إثبات فعل العبد صحيح هي دليل على أن العبد يفعل بمشيئته واختياره، وأن الفعل يُنسب إليه، لكن لا تدل على نفي خلق الله وعموم خلق الله عز وجل، أين الدليل في هذه الأدلة على أن الله ليس بخالق لأفعال العباد؟!

يقول: "فإذا ضمنت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى؛ ظهر لك المذهب الحق، دائماً إذا اختلف أهل الباطل في مسألة فخذ أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء واضم بينهما اجمع بينهما يظهر لك المذهب الحق كما صنع أهل السنة، ولهذا سمو الفرقة الوسط، لأنهم دائماً يتوسطون بين الفرق.

◈ دليل الجبرية على أن أفعال العباد خلق لله استقلالاً:

يقول: "فمما استدلت به الجبرية"، أي مما استدلت به على أن أفعال العباد خلق لله استقلالاً، لا مشيئة ولا قدرة للعبد فيها؛ قوله سبحانه: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} يقول: "فنفى الله عن نبيه الرمي وأثبت لنفسه سبحانه فدل على أنه لا صنَّع للعبد"، هذا هو قول الجبرية، قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال، أي قالوا أن الجزاء غير مترتب على عمل الإنسان لأنه هو مجبور على فعله، فكيف يُجازي الله عز وجل العبد على عمل أجبره عليه

□ ما دليلكم على أن الجزاء غير مرتب على الأعمال؟

"قالوا: قوله صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحد الجنة بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل)" هذا مما استدلت به الجبرية-الشيخ أتى بنماذج، وإلا فأدلتهم كثيرة-.

◈ أدلة القدرية على أن العبد هو الذي يخلق فعله بنفسه:

انتقل إلى أدلة القدرية الذين نفوا عن الله الخلق وعموم المشيئة، وقالوا أن العبد هو الذي يخلق فعله بنفسه، وقدرته مستقلة عن قدرة الله عز وجل. ما دليلكم معاصر القدرية؟

قالوا: قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} قالوا والجزاء مرتب على الأعمال ترتيب العوض، أي {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} وجه الدلالة منها أن الله عز وجل وصف نفسه بأنه أحسن الخالقين، والكفر والمعصية ليست من الخلق الحسن؛ فدل على أن الله لا يخلق هذا الشيء لأنه سيئ، أيضاً قالوا الجزاء مرتب على الأعمال ترتيب العوض، قالوا أن الله عز وجل يُجازي العباد يوم القيامة على أعمالهم فيدخلهم الجنة عوضاً عن أعمالهم كالسلعة مقابل الثمن سواء بسواء!!! ما دليلكم؟ قالوا دليلنا قوله تعالى {جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} قالوا: الله عز وجل نص على أن هذه الجنة ثمن للعمل عوض للعمل.

ذكر الشيخ الآن عندنا نموذجين، بما استدلت به الجبرية، وبما استدلت به القدرية النفاة، سيرد على الطائفتين، بدأ بالرد على الجبرية، يقول: "فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} فهو دليل عليهم" لا لهم -وهذا شيخ الإسلام أعطانا قاعدة عامة أن أي مبطل أي مبتدع يستدل بنص شرعي فإن في هذا النص ما يدل على

نقيض ما ذهب إليه فهو دليل عليه لا له، مثال ذلك هذه الآية التي عندنا- فقله سبحانه {وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} يقول المؤلف: "دليل عليهم -وجه ذلك- لأنه تعالى أثبت لرسوله رمياً {وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ}- إذا أثبت فعل للنبي صلى الله عليه وسلم- فعلم أن المَثْبُت غير المنفي" {وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ} أثبت الرمي لكن نفى نوع من الرمي، وذلك أن الرمي له ابتداء وله انتهاء"، النبي صلى الله عليه وسلم لما رمى بالسهم رمى بالحربة، هناك ابتداء للرمي وهو الفعل، وفيه نهاية، البداية نفس الفعل الرمي، والنهاية الإصابة، فالله عز وجل أثبت للنبي البداية الذي هو أصل الرمي، ونفى عنه الإصابة، الإصابة بيد الله عز وجل، إذا {وَمَا رَمَيْتْ} وما أصبت {إِذْ رَمَيْتْ} ولكن الله هو الذي وفقك لإصابة الهدف، يقول "فابتدأه الحذف وانتهأه الإصابة، وكل منهما يسمى رمياً"، هذا يسمى رمي والإصابة تسمى رمي، "فالمعنى حينئذ والله تعالى أعلم -أي معنى الآية- وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب، وإلا -يقول- فعلى مذهبه- هذا يقال: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما صمت إذ صمت ولكن الله صام، وما زنيت إذ زنيت وما سرت إذ سرت- يقول- وفساد هذا القول ظاهر"

ما يحتاج إلى وقوف كثير.

استدلالهم الثاني وهو ترتب الجزاء على الأعمال:

يقول: "فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية" سواء بسواء -هذه المسألة- الجبرية جعلوا العمل ليس عوض عن الجنة، والقدرية قابلوهم قالوا لا، العمل عوض، هذا مقابل هذا، يقول: "وهدى الله أهل السنة فله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات"، عندنا الآن (باءان)

الباء الأول: في قوله صلى الله عليه وسلم: لن يدخل الجنة أحد يَعْمَلُهُ (الباء هنا بعمله) هنا في النفي، فالمقصود بالباء هنا بقاء العوض، أي معنى الحديث: لن يدخل أحد الجنة كعوض عن العمل سواء بسواء، ما يمكن؛ حتى النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الإنسان مهما قدم من الأعمال فلن يبلغ الحق الذي يستحقه الله عز وجل لأجل أن يعوض بالجنة، ولهذا قال: "وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله، بل ذلك برحمة الله وفضله".

"والباء التي في قوله: {جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} التي استدلت بها الجبرية تختلف عن الباء هذه، يقول: الباء هنا بقاء السبب، فمعنى الآية: جزاء بسبب أعمالكم، رحمة الله عز وجل التي أدخلتكم الجنة لها سبب، ما سببها؟ العمل.

فهناك الباء المنفية بقاء العوض، أن تكون الجنة عوض للعمل، والباء التي هنا المثبتة السبب، جزاء بسبب أعمالكم، يقول: "والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته"، لاشك، حتى هذا العمل الذي هو السبب هو خلق لله عز وجل، ولهذا الكل بفضل الله وبرحمته سبحانه.

يقول: "وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} فليس معنى الآية أن كل ما خلقه الله فهو حسن، لا، الله بيّن وخلق الخلق وبيّن منها السيئ ومنها الحسن، ومنها المحبوب ومنها المكروه، ومنها الإيمان ومنها الكفر، ومنها الطاعة ومنها المعصية، إذاً ما المقصود بقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}؟

يقول: "معنى الآية: أحسن المصورين المقدرين، والخلق يُذكر ويُراد به التقدير"، وهو المراد هنا، أي الخلق هنا المقصود به التقدير، فتبارك الله أحسن المقدرين، "بدليل قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} أي الله خالق كل شيء مخلوق فدخلت أفعال العباد في عموم "كل"، وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم "كل" -أي أدخلوا صفة الكلام في قوله: {اللَّهُ خَالِقُ

كُلُّ شَيْءٍ} - وأخرجوا أفعال العباد من عموم {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} "وهذا تناقض واضح منهم!!! فالله عز وجل بين {والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} أي خلقكم وعملكم معاً.

الحلقة (٢٢)

◀ تمتة الكلام عن القضاء والقدر والرد على المعتزلة:

الطحاوي عاد مرة أخرى وأشار إلى مسألة القضاء والقدر والرد على المنكرين فاضطر المؤلف أن يعود إلى هذه المسألة؛ لكن بحثها من جهة أخرى.

يقول: "وهذه شبهة من شبه القوم التي فرقته" - يعني المعتزلة - من الشبه التي تمسكوا بها في نفي عموم القضاء والقدر عن الله عز وجل،

يقول: "بل مزقتهم كل ممزق"، هذه شبه أخرى ومن أكبر الشبه التي تمسك بها المعتزلة في نفي عموم المشيئة والخلق عن الله عز وجل، وإخراج أفعال العباد عن عموم مشيئة الله عز وجل .

قال: "وهي أنهم قالوا: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟؟"، يقول: أن المعتزلة يقولون: إذا كنتم تقولون أن الله هو الذي خلق أفعال العباد ثم يحاسبهم عليها ويعذبهم عليها فيكون في ذلك ظلم أين العدل التي اتصف الله عز وجل به .

◀ كيف يخلق شيئاً ثم يحاسبهم عليه؟؟ يقول المؤلف: "هذا السؤال لم يزل مطروقا في العالم على ألسنة الناس"، يقول: ما هو مجدي ما أتيت به معاصر المعتزلة ما هو مجدي فقد سبقكم في هذا أمم وسيلحقكم إليه أمم .

يقول: "وكل منهم يتكلم في جوابه على حسب علمه ومعرفته وعنه تفرقت بهم الطرق" يعني بسبب هذا السؤال كيف يخلق الله عز وجل الفعل ويحاسب العباد عليه؟ اختلفت الناس مذاهبهم في مقابل الإجابة على هذا السؤال..

١- "فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى" وهؤلاء هم المعتزلة الذين اخرجوا أفعالهم عن قدرة الله قالوا الأفعال لا قدرة لله عز وجل عليها، قالوا: من أجل أن ثبت لله العدل، ولهذا سمو أنفسهم بأهل العدل ومن أصولهم العدل ومعنى العدل عندهم كما سيذكره المؤلف: إنكار القضاء والقدر.

٢- "وطائفة أنكرت الحكم والتعليل وسدت باب السؤال" وهؤلاء الجهمية والأشاعرة، قالوا: الله يفعل لا لحكمة ولا يجوز أن تقول لماذا كذا ولماذا كذا، ولهذا خلق هؤلاء وخلق لهم المعاصي وعذبهم عليها محض مشيئته وإرادته، وخلق هؤلاء وخلق أفعالهم الحسنة وجزاهم بالجنة بمحض المشيئة، ما في حكمة ما في تعليل ما في سبب ولا تسأل لماذا ويقول: أي سدت باب السؤال..

٣- "وطائفة أثبتت كسباً لا يعقل" وهؤلاء الأشاعرة وحاولوا التوفيق بين الجبرية وبين المعتزلة قالوا: أفعال العباد خلق لله وكسب للمخلوق، جاءوا بمسألة الكسب، في واقع الأمر لما بحث أهل العلم عن حقيقة هذا الكسب وجدوه شيء لا يعقل، ولهذا نصوا على أن مما لا يعقل مع طفرة النظام وأحوال أبي هاشم كسب الأشعري، لا يمكن عقله وتصوره ولهذا صار قولهم في الكسب يرجع إلى قول الجبرية، ولهذا ألحق مذهبهم في باب القضاء والقدر بمذهب الجبرية..

يقول: "أثبتت كسباً لا يعقل وجعلت الثواب والعقاب عليه" على الكسب، طيب ما هو حقيقة هذا الكسب؟ ماله حقيقة .

٤- "وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدورين بين قادرين ومفعول بين فاعلين" وهو قول الغزالي، الغزالي ذهب إلى هذا القول أيضاً الذي غير معقول

هـ- "وطائفة التزمت الجبر وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرُونَ عليه" وهذا كلام الجبرية على وجه العموم.

يقول: "هذا هو السؤال الذي أوجب هذا التفرق والاختلاف" الذي جعل الناس يتفرقون إلى هذه الفرق وهذه الطوائف هو هذا السؤال المورد.. كيف الله عز وجل يخلق الفعل ويعذب أو يحاسب عليه؟

يقول: "الجواب الصحيح" هذا أمر مهم أن تعرف الجواب على هذا السؤال لأنك إذا عرفت الجواب سلمت عقيدتك وسلمت من هذه الشبهات التي أوجدها هؤلاء أو غيرهم .

يقول: "أن يقال إنما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقا لله تعالى فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنوب يكسب الذنب و من عقاب السيئة السيئة بعدها ، فالذنوب كالأفراض التي يورث بعضها بعضا" يقول: أنت وقعت في هذا الذنب بسبب ذنب سبقه ، وهذه سنة الله عز وجل في عباده أن الذنب يجر إلى الذنب وأن السيئة تجر إلى السيئة وفي هذا أدلة لا مجال لذكرها الآن.

يقول: "يبقى أن يقال فالكلام على الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب"، يقول: الذنب الأول الذي جلب ما بعده من الذنوب كيف حصل لهذا الذنب ما قبله ذنب.

الجواب : قال: "هو عقوبة أيضا على عدم فعل ما خُلق له وفطر عليه" ، الله خلقك لعبادته وفطرك على هذا الأمر فعملت على خلاف ما خُلقت له فهذا ذنب وعلى ما فطرت عليه فجوزيت بهذا الذنب. ويقول: "فطره على محبته وتألهه والإنابة إليه ثم قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه من محبة الله عليه وعبوديته والإنابة إليه عوقب على ذلك أن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي فإنه صادف قلبا خاليا قابلا للخير والشر فلو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر"، قلبك الله عز وجل خلقه خاليا مهيبا لقبول الخير والشر فأنت تركته ما ملأته بالخير وما ملأته بالشيء الذي فطرك الله عز وجل وخلقك لأجله، فجاء الشيطان واستغل الفرصة وملأه بالشر فهذا عقوبة لك لما لم تملأه بالخير .. يقول: "كما قال تعالى {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}" يوسف عليه السلام لما امتلأ قلبه بالإيمان صرف الله عنه السوء والفحشاء لأن قلبه ممتلئ بالإيمان ما كان في مكان للفحشاء صار سببا بأن صرفه الله عز وجل عن ذلك، ويقول قال: "عن إبليس {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}" إبليس أقسم بالله أن يغوي الناس أجمعين إلا المخلصين الذين عمروا قلوبهم بالإخلاص فلا مجال للشيطان أن يلج داخل هذا القلب أو أن يضع سمومه داخل هذا القلب. وقال الله عز وجل {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}

والإخلاص: "خلوص القلب من تأله ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته خالصة لله فلم يتمكن منه الشيطان، وأما إذا صادفه فارغا من ذلك فيتمكن منه بحسب فراغه فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص وهي محض العدل"، وكونك ما ملأت قلبك بالإخلاص والتأله لله عز وجل فأنت الذي تسببت بهذا حيث جعلت قلبك مهيباً بأن يضع الشيطان فيه ما يشاء

يقول: "فإن قلت فذلك العدم" يعني: عدم وجود الخير والشر ويكون هذا القلب ما فيه شيء معدوم ، معدوم الخير ومعدوم الشر ، يقول: "فإن قلت فذلك العدم من خلقه فيه؟؟"

قيل: "فهذا سؤال فاسد - لما تسأل عن العدم سؤالك فاسد لماذا؟ - فإن العدم كاسمه عدم ! لا يفترق إلى تعلق التكوين والإحداث به ، فإن عدم الفعل ليس أمراً وجودياً حتى يضاف إلى الفعل" ، انعدام الشيء لا ينسب إلى أحد لأنه عدم كاسمه

ما تقول الذي فعل، لأن الفعل إذا وقع ينسب إلى فاعل، لكن العدم عدم. يقول: "بل هو شر ومحض و الشر ليس إلى الله سبحانه" أي العدم، العدم شر محض هذا لا ينسب إلى الله ولا نقول أن الله هو الذي خلقه.

"كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليبك وسعديك والخير كله بيدك والشر ليس إليك) -لأن الشر محض وسبق الكلام عليه- وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة حتى يقول الله يوم القيامة: (يا محمد، فيقول لبيك وسعديك والخير كله بيدك والشر ليس إليك) وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشياطين إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه عوقبوا على ذلك بتسليطهم عليه"، كونهم تولوا الشياطين وأقبلوا على الشياطين وفتحوا أبوابهم للشياطين وفتحوا قلوبهم للشياطين صار هذا سببا لضلالتهم ولاستغلال الشيطان الفرصة في ذلك.

نعم فإن قلت: "إن كان هذا الترك - يعني ترك البر والتقوى وترك الإيمان - أمراً وجودياً عاد السؤال جذعاً وإن كان أمراً عديمياً فكيف يعاقب على العدم؟" يقول: إن كان ترك الإيمان والتقوى إن كان أمر عديمي عاد في المسألة من جديد، وإن كان أمر وجودي فكيف يخلق الله عز وجل هذا الأمر ثم يعاقبني عليه؟؟ فهذا السؤال عاد جذعاً من جديد.

يقول: " قيل ليس هناك ترك وهو كف النفس ومنعها عما تريد وتجنبه فهذا قد يقال: أنه أمر وجودي"، يعني أن الله عز وجل ما كف النفس ومنعها أن تختار الخير. الإنسان يقول هذا أمر وجودي خلقه الله عز وجل ويعاقب عليه، "وإنما هو عدم وخلو من أسباب الخير وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسول فله فيه عقوبتان" الله في هذا الشخص الذي ترك الإيمان واختار الكفر عقوبتان:

"أحدهما: جعله مذنباً خاطئاً وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله؛ وهذه العقوبة لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها لشهوته وإرادته وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات" يعني كون الله عز وجل جعله مذنب مخطئ هذه عقوبة من الله لكن قد لا يحس بها هذه العقوبة لأنها تتوافق مع هواه،

العقوبة الثانية: "العقوبة المؤلمة وهي بعد فعل السيئات وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: {فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}

فهذه العقوبة الأولى أن الله افتتح عليهم باباً للشهوات وأبواب المعاصي، لماذا؟ لأنهم نسوا ما ذكروا به وهذه لا يحسون بها، العقوبة الثانية: وهي التي يحسون بها حيث قال: {حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}

العقوبة الثانية وهذه هي العقوبة التي يحسون بها، "فإن قيل: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منييين إليه محبين له وحده؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم وإلقائه فيها؟ قيل: لا"، يعني هل كان يمكنهم أن يأتوا بهذا الإخلاص والإنابة والمحبة من غير خلق الله عز وجل أم هو محض فعل الله عز وجل؟

الجواب: هو لا، "بل هو محض منته وبفضل من الله عز وجل وهو من أعظم الخير الذي بيده والخير كله بيديه ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه" وهو محض فضل الله عز وجل ومنة من الله، هذا الإخلاص والإنابة،

يقول: "وإن قيل فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم -أي هذا الإخلاص- ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال ، وكان منعهم منه ظلماً "إذا كان الله ما خلقه فيهم إذا هو ظالم لهم "ولزمكم القول بأن العدل تصرف المالك في ملكه بما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"

قيل الجواب: "لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظلماً وإنما يكون المانع ظلماً إذا منع غيره حقاً" يعني كونه منع عنهم الإخلاص والإنابة ما هو ظلم لماذا ؟ قال: لأن الظلم هو أن تمنع الغير حق له هذا هو الظلم وهذا هو حقيقة الظلم في لغة العرب، يقول "إنما يكون المانع ظلماً إذا منع غيره حقاً لذلك الغير عليه " إذا جاك إنسان ومنعك من تملك سيارتك الذي اشتريتها بجرّ مالك نقول ظالم ، منعك من دخول بيتك نقول هذا ظالم ، وهذا هو الظلم وهذا هو الذي حرّمه الرب على نفسه، أي يمنع الإنسان حقاً هو له، الله عز وجل قال: (إني حرمت الظلم على نفسي)، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} وهذا هو القدر الذي حرّمه الله عز وجل أي يمنع الإنسان حقاً له، وأوجب على نفسه خلافه، أوجب على نفسه العدل أما إذا منع غيره ما ليس حقاً له ، الإخلاص هل هو حق لجميع العباد ؟

لا، طيب إذا منعه الله عز وجل على بعض الناس هل يعتبر ظالم ؟ لا ، الآن مالي الذي أملكه استقللاً ، أعطيت جزء من هذا المال فلان من الناس تكراً وتفضلاً مني، ولم أعط من هذا المال زيد من الناس هل اعتبر ظالم لزيد؟؟ ، الجواب: لا ، لا يقول عاقل أنت ظلمت زيد ، هذا ملكي أتصرف فيه كيفما أشاء فالله تعالى لما أعطى الإخلاص والإيمان، أعطاه بلال أو أعطاه سلمان أو أعطاه صهيب ومنعه أبا لهب وأبا جهل هل يكون ظالم لأبي لهب ولأبي جهل؟؟

الجواب : لا، لأن هذا ملك لله وحق لله وفضل لله يهبه لمن يشاء ويمنعه من يشاء ولا يكون ظلماً لمن منعه، ولهذا قال: "وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضل ومنته عليه لم يكن ظلماً بمنعه فمنع الحق ظلم ومنع الفضل والإحسان عدل"، والله كونه منع وحجب الإيمان عن الكافر عدل منه، نعم تفضل على المؤمن بالإيمان ولم تفضل على الكافر، وهو سبحانه العدل في منعه كما هو المحسن المنان بعباده. قال: "فإن قيل إذا كان العطاء والتوفيق إحساناً ورحمة فهل كان العمل له والغلبة كما أن رحمته تغلب على غضبه؟؟" يعني إذا كان العطاء والتوفيق إحساناً ورحمة فلما لم يعم به الخلق لماذا؟ كما أن رحمته تغلب غضبه؟؟ قيل المقصود في هذا المقام بيان، يقول المؤلف: ليس كلامنا الآن لماذا لم يعم بإحسانه الناس، بل الكلام الآن هل منع الكافر من الإيمان ظلم أم لا ؟ بس، ولهذا هذا الجواب عليكم أما هذه مسألة أخرى .

يقول: "المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم بل هو محض العدل، وهذا السؤال عن الحكمة" ، يقول: أنتم الآن سألتهم عن الحكمة "التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال؟" يعني أنتم تقولون ما الحكمة لماذا الله عز وجل قدم العدل على الفضل بالنسبة لإيمان الكافر ليه ما منحه فضله، ولم يعامله بعدله ، لماذا عامله بعدله ؟

قال: أنتم تسألون عن الحكمة والجواب سهل، وقال: "وهلا سوى بين العباد في الفضل ؟"، يعني كأنكم تقولون: ما الحكمة في كونه ما جعل العباد كلهم في مستوى واحد في الإيمان؟ وهذا السؤال حاصلة لم تفضل على هذا ، ولم تفضل على الآخر هذا حقيقة السؤال ليه تفضل على زيد ولم تفضل على عمرو.

"وقد تولى الله سبحانه الجواب" بقوله: خذوه من الله وليس منا جوابكم يقول الله عز وجل فيه "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" وقوله: {لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَفْخِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم هم أجراً أجاز قال

عز وجل - قال لليهود يوم القيامة- هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟، قالوا: لا -هل منعتكم شيئا من حقكم؟؟، قالوا: لا - قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء"

أنتم تسألون الآن معاشر الجبرية ومعاشر القدرية عن الحكمة ، نقول "وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه"، ليس من حكمة الله عز وجل أن يبين لعموم الناس الحكمة في كونه أعطى هؤلاء ومنع أولئك بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد حتى أبصر طرفا يسيرا من حكمته "في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه" وتأمل أحوال ما حول ذلك استدل بما علمه على ما لم يعلمه ،إذا ظهر لك شيء يسير بصيص من نور حكمة الله عز وجل تبين أن علمه لا يساوي شيء في علم الله عز وجل وأن ما خفي عليه أضعاف أضعاف ما ظهر له....

ويقول: "لما استشكل أعدائه المشركون هذا التخصيص"، يعني المشركون كأنهم اعترضوا على الله ، لماذا حُصص هؤلاء بالإيمان وأولئك بالكفر؟ ، يقول: قالوا {أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا} ماذا أجاب الله عليهم؟ قال الله لهم: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}

"فتأمل هذا الجواب ترى في ضمنه أنه سبحانه وتعالى أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر من المحل الذي لا يصلح لغرسه" بمعنى ذواتكم غير صالحة للإيمان، الله يعرف المحل القابل للشكر فلهذا وهبه الإيمان أما ذواتكم غير قابلة للإيمان فمنعكم الإيمان عدلا منه سبحانه فلو غرست فيه لم تثمر فكان غرسها هناك ضائعا لا يليق بالحكمة، يعني لو أعطاكم الإيمان وذواتكم غير قابلة للإيمان ما كان لهذا الإيمان أي ثمرة كما قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} يقول: "فإن قيل إذا حكمتكم باستحالة الإيجاد من العبد" يعني أن العبد لا يستطيع هو الذي يخلق فعل نفسه "فإذا لا فعل للعبد أصلا"، قيل : يقول: إذا قلت أن العبد لا يستطيع أن يخلق فعله إذا العبد ليس له فعل البتة الجواب : "قيل العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة حقيقية قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ}، {فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}" أثبت لهم الفعل

"وإذا ثبت كون العبد فاعلا فأفعاله نوعان :

الأول: نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته فيكون صفة له ولا يكون فعله كحركة المرتعش"، يعني المرتعش الذي يرتعش لا إراديا هذا فعل، لكن بغير إرادته فنسميه الصفة له لا نسميه الفعل .

أما النوع الثاني: المقارن للقدرة بحيث رفع هذه النظارة ، رفع هذا القلم ، له قدرة ، يقول فيوصف بكونه صفة وفعلا وكسبا للعبد هذا الفعل يقال له كسب للعبد وفعل للعبد وصفة للعبد أما حركة المرتعش فنقول فلان مرتعش موصوف بالارتعاش لكن لا يقال أنه يفعل الارتعاش لأن الحركة

لا إرادية غير داخلية في إرادتي يقول: "كالحركة الاختيارية والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلا مختارا هو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له" هو الذي خلق قدرة العبد وهو الذي يجعل العبد يفعل أو لا يفعل يجعله يستطيع الصلاة أو لا يستطيع الصلاة "ولهذا أنكر السلف الجبر فأن الجبر لا يكون إلا من عاجز" ليس له حيلة لهذا قال الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل في الماء

الحلقة (٢٣)

◀ تتمة الكلام على مذهب الجبرية :

وهم الذين زعموا أن فعل العبد كحركة المرتعش وكالريشة في مهب الريح وهذا هو الجبر الذي أنكره السلف، وكما ذكرنا في السابق أن الجبر لا يكون إلا من عاجز فلا يكون إلا مع الإكراه .

↪ لكن هل يوصف الله عز وجل بالإجبار بهذا الاعتبار ؟

الجواب : " لا يوصف الله بهذا الإجبار بهذا الاعتبار لأنه هو خالق الإرادة ، والمراد قادر أن يجعله مختاراً بخلاف غيره، ولهذا جاء في ألفاظ الشارع الجبل دون الجبر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشجع ابن أبي قيس: (إن فيك خصلتين يجبهما الله الحلم والأناة)، فقال: أخلقين تخلقت بهما أم خلقتين جبلت عليهما؟ لم يقل: أجبرت عليهما أو جبرني الله عليهما ، جبلت عليهما بل قال: خلقتين جبلت عليهما فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقتين يجبهما الله ورسوله ، والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري" لا يعذبه على الفعل الذي يكون بلا قدرة ولا اختيار منه "والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري هذا أمر معلوم بالحس معلوم بالفطرة"

الحاصل المؤلف لخص الكلام المتقدم في الحلقة السابقة والتي قبلها إن فعل العبد فعل له حقيقة لا كما يقول الجبرية ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى لا كما يقوله القدرية ليس هو نفس فعل العبد كما يقول الجبرية ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله في قوله: وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد أثبت للعباد فعلاً وكسباً وأضاف الخلق إلى الله تعالى والكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر كما قال تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} إذن الأفعال هي فعل للعباد وكسب لها يجازون عليها إن خيراً فخييراً وإن شراً فشراً. ثم انتقل الطحاوي رحمه الله وقال: " ولم يكلفهم الله إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم " إلى آخر ما ذكر ، هذه الجمل تضمنت بعض المسائل منها على سبيل الإجمال سنختصر فيها.

↪ هل تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً ؟

ذهب الأشعري إلى جواز تكليف ما لا يطاق عقلاً لكن، هل ورد الشرع به ؟ اختلف أصحابه في ذلك، واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان فإنه تعالى أخبر أنه لا يؤمن وأنه سيصلى نارا ذات لهب فكان مأموراً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن وهذا تكليف بالجمع بين الضدين وهذا محال، بمعنى أن الله عز وجل يجوز أن يكلف بما لا يطاق .

الجواب الرد عليهم: يقول الشيخ : "هذا الجواب بالمنع" ، نمنع أن يكون الله عز وجل كلف عباده بما لا يطيقون وأن التكليف بما لا يطيقون جائز عقلاً نقول: لا ، ما ذكرتم منه من حال أبي لهب فإننا لا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، إذا الاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة له، الله عز وجل أعطاه السمع وأعطاه البصر وأعطاه عقل وأرسل إليه رسولاً وأنزل إليه كتاباً وبين له طريق الحق وطريق الباطل، فهو يستطيع أن يتبع النبي صلى الله عليه وسلم كما تبعه أصحابه ، ولكنه أختار طريق الشر فتنكر فلم يكلفه الله عز وجل بما لا يطيق فما كلفه إلا بما يطيقه كما تقدم الكلام في الاستطاعة تماماً ، ذكر أمثلة على هذا ثم انتقل رحمه الله .

* الشاهد : أن تكليف ما لا يطاق غير جائز عقلاً وغير واقع شرعاً ؛ لأنه يتنافى مع عدل الله عز وجل وحكمة الله عز وجل وعلم الله عز وجل ، يقول: "وقوله ولا يطيقون إلا ما كلفهم" إلى آخر الكلام، أي ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلاء لا حول ولا قوة إلا بالله دليل على

إثبات القدر وقد فسرهما الشيخ بعدها ولكن في كلام الشيخ إشكال فطال ، فذكر شيئاً من الإشكال، انتقل بعد ذلك ليفرق بين القضاء الشرعي والقضاء الكوني والإرادة الشرعية والإرادة الكونية والأمر الشرعي والأمر الكوني والإذن الشرعي والإذن الكوني، والكتابة الشرعية والكتابة الكونية، والحكم الشرعي والحكم الكوني، والتحريم الشرعي والتحريم الكوني، والكلمات الشرعية والكلمات الكونية. ونمر عليها على عجل المؤلف ذكر كل واحد وذكر عليها أمثلة نكتفي بهذا القدر في معرفة الأمثلة فقط.

بدأ بالقضاء الكوني في قوله {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} وقضاء الله الكوني وكلماته الكونية والشيء المتعلق بالجانب الكوني هذا نافذ لا محالة بخلاف الشرعي، هذا هو الفرق بين الاثنين الشرعي قد يقع وقد لا يقع ، الكوني لا بد أن يقع فالقضاء الكوني كما في قوله {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} هذا أمر قد وقع ولا خيار فيه أما القضاء الديني الشرعي في قوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}

❧ ولكن هل عبده الناس جميعاً ؟ لا، فمنهم من أشرك به فلم يقع من بعض الناس .

ويقول : " أما الإرادة الكونية والدينية فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: "ولا يكون إلا ما يريد"، تقدم الكلام على التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، "أما الأمر الكوني ففي قوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}-ولهذا يقع حتماً- وكذلك قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا} " فالأمر وقع حقا ولا يمكن تأخر وقوع هذا الأمر لأنه أمر كوني ،، أما الأمر الشرعي في قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} وقوله {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا}

❧ لكن هل يلزم الوقوع ؟ لا، لا يلزم الوقوع ،

"وأما الإذن الكوني ففي قوله: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، والإذن الشرعي في قوله، {مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}

"وأما الكتاب الكوني ففي قوله {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}-يعني واقع لا محالة-وقوله تعالى{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}-يعني هذا واقع لا محالة-والكتاب الشرعي الديني قوله{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} "نعم، ما يلزم قد يقتل شخص آخر ولا يقتص منه"، وقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}**الله قد كتبه ولكن هل يقع حتما؟ لا، قد لا يقع من بعض الناس وقد لا يصوم.

"وأما الحكم الكوني ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} وقوله تعالى {قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} وهذا واقع لا محالة - والحكم الشرعي في قوله تعالى {أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ} ،

{غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}، {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْحَكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} وأما التحريم الكوني ففي قوله تعالى {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} ولهذا وقع لا محالة - {وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} - وهذا أيضا وقع لا محالة - أما التحريم الشرعي ففي قوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ} "

❧ الله حرمها لكن هل يلتزم العباد بذلك ؟ فمنهم من يلتزم ومنهم من لم يلتزم بهذا التحريم قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة حريم ، وقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ امِّهَاتُكُمْ}،

"وأما الكلمات الكونية ففي قوله تعالى {تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا}، وقوله: (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر) "فكلمات الله هنا نافذة لا محالة لا يجاوزها مخلوق كائن من كان، والكلمات الشرعية الدينية في قوله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}

فهذا هو التقسيم بالنسبة للإرادة والحكم والكتابة والإذن إلى آخره إلى شرعي وكوني.

وقلت لكم الفرق بين الاثنين:

الكوني	الشرعي
واقع لا محالة	لا يلزم منه الوقوع
لا يؤاخذ به الإنسان	يؤاخذ به الإنسان
لا تتعلق به القدرة ولا الاستطاعة	متعلقة به القدرة والاستطاعة

يقول: " وقوله يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً ، الذي دل عليه القران من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد يقتضي قولاً وسطاً بين قول القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً" قد تقدم الكلام عليه أن الظلم الذي نفاه الله على نفسه غير الظلم الذي نفهمه من واقع العباد كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوه، "القدرية قالوا: أن الله عز وجل يقدر الخير ثم يحاسب عليه، هذا ظلم، فنقول: ليس هذا هو الظلم، الظلم الحقيقي أن تمنع شخص عن الشيء الذي يستحقه هذا هو الظلم.

يقول: "إن ذلك تمثيل لله تعالى بمخلقه " لأنهم لمن قاسوا الخالق بالمخلوق في الظلم نفوا القدر عن الله عز وجل، ويقول: " وقياس له عليهم وهو الرب الغني القادر وهم العباد الفقراء المقهورون وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة كما يقوله المتكلمين، "بعض المتكلمين قالوا: الظلم الذي حرمه الله على نفسه هذا ممتنع عنه سبحانه وهذا ليس بصحيح إذ لو كان ممتنعاً لم يتمدح الله عز وجل بتركه، الشيء المتمدح بتركه إذا كان مقدور، والله المثل الأعلى لكون الأعمى لا يمدح بأنه

لا يبصر ما حرمه الله عز وجل لأنه غير مقدور له لكن يمدح الشخص المبصر لأنه أمتنع عن شيء قادر عليه.

كما "يقولون أنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم بل كل ما كان ممكناً فهو منه - لو فعله - عدل إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهى والله ليس كذلك، فإن قوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}، وقوله {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، وقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ}، وقوله {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، وقوله {الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} وذلك يدل على نقيض هذا القول "بمعنى أن الله إذا تمدح بترك الظلم فهذا يدل على أن هذا الشيء مقدور له وليس بمتنع، إنما تنزه عنه سبحانه وتعالى، "ومنه قوله ما رواه رسوله صلى الله عليه وسلم: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)"

يقول: "فهذا دل على شيئين: أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم والممتنع لا يوصف بذلك"، كيف يحرم الله عز وجل على نفسه شيئاً وهو ممتنع، هذا لا يحرم هذا أصلاً ممتنع فكونه حرم على نفسه الشيء هذا يدل على أنه مقدور يستطيع أن يفعله.

" الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة وهذا يبطل احتجاجهم لأن الظلم لا يكون إلا

من مأمور منه " بمعنى الظلم زعموا أنه لا يكون إلا من شخص أو من مخلوق يؤمر وينهى وهذا ليس بصحيح ، ويقول: " الله ليس كذلك فيقال لهم هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة وحرّم على نفسه الظلم وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه لا ما هو ممتنع عليه وأيضاً فإن قوله {فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} فسرّه السلف بأن الظلم أن توضع عليه سيئات غيره، معنى الظلم المنفي هنا فلا يخاف العبد يوم القيامة ظلماً بمعنى أن توضع عليه سيئات غيره، تأتي سيئات فلان وفلان ونجمها على فلان وهو ما له علاقة بها والله عز وجل قال: {لَا يَخَافُ ظُلْمًا} والهضم: أن ينقص من حسناته ، أن يؤخذ من حسناته بلا سبب كما قال تعالى {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} وأيضاً أن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يؤمن من ذلك أيضاً، مما يدل قول الله عز وجل {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} إذا كان ممتنع كيف يخاف منه الإنسان، الممتنع لا يخاف منه الإنسان هذا يدل على أن الظلم ليس بممتنع ولكن الله تنزه عنه ولهذا يمدح بهذا الشيء.

ويقول: "والقرآن يدل على نقيض هذا القول في مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له وما لا ينبغي له حتى علم أنه منزّه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم كما أنه منزّه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم وذلك في قوله تعالى {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثاً وأنكر على من حسب ذلك وهذا فعل، وقوله تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} أي نزه الله عز وجل نفسه أن يساوي بين المسلمين والمجرمين والطائعين بالعاصين، وقوله تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}

"إنكار منه على جواز أن يسوي الله بين هذا وهذا"، أما قوله {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} "إنكار على من حسب أنه يفعل هذا وإخبار بأن هذا حكم سيء قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه" لا، لأنه لا يقدر عليه فالله على كل شيء قدير وليس بممتنع عليه لكن الله تنزه عن هذا الفعل ولا يفعله البتة، ويقول: "روى أبو داود والحاكم في المستدرک في حديث ابن عباس وعبادة بن الصامت وسعيد بن ثابت في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خير لهم من أعمالهم)" ويقول: "وهذا الحديث من ما يحتج به الجبرية - لأنه ظاهر في كونهم تمسكوا به- وأما القدريّة فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ولهذا قابلوه بالتكذيب أو التأويل"، فريقتا منهم كذبوا به وقالوا خبر آحاد لا نقبله، وفريقتا آخر قابلته بالتأويل كما صنع أهل البدع دائماً في النصوص التي لا تتوافق مع عقولهم ومع مذهبهم .

من أسعد الناس بمعنى هذا الحديث ؟

"أسعد الناس أهل السنة الذين قابلوا بالتصديق وعلموا من عظمة الله تعالى وجلاله ، وقدر نعم الله على خلقه وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم إما عزاً وإما جهلاً وإما تفريطاً وإضاعة وإما تقصيراً في المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصى فيذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة إليه ومتعلقة به بحيث يكون القلب عاكف على محبته إلى آخر ما ذكر"

*الشاهد : أنه لو عذبهم وهو غير ظالم لهم لأنهم ما أعطوه حقه الذي يستحقه سبحانه ولو رحمهم لكانت رحمته تسعهم سبحانه وتعالى .

❖ **الشاهد :** أن ظاهر هذا الحديث لا يدل على ما ذهب إليه الجبرية، ولا يقابل كما قابله القدرية بالتكليف والتأويل، بل ظاهره يشهد لم ذهب إليه أهل السنة والجماعة .

بعد ذلك انتقل المؤلف إلى مسألة متعلقة بالموت وما بعد الموت والآخرة ، وهي:

❖ **مسألة: انتفاع الأموات بفعل وعمل الأحياء :**

وذلك عند قول الطحاوي رحمه الله : (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات)

يقول الشيخ : " اتفق أهل السنة والجماعة " ، الآن يريد أن يحرر محل النزاع في مسألة انتفاع الأموات بسعي الأحياء ، هل إذا عمل الأحياء عملاً للأموات ينتفع الأموات به أو لا ؟

أولاً : لابد من تحرير محل النزاع ، أين محل الخلاف ؟ وأين محل الاتفاق ؟ ، محل الاتفاق أن أهل السنة اتفقوا على أن الأموات ينتفعون بسعي الأحياء بأمرين ، هذا بالاتفاق .

■ **السبب الأول: بما تسبب به وما تسبب إليه الميت في حياته**، ما كان سبباً إليه في حياته مثال ذلك: لو وضع صدقة جارية، جاء وحفر بئر، ثواب هذا العمل يصل إلى الميت لأنه هو الذي تسبب به، ترك علم نافع ترك مؤلفات، ترك محاضرات، ترك طلاب انتفعوا بعلمه هو الذي تسبب به إذن أجر هذا العمل يصل إليه وهذا باتفاق أهل السنة إذن هذا هو السبب الأول في انتفاع الميت بسعي الأحياء.

■ **السبب الثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج**، فالدعاء والاستغفار لأن النص ورد بذلك أن يستغفر المسلمون لهذا الميت فينتفع الميت بالاستغفار {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} ، فدل على أن الأموات ينتفعون بهذا الاستغفار، أيضاً الدعاء، قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، أو ولد صالح يدعو له) وأيضاً شرعت الصلاة للميت والدعاء للميت فدل على أنه ينتفع بهذا العمل، أيضاً الصدقة سيأتي الدليل عليها حديث المرأة التي افترقت نفسها والحج أيضاً حديث المرأة الحثعمية، فكل هذا ثبتت في النصوص واتفق أهل السنة أن هذه الأشياء يصل ثوابها إلى الميت

اختلفوا في وصول ثواب الحج هل هو يصل ثواب العمل أو ثواب المال الذي ينفق في الحج ، يقول المؤلف محمد بن حسن رحمه الله "ذكر أنه يصل إلى الميت ثواب النفقة والحج للحاج، أما عند عامة العلماء فإن ثواب الحج للمحجوج عنه العمل وما أنفقه ، وهذا هو الصحيح ."

الحلقة (٢٤)

❖ **مسألة: العبادات البدنية الصرفة هل يصل ثوابها للميت؟**

كالصيام والصلاة وقراءة القرآن والذكر، هل يصل ثوابها إلى الميت إذا أهديت له أم لا؟

ذهب الجمهور ومنهم أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصول ثواب هذه الأعمال، وقابلهم أصحاب الفريق الثاني وهم الشافعي ومالك إلى عدم وصولها والاقتصار على ما ثبت بالنص .

"أهل البدع خالفوا الفريقين وذهبوا إلى عدم وصول شيء البتة ! لا الدعاء ولا غيره"، طبعاً استدلوا بأدلة كما ذكر المؤلف من المتشابه من القول، فاستدلوا بما تشابه عليه من قوله {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} وقوله عز وجل {وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وقوله {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} هذه أدلة أهل البدع الذين منعوا من وصول شيء من ثواب الأعمال إلى الميت البتة نرجئ الكلام عليهم ، سيذكر الآن المؤلف الأدلة على وصول ثواب عموم الأعمال إلى الميت؛ منها

الشيء الثابت بالنص، وسيذكر الأدلة الدالة على ما ذهب إليه الجمهور من وصول بقية الأعمال،

◀ الأدلة الدالة على وصول ثواب بعض الأعمال:

ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده) فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن يتسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه "، هذا الحديث هو دليل لأهل السنة في وصول ثواب ما تسبب إليه الميت وأيضاً استدل به أهل البدع في منع وصول ثواب الأعمال التي لم يتسبب فيها الميت .

ويقول: "استدل المقتضون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة -يعني إجابة البعض عن البعض- كالصدقة والحج، بأن النوع الذي لا تدخله النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن يختص ثوابه بفاعله ولا يتعداه"

يقول المؤلف: أصحاب الفريق الثاني منهم الشافعي ومالك الذين ذهبوا على عدم وصول ثواب الأعمال البدنية إلى الميت قالوا: الاختصار فيها لأن هذه الأعمال لا تجوز فيها الإجابة، فكما أنه لا يجوز أن يسلم شخص عن ألف شخص وأن يشهد الله عز وجل أو يؤدي شهادة التوحيد شخص عن شخص، فكذلك لا يصل ثواب شيء من هذه الأعمال وكذلك لا يمكن أن يصلي إنسان عن إنسان، ولا إنسان أن يصوم عن إنسان، ولا إنسان أن يقرأ عن إنسان، فكما أنها لا تجوز الإجابة في الدنيا كذلك لا تجوز الإجابة في الآخرة فلا يصل ثواب شيء منها إلى الميت .

يقول: "ثوابه يختص بفاعله لا يتعداه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره"، وقد روى النسائي بسنده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم - وهذا أيضاً مما استدلوا به - أنه قال: (لا يصلُّ أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدّاً من حنطة)، والصحيح في هذا الحديث الذي استدلوا به أنه موقوف على ابن عباس وليس مرفوعاً، فالمرفوع فيه مقال، واستدل الجمهور، أبو حنيفة والإمام أحمد وجمهور السلف في وصول أو انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه، ذكر المؤلف أنهم استدلوا بالكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح،

♦ الأدلة من الكتاب :

فاستدلوا بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} "فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء، إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة، وكذلك الدعاء له بعد الدفن"، فكل هذه المواطن شرع فيها الدعاء للميت فدل على أنه ينتفع بذلك، فلو لم يكن ينتفع لما شرع الدعاء له، فصار الدعاء في هذه المواطن عبث والله منزّه وشرعه منزّه عن العبث سبحانه وتعالى.

♦ الأدلة من السنة :

يقول: "في سنن أبي داود في حديث عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل) ، وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية)" ، وذكر حديث عائشة رضي الله عنها (سألت النبي صلى الله عليه وسلم ، كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور، قال: قلوا السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منكم ومننا والمستأخرين وإنا إن

شاء الله بكم لاحقون) هذه الأدلة كلها دليل على وصول ثواب الدعاء والاستغفار للميت.

يقول: "أما وصول ثواب الصدقة، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها (أن رجلاً أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أُمِّي أفلتت نفسها ولم توص - بمعنى: كأنها ماتت سكتة - وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها، قال: نعم)" ، هذا دليل صريح على أن أجر الصدقة إذا تُصدق بها على الميت وصل ثوابها إلى الميت ، لأنه الآن يسأل هل لها أجر إذا أنا تصدقت، قال النبي صلى الله عليه وسلم: تصدق ويصل أجرها). ، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سعد ابن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأُتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا رسول الله إن أُمِّي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها فقال: نعم ، قال: فإني أشهدك أن حائط المخراف صدقة عنها)، وأمثلة ذلك كثيرة في السنة" مما يدل على وصول ثواب الصدقة إلى الميت .

"وأما وصول ثواب الصوم" وهذا هو الذي يخالف فيه . الآن القدر السابق يوافق فيه الشافعي ومالك ومن معهم، لكن الصوم والصلاة يخالفون فيه، فيستدل الجمهور بوصول ثواب الصوم بما ثبت "في الصحيحين في حديث عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من مات وعليه صيام صام عنه وليه) وله نظائر في الصحيح".

يقول: " ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال: بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس رضي الله عنهما في الحديث المتقدم والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع "، يعني أبو حنيفة خالف في الصيام وقال: من مات وعليه الصيام: يتصدق عنه ولا يصوم عنه وليه ، لإسناد حديث ابن عباس الذي ذكرناه لا يصوم من أحد عن أحد..

"وأما وصول ثواب الحج - وهو أيضاً مما أتفق عليه أهل السنة - ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: إن أُمِّي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ، قال: نعم حجي عنها، أرايت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء) ونظائر هذا كثيرة".

◆ دليل الإجماع :

" أجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت ولو كان من أجنبي " ، يعني من مات وعليه دين فإنه يسقط من ذمته حتى ولو تحمل الدين رجل أجنبي عن هذا الميت " ومن غير تركته " أي من غير تركة الميت، "وقد دل على ذلك حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الآن بردت عليه جلده)"، الرجل الذي مات وعليه دين ورجع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد الصلاة عليه، فقال أبو قتادة: أنا أتحملهما.

*فالشاهد: أنه انتفع الميت بسداد هذا الدين وإن كان من غير تركته ومن مال رجل أجنبي.

◆ دليل القياس:

يقول: "كل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس - فهذا دليل القياس - إن الثواب حق للعامل" ، الآن دليل القياس الذي استدل به من توسع في وصول ثواب الأعمال إلى الميت قالوا: الثواب حق للعامل، الصلاة ، الصيام حق لك ، " فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته وإبرائه له منه بعد وفاته "، إذا كان عندك مال ألسنت تستطيع أن تهبه لغيرك؟ لأنه مُلك لك، ولك مال دين على فلان ومات ولم يسد لك، فتستطيع أن تسقط هذا المال. كذلك هذه الصلاة ، وهذه قراءة القرآن هذه ثوابها ملك لك تهبه لمن تشاء ، هذا القياس الذي استدل به الجمهور.

يقول: "وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية يوضحه أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية، وقد نص الشارع بوصول ثوابه إلى الميت فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية" ، أي يقول أما

قراءة القرآن فيقاس عملها على الصيام فكما أن الصيام يمكن أن يصوم الإنسان ويهدي ثوابه وهو كف بالنية ، كف الجوارح عن المفطرات ، يقول: فكذلك القراءة هي عمل ونية فيمكن أن يهديه الإنسان إلى غيره .

***الشاهد:** أنهم قاسوا قراءة القرآن على الصيام ، سكت حقيقة الشارح ولم يرجح بين القولين ، وانتقل للرد على أهل البدع الذين منعوا من وصول ثواب شيء من الأعمال.

ولكن لا مانع من أن نذكر الراجح في المسألة فلعل الراجح في المسألة القول الثاني قول الشافعي ومالك وهو رواية عن الإمام أحمد لأنهم هم الذين تشهد لهم الأدلة وذلك أن إهداء الثواب عبادة، والعبادات مبناه على التوقيف ، فما ورد به الدليل قلنا به وما لم يرد به الدليل نمسك.

ولم يكن أيضا من هدي السلف أنهم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت ، ويصومون ويهدون للميت، يصلون ويهدونه للميت، لم يعرف هذا عن الصحابة ولا عن الأئمة من بعدهم.

ولهذا نقول: القول الراجح الاختصار على ما ورد به النص.. فما استدل به هؤلاء كوصول ثواب الحج والصدقة والدعاء والاستغفار نقول: نعم، كلامكم في مكانه لكن لا نتوسع، أما القياس فلا يصح في العبادات والله أعلم، ومن فعل هذا أو هذا فلا تثريب عليه فالأدلة محتملة، إنما التثريب على أهل البدع الذين منعوا الجميع، وسبق أن عرفنا أنهم استدلوا بأدلة أو بما اشتبه عليهم من بعض الأدلة .

يريد المؤلف أن يرد عليهم ، يقول: " الجواب على ما استدلوا به - أي أهل البدع - من قول الله تعالى {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} قد أجاب العلماء بأجوبة أصحابها جوابان : " جواب على استدلالهم بهذه الآية هناك عدة أجوبة لكن من أصحابها وأوضحها ما يلي:

" أحدها: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير، وتودد إلى الناس، فترحموا عليه، ودعوا له وأهدوا إليه ثواب الطاعات فكان ذلك أثر سعيه" ، يعني {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} دعاء المؤمنين من سعي هذا الميت لأنه هو الذي تسبب بالإيمان، وتحبب إلى هؤلاء، وهو الذي تسبب في وجود هذه الأولاد، فهؤلاء الأولاد، وهؤلاء كلهم من سعيه، ولهذا نقول هذه الآية تشهد لما ذهب إليه أهل السنة .

يقول: " بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل مسلم من المسلمين إلى صاحبه في حياته، وبعد مماته ، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم " ، إذن دخوله في الإسلام أصلا من جملة المسلمين هو الذي تسبب وهو الذي سعى في أن يستفيد من دعاء إخوانه المسلمين ومن استغفار إخوانه المسلمين فلا منافاة إلى ما ذهب إليه أهل السنة بما دل عليه عموم الأدلة وبين هذا الدليل الذي ذكره .

يقول : " يوضحه أن الله تعالى جعل الإيمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه ذلك " ، الله عز وجل قال {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} فكونهم آمنوا هم الذين سعوا في دخولهم في هذا العقد الكبير .

الجواب الثاني: يقول: " وهو أقوى منه، أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره " ، إنما الذي نفى المُلْك، أن يملك الإنسان سعي غيره وأهل السنة لا يقولون أن الإنسان يملك سعي غيره {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}، لا يملك، ولا يستطيع أن يملك إلا سعيه هو الذي يستطيع أن يملكه ويتصرف فيه ، أما سعي غيره فملك له إن شاء وهبه لغيره ، يقول: " وإنما نفى ملكه لسعي غيره ، وبين الأمرين من الفرق بما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك

لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه"، هذا الجواب عن الآية الأولى التي تمسك بها هؤلاء.

والجواب على الآية الثانية قوله سبحانه {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}

"آيتان محكمتان تقتضيان عدل الرب"، يقول الآيتان محكمتان وليستا من المتشابهة، وذلك أن الآيتين تدلان على عدل الله عز وجل، فالأولى تقتضي أنه لا يعاقب أحدا بجرم غيره ولا يؤاخذة بجريرة غيره، كما يفعل ملوك الدنيا {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} الله عز وجل تكفل أنه لا يحمل الإنسان وزر غيره، ويقول كذلك قوله {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} والثانية تقتضي {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}، ويقول: "تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله ليقطع طمعه من نجاته بعمل آباءه وأجداده وأسلافه ومشايخه، فما عليه أصحاب الطمع الكاذب وهو سبحانه وتعالى لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى"، بل قال لا تتعلق بسعي غيرك، سعي غيرك ملك له إذا كان آباؤك مؤمنين فلا علاقة لك بإيمانهم، إيمانهم لهم وهذا معنى قوله {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}

ويقول: "وكذلك قوله تعالى {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} الآية التي استدلو بها وقوله {وَلَا تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غيره- أن الله عز وجل في هذه الآيات نفى العقوبة ولم يمنع من انتفاع الميت بعمل الآخر- فإنه تعالى قال {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} " ويقول: "أما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ...) فإنه استدلال ساقط، فإنه لم يقل انقطع انتفاعه، النبي صلى الله عليه وسلم قال انقطع عمله"، صحيح العمل ينقطع وهذا بإجماع أهل السنة لم يبقى له عمل لكن بقي له الانتفاع، فاستدلواهم استدلال فاسد بهذا الحديث.

ويقول: "إنما أخبر عن انقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو، وهذا كالدين يوفيه الإنسان عن غيره فتبرأ ذمته ولكن ليس له ما وفي به الدين".

***الشاهد:** أن الحديث يدل على انقطاع العمل لا انقطاع الانتفاع.. وأما تفريق الشيخ الآن يريد أن يذكر الرد على من ذهب إلى الاقتصار على الأعمال التي ثبتت في النص، مذهب الشافعي ومالك.

ويقول: "وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية"، أصحاب الفريق الثاني- قالوا: أن العبادات المالية هي العبادات التي يصل ثوابها أما العبادات البدنية الصرفة كالصلاة والصيام وقراءة القرآن فلا يصل ثوابها، يقول: "فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم الصوم عن الميت كما تقدم مع أن الصوم لا تجري فيه النيابة"، والرد ليس في مكانه لأن الحديث موقوف عن ابن عباس ثم على افتراض صحته! فإن أهل العلم قالوا أن من صام وعليه صيام فرض كالنذر ونحو ذلك صام عنه وليه تطوعا لإسقاط هذا الفرض عليه، يقول: "كذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: (صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيد الأضحى فلما أنصرف أوتي بكبش فذبحه فقال: (بسم الله والله أكبر اللهم هذا عني وعن من لم يضحي من أمتي) رواه أحمد وداود والترمذي، في حديث الكبشين الذين قال في أحدهما: (اللهم هذا عني وعن من لم يضحي من أمتي) وفي الآخر، اللهم هذا عني وعن من لم يضحي من أمتي) رواه أحمد، والقربة بالأضحية إراقة الدم وقد جعلها لغيره". وقد استدلل الشيخ ويقول مما يدل على وصول ثواب الأعمال البدنية كون النبي صلى الله عليه وسلم ضحى بكبش وأهداه لمن لم يضحي من أمته وأيضا من آل بيته. رد أصحاب الفريق الأول قالوا: لا، الأضحية عمل مالي، وثبت به النص فنقول به، وليس عمل بدني صرف، والأضحية بمال. يقول: "كذلك عبادة الحج بدنية وليس المال ركنا فيها وإنما هو وسيلة"، ويذكر يعني إنما الأعمال البدنية يستدل على من قال بها أنه ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز الإنابة في الحج، والحج عمل بدني.

أجاب الفريق الثاني ، قالوا: لا، إن الحج عبادة بدنية مالية وهي مشتركة لأبد فيها من النفقة.

ثم يقول: "وانظر إلى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقيين لأن هذا إهداء ثواب وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه وله أن يعطى من أجرته".

***الشاهد:** أن فروض الكفايات بما استدل بها أصحاب الفريق الأول أن فروض الكفايات ينوب بعض المسلمين عن بعض، نقول هذا حال الحياة وليس بعد الممات وفيه إسقاط الفرض عن الأحياء القادرين وليس فيه إهداء للثواب، وبقيت مسألة بسيطة وهي مسألة: استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت.

الحلقة (٢٥)

◀ مسألة: استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت :

يعني يؤتى بأشخاص بأجرة مقابل ويقال لهم اقرءوا مثلاً نصف القرآن أو السورة الفلانية أو القرآن كاملاً وأهدي ثواب هذه القراءة للميت .

يقول المؤلف : "فهذا لم يفعله أحد من السلف ولا أمر به أحد من أئمة الدين ولا رخص فيه أحد منهم ، والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف ". إذن هذا الفعل بدعة لم تؤثر لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ولا عن سلف الأمة أنهم استأجروا أقواماً يقرءون القرآن ويهدونه لهذا الميت. يقول الشيخ "والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز" يعني كون الشخص يستأجر شخص على نفس التلاوة هذا غير جائز لأنه كلام الله، ويقول: "إنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه" يعني التعليم يختلف عن كون الإنسان يقرأ ويهدي ثوابه لشخص معين، يقول: "مما فيه منفعة تصل إلى الغير" التعليم فيه منفعة تصل إلى الغير بخلاف استئجار شخص يهدي ثواب عمله لغيره ، يقول: "والثواب لا يصل للميت إلا إذا كان العمل خالصاً لله ، وهذا لم يقع عبادة خالصة ". هذا الشخص الذي أجر نفسه وقرأ القرآن هذا حقيقة ما قرأ لأجل الله ، إنما قرأ لأجل الأجر والميت لا ينتفع من العمل إلا بما كان خالصاً لأنه عبادة والعبادة لا تصح ، ولا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله عز وجل وهذا الشخص الذي أجر نفسه يقرأ القرآن هذا ما قرأ إلا من أجل الأجرة.

يقول: "فلا يكون ثوابه مما يهدى إلى الموتي!! فلماذا لم يقل أحد: أنه يكثر من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك للميت". ولهذا لم يعرف أحد أنه يقول يمكن استئجار شخص يصلي لشخص ويهدي ثوابه لهذا الميت أو يصوم ويهدي ثوابه لهذا الميت، يقول: "لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه"، لكن كون الشخص يجلس لتعليم الناس القرآن لا بأس أن يعطى من باب الصدقة من باب المعونة ، يقول في ((الاختيار)):

لو أوصى بأنه يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لأنه في معنى الأجرة . اهـ . فالوصية باطلة لأنها ليست في محلها وليست في مكانها ، ووصية على أمر مبتدع.

يقول: " وذكر الزاهد في ((الفتاوى)) أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره فالتعيين باطل . "بمعنى لو أوقف غلةً مثلاً عقاراً وقال : هذا يصرف على من يقرأ القرآن على قبري ، يقول : فالتعيين تعيين كونه يصرف على هذا الشيء باطل يقول : " وأما قراءة القرآن وإهداء ثوابه تطوعاً بغير أجره فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج " وهذا كما علمنا رأي الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد في رواية : أن قراءة القرآن يصل ثوابها كما يصل ثواب الحج والصدقة.

الشيخ أورد اعتراضات على أصحاب هذا القول وأجاب عنها هذه الاعتراضات ، يقول : " فإن قيل هذا لم يكن معروفاً في

السلف ولا أرشدهم إليه النبي صلى الله عليه وسلم"، يعني لم يكن معروفاً عند السلف أنهم يقرؤون القرآن ويهدونه للموتى ولم يرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا العمل ، لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء .

يقول "فالجواب: إن كان مورد هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء قيل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول قراءة القرآن ؟ - يعني الشيخ الآن يقول ثواب إهداء قراءة القرآن يقاس على إهداء الحج الصوم والصدقة والدعاء ما فيه فرق بينهما- يقول: وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول ومن أين لنا هذا النفي العام". (وهذا مما وقع فيه الشيخ رحمه الله) يعني أنتم استدللتم علينا بأنه لم يكن معروفاً عند السلف إذا كان الشيء غير معروف عن السلف ليس فيه حجة لأنه ربما كان معروف وما وصل إلينا (وهذا خطأ منه رحمه الله) لأننا متعبدون بما وصل إلينا وإلا هذا يفتح باب كبير جداً للبدع ، كل إنسان يبتدع بدعة ويقول ربما النبي صلى الله عليه وسلم فعلها بس ما وصل إلينا ربما الصحابة فعلوه لكن لم يصل إلينا . ما دام لم يصل إلينا شيء من ذلك فنقف ، فنحن متعبدون بما ثبت فقط .

يقول: " فإن قيل فرسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم للصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟ " يعني هذا اعتراض أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم أرشدهم يعني سألوه عن الحج فأجاز سألوه عن الصيام فقال: (من مات وعليه صوم صام عنه وليه) إن صح الحديث ، الصدقة أيضاً سألوه فأفتاهم في ذلك وبين أن ثوابها يصل إلى الميت لكن قراءة القرآن لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء.

يقول المؤلف: " فالجواب : قيل : هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم فهذا سأله عن الحج عن ميتة فأذن له فيه وهذا سأله عن الصوم عنه فأذن له فيه ولم يمنعه مما سوى ذلك وأي فرق بينهما وصل ثواب الصوم -الذي هو مجرد نية إمساك - وبين وصول ثواب القراءة والذكر "، وإنما جرى مجرى الجواب على سؤال ورد، سئل فأفتى عن الصوم فأفتى فلا تمنعوا من قراءة القرآن لأنه على قول الشيخ لو سئل عن قراءة القرآن لأفتى بالجواز .

نحن نقول أيضاً: متعبدون بما ثبت سواءً قاله النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً أو جرى مجرى إجابة السؤال ، أما مسألة قياسه على الصوم فكما تقدم الكلام أن الصوم ليس محل اتفاق . والصوم مما منعه الأئمة الذين منعوا إهداء ثواب غير الحج الصدقة والدعاء ، إذن انتهى من مسألة إهداء ثواب قراءة القرآن والراجح في المسألة أرجح وأقول لكم ، الراجح في المسألة والله أعلم ما ذهب إليه الإمام الشافعي والإمام أحمد من المنع والاقتصار على ما ورد على الحج والصدقة والدعاء فقط أما الصلاة والصيام وقراءة القرآن فهذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن معروفاً عن أحد من السلف فنقف حيث وقفوا ويسعنا ما وسعهم ولو كان خيراً لسبقونا إليه .

مسألة : إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول: " فإن قيل ما تقولون في الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ، قيل: من المتأخرين من استحبه ومنهم رآه بدعة لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ولأن النبي صلى الله عليه وسلم له مثل أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ؛ لأنه هو الذي دل أمته على كل خير وأرشدهم إليه " وهذا هو الرأي الراجح ، المنع وذلك لأمرين :

○ الأمر الأول : أنه لم يكن معروفاً عن الصحابة رضي الله عنهم وكانوا من أعظم الناس بل هم أعظم الناس محبة للنبي صلى الله عليه وسلم وتوقيراً وإجلالاً ومع ذلك لم يعرف عن أحد منهم إهداء ثواب عمله على النبي صلى الله عليه وسلم هذا هو التعليل الأول .

○ الأمر الثاني : أن أصلاً النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه مثل أجر كل عامل من أمته لأنه السبب في هدايته فالإهداء

تحصيل حاصل.

يقول : " ومن قال إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده باعتبار سماعه كلام الله " فهذا كون الإنسان يأتي عند هذا القبر ويقرأ القرآن ويقول لأجل أن ينتفع الميت بسماع القرآن،

فالجواب: طبعاً أولاً حكم هذا المنع بدعة لم يكن معروفاً عن السلف رحمهم الله ولم يكن معروفاً عن الأئمة. يقول: "فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين ولا شك في سماعه" أي سماع الميت، يقول ونحن لا نشك في سماع الميت علماً أن المسألة خلافية وتقدم الكلام، يقول: "لكن انتفاعه بالسماع لا يصح" نعم تثبت بعض النصوص أن الميت يسمع قرع نعاهم من تولى دفنه إذا ولو عنه مدبرين، وقتلى المشركين في بدر سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخاطبهم لما رماهم في القليب.

لكن لو افترضنا أن الميت فعلاً إذا أتى إنسان وقرأ القرآن أنه يسمعه هل ينتفع ؟

الجواب: يقول الشيخ : "لكن انتفاعه بالسماع لا يصح" - لم يثبت في ذلك شيء لم يثبت أن الميت ينتفع بقراءة الحي عند قبره - يقول: فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة" يعني كون الإنسان يثاب على استماعه للقرآن هذا بشرط أن يكون في الحياة أما بعد الممات فلم يرد فهذا شيء ولهذا نمسك .

والقاعدة العامة أصلاً أنه إذا انتقل الإنسان على الدار الآخرة انقطع التكليف، ما فيه ثواب وعقاب على أعمال فيه جزاء . الأعمال انقطعت ما فيه الآن إلا الجزاء ، جزاء ما عمله الإنسان في الدنيا.

يقول : " فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته -الذي هو السماع - بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمثل أوامر الله ونواهيه أو لكونه لم يزد من الخير". يقول ربما ثبت استماعه أنه يتضرر أكثر مما ينتفع لأنه يتألم ويتحسر لكونه ما امتثل لهذه الأوامر وهذه النواهي، أو كونه ما ازداد من هذا الخير الذي يسمعه .

يقول: " واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور - مسألة: قراءة القرآن عند القبور لها عند أهل العلم أو اختلف أهل العلم فيها - على ثلاثة أقوال :

١- هل تكره ؟

٢- أم لا بأس بها

٣- أم لا بأس بها وقت الدفن وتكره بعده

إذن إما مكروهة مطلقاً، أو أنه لا بأس بها بإطلاق، أو أنها جائزة عند الدفن مكروه فيما بعد ذلك .

يقول: " فمن قال بكراهتها كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية قالوا لأنه محدث لم ترد به السنة والقراءة تشبه الصلاة والصلاة عند القبور منهي عنها وكذلك القراءة " . إذاً رأي الجمهور المنع مطلقاً وهذا هو الرأي الراجح لأمرين:

• الأمر الأول : لم يرد عن السلف رحمهم الله أنهم صنعوا هذا العمل . سيأتي الذي نُقل عن ابن عمر وقت الدفن وهو اجتهد من ابن عمر ولم يُوافق عليه من الصحابة .

• الأمر الثاني: أن القراءة شبيهة بالصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة عند القبور ، فيقاس على ذلك أيضاً قراءة القرآن فلا تقرأ عند القبور .

يقول: " ومن قال لا بأس بها كمحمد بن الحسن وأحمد في رواية - ممن ذهب إلى جوازها محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وأيضاً الإمام أحمد في رواية عنه إن صحت - استدلوها هؤلاء بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أوصى أن يقرأ على

قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتيمها ونُقل عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة" ، استدلووا بهذه الحالة على إطلاق قراءة القرآن عند القبور .

الرأي الثالث: " من قال لا بأس بها وقت الدفن فقط وهو رواية عن الإمام أحمد أخذوا بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين .والصحيح المنع لأن المسألة عبادة والعبادة توقيفية هذه هي القاعدة العامة؛ لا وقت الدفن ولا بعده ولا قبله، لم ينقل عن السلف. ما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه إن صح عنه فهو اجتهاد شخصي منه .

يقول: "وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون للمقبر للقراءة عنده فهذا مكروه فإنه لم تأت به السنة ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً، وهذا القول لعله أقوى من غيره لما فيه من التوفيق بين الدليلين"

*الشاهد: يقول أن قضية التناوب على القبور وقراءة القرآن والاستمرار في القراءة فهذا لا شك أنه مكروه ولم يعرف عن أحد من السلف بل ذكر أهل العلم أنه وسيلة لتعظيم صاحب القبر وربما يفضي إلى صرف شيء من أنواع العبادة له.

◀ مسألة استجابة الدعاء :

ويقول الإمام الطحاوي: "والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات" ولا شك أن الله عز وجل يجيب دعوة من دعاه، وهذا ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمم وليس الأمة فقط بل إجماع الأمم قاطبة إلا من شذ على ما سيأتي. ذكر المؤلف بعض الأدلة من ذلك قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} وقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}

يقول: "والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم: أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار" ويقول: هذا أمرٌ مجمع عليه بين أهل الملل قاطبة أن الدعاء من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الخير ويستدفع بها الشر .

يقول : "وقد أخبر الله تعالى عن الكفار - مع كفرهم وشركهم - أنهم إذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، وإجابة الله لدعاء العبد مسلماً كان أو كافراً وإعطائه سؤاله من جنس رزقه لهم ونصره لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً" فكون الله عز وجل رب الخلائق فمن موجب هذه الربوبية استجابة دعائهم ورزقه لهم ونصره لهم لكن لا يلزم أن كل من دعا يستجاب له، لكن بشكل عام من موجبات الربوبية إجابة دعاء من دعاه. يقول ثم يكون من ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه إذا كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك، يعني إذا كان إجابة هذا الدعاء مما يستعين به على كفره وفسقه فلا شك هذا قد يكون فتنة له، وزيادة في الابتلاء والامتحان من الله عز وجل له .

يقول : " في سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لم يسأل الله يغضب عليه). يقول: قد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

الرب يغضب إن تركت سؤاله
وبني آدم حين يسأل يغضب

يقول: "قال ابن عقيل: قد ندب الله إلى الدعاء وفي ذلك معان"، يعني كون الله دعانا إلى دعائه في ذلك عدة فوائد:

١- الوجود إثبات الوجود لله فإن من ليس بموجود لا يدعى

٢- إثبات الغنى لله فإن الفقير لا يدعى

٣- إثبات السمع لله فإن الأصم لا يدعى

٤- إثبات الكرم لله فإن البخيل لا يدعى

٥- إثبات الرحمة لله فإن القاسي لا يدعى

٦- إثبات القدرة لله فإن العاجز لا يدعى

إذن كون الله دعانا وأمرنا أن ندعوه هذا الأمر تضمن إثبات مجموعة من الصفات التي ذكرها ابن عقيل .

يقول : "ومن يقول بالطبائع يعلم أن النار لا يقال لها كفي ولا النجم يقال له أصلح مزاجي لأن هذه عندهم مؤثرة طبعاً لا اختياراً ، فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء؛ ليبين كذب أهل الطبائع" ، يقول من يقول: أن الذي يتصرف في هذا الكون هي طبائع النجوم والأفلاك أو النار يقول: هم يقولون أنه لا يقال للنار أو للنجم افعل كذا، لأنه يفعل بطبيعته ولهذا شرع الله عز وجل صلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع، فلو كان نزول المطر خاضع للطبيعة لما كان لصلاة الاستسقاء ودعاء الله أثر في ذلك و الشرع والحس يثبت أن صلاة الاستسقاء التي هي دعاء وتوجه وابتهاال إلى الله عز وجل بأن يغيث عباده، نعم ! هذا دليل على كذب هؤلاء لأن الناس يخرجون وما في السماء من سحب ولا قزح وأحياناً يكون في غير وقت المطر، فقد ينقطع الإنسان في الصحراء وفي وقت ليس من العادة كما يقول أهل الطبائع أن تتكون السحب فضلاً عن أن تنزل الأمطار فيبتهل هذا الشخص إلى الله ويتوجه إلى الله وينطرح بين يدي الله فينشأ السحاب ويمطر، وهذا ثابت قديماً وحديثاً .

يقول: "وذهب قوم من المتفلسفة وغالية الصوفية إلى أن الدعاء لا فائدة فيه"، خالف سائر الأمم وسائل أهل الملل خالف في ذلك الفلاسفة وبعض غلاة الصوفية فقالوا الدعاء لا فائدة فيه ، وإذا لا فائدة فيه فلا قيمة لكون الإنسان أن يدعو أو لا يدعو .

يقول : "لأن المشيئة - حجتهم أو شبهتهم ، لماذا قالوا الدعاء لا فائدة فيه ؟

قالوا: لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء وإن لم تقتض فلا فائدة في الدعاء". يعني إن كانت مشيئة الله اقتضت وجود هذا الشيء الذي سيدعوه به الإنسان إذن ما فيه حاجة إلى الدعاء، وإذا كانت المشيئة لم تقتضي وجود هذا الشيء إذن لا فائدة من الدعاء .

يعني الشبهة إن كان الله شاء الأمر مثلاً :إنسان لم يرزق بولد قالوا لا تدعُ الله أن يرزقك الولد إن كان الله يريد أن ترزق بولد سترزق دعوت أو لم تدع، وإن لم تكن مشيئة الله اقتضت أن لا يكون لك ولد فلن ترزق بولد سواء دعوت أو لم تدع

الحلقة (٢٦)

◀ تتمة مسائل متعلقة بالدعاء :

توقفنا في الحلقة الماضية حول مسألة متعلقة بالدعاء؛ ألا وهي الشبهة التي طرحها المتفلسفة وبعض غلاة الصوفية مما خالفوا فيه جمهور أهل الملل، وجمهور الناس، وذلك أنهم نفوا فائدة الدعاء، وقالوا: لا فائدة للدعاء ولهذا ينبغي على الإنسان ألا يدعو ،

شبهتهم: إن كانت مشيئة الله عز وجل اقتضت وجود هذا الشيء فلا حاجة للدعاء، وإن كانت المشيئة اقتضت عدم وجود هذا الشيء الذي سيدعوه به الإنسان فلا فائدة في الدعاء ولهذا لا قيمة للدعاء البتة

يقول في الرد عليهم : " فهذا معلوم الفساد بالضرورة العقلية فإن منفعة الدعاء أمرٌ اتفقت عليه تجارب الأمم - أولاً أن هذا مما ترده العقول- لأن إجابة الدعاء وفائدة الدعاء هذا مما اتفقت عليه الأمم" من خلال الواقع من خلال التجربة ، وليس

فقط من خلال النقل فمن خلال التجربة ثبت فائدة الدعاء يقول حتى إن الفلاسفة، (الفلاسفة القدامى ليس الفلاسفة المتأخرون)

يقول: " حتى الفلاسفة تقول ضجيج الأصوات في هياكل العبادات بفنون اللغات يحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات، هذا وهم من أهل الشرك مشركون"، بمعنى يقول ضجيج الأصوات يعني اختلاف الأصوات في هيئة العبادة في هيئة الدعاء أو كذا بفنون بمختلف اللغات يحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات، بمعنى إذا كانت الأفلاك اقتضت هذا الشيء فهذا الضجيج وهذا الدعاء وهذا الكلام المتوجه يصرفها عما عزمت عليه ، وهذا لا شك شرك لكن نلاحظ مع أنهم مشركين ومع ذلك رأوا تأثير مثل هذا الدعاء .

يقول: " وجواب الشبهة - شبهة المشيئة تقتضي أو لا تقتضي - بمنع المقدمتين " ، هم جعلوا الشبهة مكونة من مقدمتين إن اقتضت المشيئة الإلهية أو لم تقتض المشيئة الإلهية . نحن نقول: لا .

القسمه العقلية تقتضي ثلاثة أمور :

١- أن تقتضيه بإطلاق

٢- أن لا تقتضيه بإطلاق

٣- أن تقتضيه بشرط ، وهو الدعاء ، هذه هي القسمه التي تتوافق مع العقل، فقسمتهم ناقصة !

يقول: "وجواب الشبهة بمنع المقدمتين: فإن قولهم عن المشيئة الإلهية إما أن تقتضيه أو لا، ثم قسم ثالث - العقل يقتضي أن القسمه ثلاثية وليست ثنائية - وهو أن تقتضيه بشرط ، لا تقتضيه مع عدمه " بمعنى أن مشيئة الله تقتضي : بشرط وجود الدعاء وإذا لم يوجد الدعاء فمشيئة الله تقتضي عدم وجوده.

يقول: "وقد يكون الدعاء من شرطه كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه وكما توجب الشيع والري مع الأكل والشرب ولا توجبه مع عدمهما وحصول الولد بالوطء والزرع بالبذر فإذا قدر وقوع المدعوبه بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب فقول هؤلاء - كما أنه مخالف للشرع - فهو مخالف للحس والفطرة " .

نقول: الدعاء مثل الأكل مثل الشرب مثل الوطء، فالري اقتضت إرادة الله ومشيئته أن يحصل بشرب الماء سبب، وإذا لم يحصل السبب لم يحصل المسبب وهو الري، كذلك الشيع بالأكل والولد بالوطء والزرع بالبذر، ما يقول قائل: إن اقتضت المشيئة الإلهية وجود هذا الزرع سيوجد سواء بذرنا أم لم نبذر، وإذا لم تقتض المشيئة الإلهية عدم وجود هذا الزرع لم يوجد سواء بذرنا أم لم نبذر، هذا لا يقوله عاقل، ولهذا الشيخ قائل في النهاية فقولهم هذا مخالف للحس والفطرة والعقل، كما أنه مخالف للشرع.

يقول: " ومما ينبغي أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء وهو أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ومعنى التوكل والرجاء يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع " . بمعنى أن الإنسان لا يعتمد على الأسباب ؛ التي هي الأكل والشرب والبذر والدعاء ولا يهمل الأسباب لأن الاعتماد على الأسباب بذاتها شرك وإهمالها وتركها نقص في العقل، ولا يقوله عاقل ولهذا لا يمكن لعاقل أن يجلس في بيته ويقول إن كان الله يريد لي الرزق سيحصل الرزق سيقول له سائر الناس ويصيحون به قم أفعل الأسباب اذهب زاول التجارة اذهب إلى الوظيفة ثم أعتمد على الله .

يقول: "وبيان ذلك أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجائه والاستناد إليه وليس في المخلوقات ما يستحق هذا"، بمعنى الاعتماد على السبب وحده شرك لأنه ليس في المخلوقات ما يستحق أن يعتمد ويُرجى من دون الله "لأنه ليس بمستقل ولا بد له من شركاء وأضداد ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يُسخر"، يعني المسألة مرتبطة بالله حتى مع هذا السبب، لأنه قد يظن الإنسان لا يحصل الولد، قد يبذر الإنسان ولا يحصل الزرع فهو مجرد سبب ولهذا ترجع الأمور إلى الله مسبب الأسباب، لكن من سنته أن قرن حصول الأسباب بمسبباتها فحصول هذا الشيء بالدعاء وعدم حصوله بغير الدعاء، حصول الولد بالوطء وعدم حصوله بغير الوطء، لكن قد يحصل السبب ويتخلف المسبب كما ذكرت لكم، قد يأتي المزارع ويضع البذرة ويسقيها لكن ما يحصل الزرع قد يظن الإنسان ويتزوج ولا يحصل له ولد، وكما أن النار محرقة يعني النار سبب للإحراق لكن قد يتخلف السبب توجد النار ولا يوجد الإحراق كما حصل مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

يقول: "وقولهم وإن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء قلنا بل قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة". يقول الشيخ: ما هو سليم إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ! لا

بل الدعاء أصلاً عبادة مستقلة، فيؤجر عليه الإنسان سواء حصل المطلوب أو لم يحصل، وسيذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم ما من إنسان يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله عز وجل أحد أمور ثلاثة: إما أن يستجيب له، وإما أن يدرها له يوم القيامة، (يعني ما يستجيب له ما يحصل المطلوب في الدنيا لكن يحصل له من الأجر أضعاف ذلك يوم القيامة) وإما لا يحصل المطلوب لكن يدفع عنه من سوء بقدر ما طلبه، ولهذا قال الصحابة قالوا إذن نكثر (ما دام إن الإنسان إذا دعا لا بد أن يحصل على فائدة لن يذهب دعائه هباءً منثوراً إذن نكثر من الدعاء) ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام قال: (الله أكثر) أكثروا وأبشروا من الأجر.

يقول: "وكذلك قولهم: وإن لم تقتضيه فلا فائدة فيه؛ قلنا: بلى بل فيه فوائد عظيمة من جلب منافع ودفع مضار كما نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه وإقراره به وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم وإقراره بالفقر إليه واضطراره إليه وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية التي هي من أعظم المطالب".

لا شك أن الدعاء يورث هذه الأمور التي ذكرها المؤلف في نفس العبد الداعي فلو لم يكن من الدعاء إلا هذه الفائدة لكفى . يقول: "فإن قيل- هذا اعتراض من هؤلاء الذين قالوا لا فائدة للدعاء- إذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد"، يعني إذا كان الله عز وجل أعطى عبده هذا الشيء بناءً على أن العبد دعا فاستجاب الله له معلل أي مسبب أي أن الله أعطى العبد سؤله في هذا الشيء سأل الله أن يُرزق بولد فرزق بولد، إذا كان الله أعطاه الولد بناءً على هذا الدعاء يقول: "كما يفعل من إعطاء المسئول السائل - كما أن الإنسان إذا جاء وسأل إنسان آخر مال أو حاجة وأعطاه سؤله كأن هو الذي أثر على السائل حتى أعطاه ما سأل - يقول: كان السائل قد أثر في المسئول حتى أعطاه" يعني كأنهم يقولون: إذن تقولون أنتم أن العبد يؤثر في الله عز وجل .

يعني أنت الآن إذا ذهبت إلى مخلوق وسألته أن يعطيك حاجة من الحاجات، فأعطاك ما الذي حملة على إعطائه إياك هذا الشيء؟؟ أنك أثرت عليه بهذا السؤال . يقولون: إذا كان الله يعطي المخلوق بناءً على الدعاء، فالمخلوق أثر في الخالق هذه شبهة أخرى !

الجواب: يقول: " قلنا الرب سبحانه هو الذي حرك العبد إلى دعائه فهذا الخير منه وتمامه عليه"، يعني الذي أصلاً حرك

العبد للدعاء وأمره بالدعاء وأحب الدعاء منه هو الله، ونقل عن عمر رضي الله عنه يقول: "كما قال عمر إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه". يعني يقول عمر أنا لا أحمل هم الإجابة أنا أحمل هم الدعاء فإذا ألهمني الله الدعاء فאלله متكفل بالإجابة إذن فالذي حرك الإنسان هو الله الذي دفع الإنسان هو الله وبناءً على ذلك فالمخلوق لم يؤثر في الخالق كما زعم هؤلاء، يقول: "وعلى هذا قوله تعالى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}." إذاً هو الذي يدبر الأمر ابتداءً من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه الأمر. يقدر ويأمر هذا المخلوق بالدعاء ثم يصعد دعائهم مرة أخرى إليه ليستجيب دعائهم.

يقول: " فأخبر سبحانه أنه يبدأ بالتدبير ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره فالله سبحانه وتعالى هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إياه". إذن المسألة من الله منتهاها إلى الله، ما فيه تأثير من العبد في الرب سبحانه وتعالى كما زعم هؤلاء، "كما في العمل والثواب فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها". كما أنه في العمل وثواب الأعمال فالعمل لا يحصل من الإنسان ابتداءً بل الذي قدره على هذا العمل ووفقه لهذا العمل وفقه للتوبة هو الله ثم قبلها منه.

يقول: "وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه ووفقه للدعاء ثم أجابه فما أثر فيه شيء من المخلوقات بل هو جعل ما يفعله هو سبب لما يفعله"، بل السبب بدأ من الله والمسبب بدأ من الله الكل من الله وإلى الله، ولهذا كان من قول المسلمين إنا لله وإن إليه راجعون الكل من الله.

يقول: "بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله قال: مطرف بن عبد الله بن الشخير أحد أئمة التابعين نظرت في هذا الأمر فوجدت مبدأه من الله وتمامه على الله ووجدت ملاك ذلك الدعاء"، وجدت أوله من الله ونهايته إلى الله وملاك هذا كله الدعاء.

يقول وهنا انتهى في رده على شبهة الفلاسفة وغلاة المتصوفة، وعلى كل حال شبهتهم ظاهرة الفساد ولهذا ما أطال الكلام حولها. " لكن هنا سؤال معروف، أن من الناس من قد يسأل الله شيئاً فلا يعطى أو يعطى غير ما سأل وقد أجيب عنه بأجوبة فيها ثلاثة أجوبة محققة " يقول بعض الناس أنتم تقولون الله يقول: ادعوني استجب لكم وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان. هذا وعد من الله لكن نلاحظ أن بعض الناس يدعوا ولا تحصل الإجابة أو يدعوا بأمر ويحصل له أمر آخر،

فما الجواب عن ذلك؟

يقول "الجواب أحد أمور ثلاثة:

١- أن الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً وإنما تضمنت إجابة الداعي "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي" ما قال أعطكم ما سألتكم قال {أَسْتَجِبْ لَكُمْ} والاستجابة أعم من الإعطاء ولهذا قال: "والداعي أعم من السائل وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا في كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له". ففرق بين الداعي والسائل وبين الإجابة والإعطاء وهو فرق بالعموم والخصوص كما اتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم ذكر الخاص ثم الأخص لاحظ: من يدعوني فأستجيب له هذا

العام، الذي أخص منه من يسألني فأعطيته، الإجابة أعم من الإعطاء ثم أخص من الاثنين، من يستغفرني فأغفر له! يعني حدد الشيء المطلوب

هناك دعاء عام من يسألني سؤال عام قد تسأل المغفرة قد تسأل أمر من أمور الدنيا هنا حدد إذن فيه عام وفيه خاص وفيه أخص من الخاص .

يقول: "وإذا علم العباد أنه قريب يجيب دعوة الداعي علموا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله وعلموا علمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة في حال، ودعاء المسألة في حال، وجمعوا بينهما في حال، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة وقد فُسر قوله {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} بالدعاء الذي هو العبادة والدعاء الذي هو الطلب وقوله بعد ذلك {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} يؤيد هذا " يعني لا يلزم من الدعاء دعاء المسألة ولا شك أن هذا التفسير الأعم و الأشمل من فسر الدعاء هنا بأنه يشمل دعاء السؤال ودعاء العبادة ولهذا قال الله عقب الآية {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}

*** ملخص الجواب الأول (أن الإجابة أعم من إعطاء السؤال فلا يلزم من الإجابة إعطاء السؤال)**

٢- " أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين المسئول عنه، كيف ذلك؟ " يقول النبي صلى الله عليه وسلم
فسر هذا الأمر ، يقول: " كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال)، لاحظ الإجابة أعم من كونه يحصل لك الشيء المطلوب المسئول عنه أنت سألت الله أن يوفقك مثلاً في دراستك لم توفق في الدراسة لكن لا يعني هذا أن الله لم يستجب دعائك، استجاب، أعطاك شيء أعم من هذا، كونه لم يحقق لك هذا الشيء الخاص لا يعني هذا أنه لم يستجب دعائك كيف ذلك؟

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلها ، أو يصرف عنها من الشر مثلها قالوا : يا رسول الله إذن نكثر قال: لله أكثر). فقد أخبر الصادق المصدوق أنه

لا بد من الدعوة الخالية من العدوان من إعطاء السؤال معجلاً أو مثله من الخير مؤجلاً أو يصرف عنه من السوء مثله".
إذن الإجابة أعم من إعطاء العين المسئولة ولهذا لا منافاة بين وعد الله {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} وبين من أورد علينا وقال: من الناس من يدعو ولا يستجاب له ، لا ! من قال لك نعم من الناس من يدعو ولا يعطى سؤاله هذا هو الصحيح لكن يستجاب له ؟ نعم يستجاب له لأن الله لا يخلف وعده

٣- " أن الدعاء سبب مقتضى لنيل المطلوب و السبب له شروط وموانع فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب".

يقول: إن الدعاء سبب كسائر الأسباب له شروط وله موانع فإذا انتفت الموانع ووجدت شروطه كاملة حصل المطلوب إذا تخلف شيء من هذا لم يحصل المطلوب، ولهذا ضرب مثلاً نقله عن ابن القيم رحمه الله : الدعاء مثل السلاح في يد الشخص

السلاح هل يؤثر مطلقاً؟ هل يؤثر بإطلاق؟ هل يحصل به الفائدة المرجوة بإطلاق؟ الجواب : لا

لا بد له من شروط ولا بد أن يكون هناك موانع منتفية عنه، فالسلاح لا بد أن يكون حاداً ولو لم يكن حاداً لم يؤثر، لو أخذت سكيناً مثلمة وأردت أن تقطع بها شيئاً ما استطعت طيب هل يكفي أن تكون السكين حادة؟ هل السلاح بجدة

فقط!! لا، وأن تكون الساعد قوية فلو أعطيت هذا السلاح لشخص مشلول اليد هل يمكن أن يؤثر به؟ لا، الأمر الثالث: انتفاء الموانع: أن يكون المكان قابلاً للقطع لو أخذت وضربت به هذا الحديد هل يؤثر؟ ما يمكن أن يؤثر. كذلك الدعاء، الدعاء له شروط هو سبب كسائر الأسباب وله موانع. فإذا وجدت الشروط انتفت الموانع حصل المطلوب، وإلا لم يحصل المطلوب.

يقول: "وإلا فقد لا يحصل المطلوب بل يحصل غيره وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار الماثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار". كذلك الأذكار أليس النبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى بعض الأذكار التي تكون سببا لصرف بعض الأضرار فقد يقول الإنسان هذا الذكر ويحصل له هذا الضرر هل يعني هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن صادقا في وعده؟ لا، حاشا وكلا، لكن أيضا هذه الأذكار لها شروط ولها موانع فإذا وجدت شروطها وانتفت موانعها حصل المطلوب حصل الحفظ حصل ما يرجوه الإنسان منها وإلا لم يستفد منها الفائدة المشاهدة. قد تكون هناك فائدة غائبة عن بصره وعن ذهنه.

يقول: "فإن الكلمات بمنزلة الآلة بيد الفاعل تختلف باختلاف قوته وما يعينها وقد يعارضها مانع من الموانع ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب وكثيرا ما تجد أدعية دعا به قومٌ فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه". يعني يقول: قد يأتي الإنسان بهذا الدعاء نفسه فيدعو فيستجاب له لكن ما هو سبب الاستجابة إما أن يكون هناك ضرورة نزلت بهذا الشخص فانطرح بين يدي الله عز وجل وحضر قلبه وابتهل إلى الله، بخلاف شخص يدعو وقلبه ساهٍ، لا، أو يكون هذا الشخص قد قدم حسنة عظيمة كانت سببا في استجابة دعائه ولهذا جاء في الحديث أن الصدقة لها أثر في علاج المرضى لكون الإنسان يدعو الله عز وجل أن يشفي مريضه وقد تقدم وقدم بين يدي الله ودعائه صدقة تكون سببا لاستجابة دعائه.

يقول: "جعل الله إجابة دعوته شكرا لحسنه، أو صادف وقت إجابة لهذا الدعاء ونحو ذلك فأجيب دعوته فيظن أن السر في ذلك الدعاء فيأخذه مجردا عن الأمور التي قارنته من ذلك الداعي". يعني بعض الناس يتوقع السر في نوع الدعاء!! لا، هناك أمور كانت سببا في إجابة الدعاء.

الحلقة (٢٧)

◀ تتم الكلام عن شروط وموانع إجابة الدعاء :

أجاب الشيخ بثلاثة أجوبة، توقفنا عند الجواب الثالث وهو أن الدعاء سبب من الأسباب له شروط وموانع وإذا وجدت شروطه وانتفت موانعه حصل المسبب، الذي هو أجابه الدعاء وإلا لم يحصل المسبب، والشيخ أيضا يقرب هذا الجواب الثالث بمثال آخر، يقول: "وهذا كما إذا استعمل رجلاً دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي فانتفع به فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرد كافيًا لحصول المطلوب غلطاً"

يقول: قد يكون فيه دواء استخدمه إنسان لنوع من أنواع المرض لكنه محدد بوقت أو بحال، فاستخدم هذا الإنسان الدواء فشفي، ثم يأتي الشخص الآخر فيظن أن هذا الدواء بمجرد ينفع من الشفاء بهذا المرض فيأخذه بغير وقته كذلك الدعاء، يقول "وكذا قد يدعوا باضطراب عند قبر فيجاب، فيضن أن السر للقبر ولم يدرك السر للاضطراب وصدق اللجوء لله تعالى فإذا حصل عند بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى "وهذه حقيقة فتنة لمن ابتلوا باعتياد القبور والدعاء عندها، فبعض الناس يقول: والله فلان نزلت به حاجة أو مرض أو ضرورة وذهب إلى قبر الشيخ الفلاني أو السيد

الفلاني ودعا الله عز وجل فاستجيب له ويتوقع هو وغيره من أهل الجهل أن السر في القبر والحضور عند القبر والصحيح أن السر في إجابة الدعاء هو اضطرار هذا الداعي، أو الضرورة هي التي كانت سبباً لإجابة الداعي ولهذا إذا وجدت هذه الضرورة في بيت من بيوت الله وليس عند قبر من القبور لا شك أن هذا أفضل وأولى وهذا هو المشروط.

يقول: " فالأدعية والتعويزات والرقى بمنزلة السلاح ".

يقول: الرقية والتعويزات والأوراد والأدعية كلها بمنزلة ومثل السلاح "والسلاح بضاربه لا مجده فقط فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً والساعد ساعداً قوياً والمحل قابلاً والمانع مفقوداً حصلت فيه النكاية بالعدو، وما تخلف واحد من هذه الثلاث تخلف التأثير "يعني قد يكون الآن السلاح قوياً والذي يحمل السلاح بطل من الأبطال وشجاع من الشجعان لكنه يضرب مثلاً العدو الذي أمامه وهو لا بس درعاً من حديد قوياً فلا يؤثر فيه، فلا يقال لا فائدة للسلاح، لا، لكن متى تحصل الفائدة به؟ إذا كان الساعد قوياً، والسلاح حاداً، والمكان قابلاً لهذا السلاح .

يقول: " فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل أثر "

ذكر الشيخ بعض موانع الدعاء، وموانع الدعاء كثيرة ذكرها أهل العلم لكنه ذكر جزءاً للتمثيل فقط.

يقول: " قد يكون الدعاء في نفسه غير صالح "والله عز وجل أشترط في أي عباده أن تكون صالحه لأجل القبول، {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}، قد يكون الدعاء غير صالح، يعني تجرد عن شروط الصلاح إما الإخلاص وإما المتابعة، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، فقد يدعوا الإنسان بلسانه وقلبه مشغول بأمر آخر .

فمن أسباب إجابة الدعاء حضور القلب وتوافق القلب مع اللسان، أو كان ثم مانع من الإجابة، أي إن كان مثلاً يأكل من مال حرام، جاء في حديث سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (أطب مطعمك تكن مجاب الدعوة)

العقوق من أسباب موانع الإجابة ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن أويساً مجاب الدعوة لأنه كان باراً بوالدته .

ذهب المؤلف رحمه الله إلى مسألة أخرى، قول الطحاوي "ويملك كل شيء ولا يملكه شيء ولا غنى عن الله تعالى طرفه عين، ومن استغنى عن الله طرفه عين فقد كفر وصار من أهل الحين ".

يقول الشيخ: " وهذا كلام ظاهر لا يحتاج إلى شرح والحين هو الهلاك، يعني صار من أهل الهلاك ".

ثم قال الطحاوي " والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى "

نص على صفتين من الصفات التي جرى الخلاف فيها بين أهل السنة وبين المعطلة بفرقهم المختلفة الجهمية والمعتزلة (والأشاعرة) لكنه سيقف كثيراً وينظر الأشاعرة في هاتين الصفتين لأنهم نفوها عن الله وأثبتوا ما هو من جنسها فوقعوا في التناقض، ولهذا الرد عليهم ظاهر وواضح .

ذكر أولاً الشيخ الأدلة على هاتين الصفتين صفة الرضا، قوله تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} وفي الغضب قوله تعالى {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} {وَوَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} {وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} ونظائر ذلك كثيرة .

*الشاهد: أن هذه الآيات دالة صراحة على إثبات هذه الصفات لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه لا كما هو ثابت للمخلوق، ولهذا قال المؤلف "ومذهب السلف وسائر الأمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات-وهي صفات فعلية ثابتة لله سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه-التي ورد بها الكتاب والسنة

ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى "فالسلف أجمعوا على أنه لا يجوز أن تؤل هذه الصفات إلى معاني بعيدة عن الحقيقة الثابتة لها، فلا يقال مثلاً الرضا هو إرادة الإنعام، والغضب إرادة الانتقام فهذا فيه صرف للفظ عن ظاهره بغير موجب ونفي لهذه الصفة عن الله عز وجل.

يقول "كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات"، كما أنهم يثبتون لله السمع والبصر والكلام والقدرة والحياة والإرادة فكذلك يثبتون له الغضب والرضا والرحمة والحب والبغض، فليس هناك فرق بين هذه وتلك فالموصوف واحد ودليل ثبوتها واحد، الكل ورد به الشرع.

يقول "كما أشار إليه الشيخ بناء على ما تقدم بقوله: إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم عليه دين المرسلين"

بمعنى الشيخ يرد على من أول هذه الصفات وصرفها عن ظاهرها إلى معاني بعيدة، يقول "وانظر إلى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة الاستواء كيف قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول وقد وروي أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً عليها ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما رفعه إلى النبي فلا يصح، وأما وقفه على أم سلمة فروي لكنه أشتهر وعرف عن الإمام مالك وهي قاعدة عامة يمكن تطبيقها مع كل صفة منسوبة لله، ليس فقط الاستواء، الإمام مالك ذكرها في الاستواء: وذلك أنه لما سأله الرجل فقال {الرحمن على العرش استوى}، كيف استوى؟ فأطرق الإمام مالك رأسه ملياً وعلاه الرخصاء أي العرق من شدة السؤال لأن السؤال عن صفة من صفات الله عز وجل، ثم رفع رأسه وقال "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، فصار كلام الإمام مالك قاعدة مع كل صفة، فنقول الغضب معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، والرضا معلوم الناس يعرفونه بلغة العرب وأنه خلاف السخط ولكن كيفية رضا الله عز وجل مجهولة، والإيمان به واجب والسؤال عن كيفية الرضا أو الغضب بدعة.

يقول: "وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم "ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه" وقول الشيخ رحمه الله "لا كأحد من الوري" فيه نفي التشبيه، يعني أن تثبت لله هذه الصفات لكن ليس على الوجه الثابت للمخلوق؛ فلا يقال الله عز وجل يغضب كغضب المخلوق أو يرضى كرضا المخلوق أو يرحم كرحمة المخلوق أو يحب كمحبة المخلوق، لا، ليس كأحد من الوري بمعنى لا تُشبه صفاته بصفات الخلق.

يقول "ولا يقال أن الرضا إرادة الإحسان، كما أنه ينفي عن الله التشبيه أيضاً ينفي عنه التأويل"، الذين يقولون أن الرضا إرادة الإحسان والغضب إرادة الانتقام هؤلاء المؤولة المعطلة ومن هؤلاء الأشاعرة لما جاءوا لهذه الصفات قالوا معنى الرضا إرادة الإحسان أي أن يريد الله عز وجل الإحسان لهذا الإنسان هذا بمعنى أنه رضا عليه، وغضب الله عليه أي أراد الانتقام، فإن هذا نفي للصفات" يقول تأويل الصفة بإرادة الإنعام وإرادة الانتقام هذا بواقع الأمر نفي للصفة عن الله بمعنى أن الله لا يرضى ولا يغضب.

"وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاءه وينهي عن ما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده فقد يجب عندهم ويرضى مالا يريده ويكره ويسخط ويغضب لما أراده" وهذا تقدم الكلام في باب القضاء والقدر.

يقول "ويقال: لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان" بدأ المناقشة الآن مع الأشاعرة، فالأشاعرة لما جاءوا لنصوص الغضب والرضا أولوها بإرادة الإحسان والانتقام، يقول الشيخ "فيقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان: لما تأولت

ذلك؟" ليه لجأت إلى التأويل؟ لما لم تجرى النص على ظاهره وتجري الصفة على ظاهرها، طبعاً سيرد علينا، ويقول "لأن الغضب غليان دم القلب"، فأنا لا يمكن أن أثبت لله الغضب لأني لا أعرف الغضب إلا بغليان دم القلب، والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى! فالآن هو يقول: أنا نفيت الصفات عن الله لأني لا أعرف عن الغضب إلا غليان دم القلب والرضا الميل والشهوة ولهذا سأنفي هذه الصفات عن الله حتى لا أشبه الله بخلقه، الرد عليه بأن نقول له "غليان دم القلب في الآدمي" هذا خاص بالآدمي "هو أمر ينشأ عن صفة الغضب وليس هو الغضب"، الآن غليان دم القلب متى يكون؟ إذا غضب الإنسان فهو نتيجة للغضب وليس هو الغضب ولهذا إذا غضب الإنسان أحمر وجهه لماذا؟ لأن القلب يبدأ في ضخ الدم إلى الوجه لأنه أقرب الأشياء للتعبير عن هذا الأمر، فالشيخ يقول: غليان دم القلب ليس هو الغضب وإنما ناشئ عن الغضب ونتيجة عن الغضب.

"ويقال له أيضاً وكذلك الإرادة والمشئنة هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه" طيب أنت الآن أولت الغضب إلى إرادة الانتقام، الإرادة أيضاً بالنسبة للإنسان هي أن يميل الحي إلى الشيء الذي يلائمه، إذاً أنت فررت من تشبيه الله عز وجل فوقعت في تشبيهه.

يعني الآن أولت الغضب بالإرادة، الإرادة أيضاً يلزمها ما يلزم الغضب على حد قولك. يقول "هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ صرفت الغضب إلى الإرادة والرضا إلى الإرادة، كالمعنى الذي صرفت عنه سواء".

أنت صرفتها إلى الإرادة فمعنى الإرادة أيضاً مثل معنى الغضب والرضا سواء بسواء، فهذا يدل على التناقض الذي وقعت فيه "فإن قال الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة".

يعني لو قال لنا: أن الإرادة التي لله عز وجل مختلفة تماماً ومباينة تماماً لإرادة العبد التي هي الميل للشيء الذي يريده الإنسان، الجواب: عن ذلك قلنا له أيضاً الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل.

إن كانت الإرادة التي تثبتها لله هي لائق بالله عز وجل فلا يجوز التأويل بل يجب تركه لأنك تسلم من التناقض وتسلم من تعطيل معنى أسماء الله وصفاته.

فإذا أولت الغضب وأثبت الإرادة وقعت في التناقض، فلأجل أن تسلم من التناقض وتثبت لله ما يستحقه من الأسماء والصفات أترك التأويل.

يقول "فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه العقل إذ العقول مختلفة كل يقول أن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر"

يقول: لا يجوز أن نصرف القرآن عن ظاهره فيقول الله {غضب الله عليهم} أو {رضي الله عنهم} فنصرفها عن المعنى الظاهر إلى المعنى الآخر بناء على العقل، فلا يجوز ذلك لأن العقول متفاوتة فقد يقتضي عقلك صرف اللفظ عن هذا المعنى، ويأتي عقل شخص آخر فيقول: لا يمكن صرفه إلى معنى آخر فيكون كلام الله عز وجل ملعبة لهؤلاء وأمثالهم وهذا هو الواقع للأسف، كل يؤول القرآن حسب ما يرى أن عقله دله عليه.

ويقول "وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع مسمى ذلك في المخلوق"

يقول: هذه القاعدة يمكن أن نطبقها على كل شخص ينفي عن الله صفة يعتقد أن إثبات هذه الصفة تقتضي مشابهة الخالق للمخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، يعني هذه القاعدة مع كل معطل حتى مع المعتزلة و الجهمية لأنه في النهاية سيثبت لله صفة الوجود ، فلو افترضنا أنه نفى كل شيء من الأسماء والصفات بناء على أن أثبات هذا يقتضي التشبيه ، في النهاية هل تثبت أن الله موجود ؟ لا بد أنه يثبت.

إذاً صفة الوجود أن تثبت لله صفة الوجود والمخلوق أيضاً موصوف بالوجود فإن أثبت صفة الوجود على الحد الثابت للمخلوق شبهت، وإن قلت: لا، بل صفة الوجود الثابتة لله على الوجه اللائق له وصفة الوجود للمخلوق على الوجه اللائق له ، قلنا: وكذلك في سائر الصفات

يقول " فإن وجود العبد كما يليق به ووجود الله تعالى كما يليق به، وجوده تعالى يستحيل عليه عدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه عدم".

وهذا فرق بين الوجودين، فوجود الله عز وجل لم يسبقه عدم ولم يلحقه الفناء بخلاف وجود المخلوق. بدأ من لا شيء {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً}، ونهايته إلى الموت والعدم ولهذا لكل منهما وجود يخصه ، كذلك في سائر الصفات التي يوصف الرب جل وعلا بها.

يقول "وما سمي به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير أو سمي به بعض صفاته كالغضب والرضا وسمى به بعض صفات عبادته" كذلك الأسماء، الله سمي بعض عبادته الحي وسمى بعض عبادته القدير {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} وسمى نفسه بالحي القدير، فهل يقول عاقل أن الحياة الثابتة للمخلوق كالحياة الثابتة للخالق سبحانه؟! .

يقول " ونعقل بين المعنيين قدراً مشتركاً "نعم أنت لما تثبت للخالق هذا الاسم وتثبت للمخلوق هذا الاسم وتثبت للخالق هذه الصفة وتثبت للمخلوق هذه الصفة لا بد أن تعطي قدر مشترك ، على سبيل المثال الوجود الذي لا يمكن لأي مسلم أن ينكره أو ينفيه عن الله عز وجل، الوجود القدر المشترك يقتضى أنه ضد عدم وهذا يصح بالنسبة للخالق ويصح بالنسبة للمخلوق .

ولهذا قال الشيخ "ونعقل بين المعنيين قدراً مشتركاً" فوجود الخالق ووجود المخلوق بينهما قدر مشترك ألا وهو نفي عدم ، فهذا يصح في حق المخلوق ويصح في حق الخالق.

ثم ذكر تأكيداً لما سبق الكلام عليه، يقول "وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه ونحو ذلك وقالوا: إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو بنفسه متصف بشيء من ذلك"

مذهب الجهمية نفى جميع الأسماء والصفات وهذه الصفات المذكورة قالوا: هي أشياء خلقها الله خارجة عن نفسه ليس متصف بها وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا "لا يوصف الله بشيء يتعلق مشيئته وقدرته أصلاً بل جميع هذه الأمور صفات لازمه لذاته قدره أزليه فلا يرضى"

يعني ابن كلاب ومن وافقه من الأشاعرة خالفوا الجهمية فنفوا عن الله عز وجل الصفات المتعلقة بالمشيئة وهي التي تسمى الصفات الفعلية كالرضا والغضب والمحبة والضحك ونحو ذلك .

طبعاً حجتهم اقتصرنا على الصفات التي لا يمكن أن يتصف الله عز وجل بها إلا أزلاً ، أزلية، يعني لا تتجدد كالرضا والغضب.

يقول " بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا يرضى في وقت دون وقت "

قالوا: ثبت لله الشيء الثابت الذي لا يمكن أن يتجرد عنه في وقت من الأوقات، فالرضا قد يرضى في وقت دون وقت فنفوها عن الله عز وجل ومثله الغضب والمحبة والكره .

يقول "كما قال في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله) في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول لأهل الجنة : (يا أهل الجنة " فيقولون : لبيك وسعديك) ثم ذكر بآخر الحديث (أحل لكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)

" فيُستدل به على أنه يُحل رضوانه في وقت دون وقت وأنه قد يُحل رضوانه ثم يسخط كما قد يحل سخطه ثم يرضى ، لكن هؤلاء أحل عليهم أي أهل الجنة رضواناً لا يعقبه سخط، وهم قالوا لا يتكلم إذا شاء أي الكلاية والأشاعة نفوا عن الله كل صفة متعلقة بالمشيئة وسيأتي حجتهم في ذلك ، قالوا: لأجل أن لا يكون الله محل للحوادث الشيء الذي يحدث، فالله متصف بالصفات الأزلية والقدرة والإرادة والحلم والحياة والعلم والسمع والبصر والكلام فقالوا هذه أزلية ثبتها ولكن الشيء المتعلق بالإرادة والشيئة كالرضا والغضب والمحبة والكره والسخط فلا ثبتها ونفيها عن الله ، " فقالوا: لا يتكلم إذا شاء ولا يضحك إذا شاء ولا يغضب إذا شاء ولا يرضى إذا شاء بل أنه يجعل الرضا والغضب والحب والبغض هو الإرادة"، بمعنى أنهم يفسرون هذه الصفات بصفة يؤولونها بصفة يثبتونها ، الإرادة يثبتونها هم فيعتبرونها صفة ذاته لازمه لله عز وجل أزلاً وأبداً فيحولون كل هذه الصفات إلى صفة الإرادة ، أو يجعلونها صفات أخرى غير الإرادة .

يقول " وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته إذ لو تعلقت بذلك لكان محلاً للحوادث". هذه هي حجتهم أن الله إذا أثبتنا هذه الصفات فيكون الله محلاً للحوادث .

الحلقة (٢٨)

◀ تنمة الكلام عن نفي الجهمية والمعتزلة للصفات :

وأنهم نفوها بناء على أصلهم الفاسد : أن الله لا يكون محلاً للحوادث وتوقفنا على هذا القدر .
يقول الشيخ : " فنفي هؤلاء الصفات الفعلية الذاتية - أي : هؤلاء الكلاية والأشاعة - بهذا الأصل أن الله ليس محلاً للحوادث) كما نفى أولئك - أي : الجهمية والمعتزلة - الصفات مطلقاً ، - لم يثبتوا شيئاً من الصفات - بقولهم : ليس محلاً للأعراض "؛ لأنهم يزعمون أن مثلاً السمع والحياة والقدرة أعراض فإذا أثبتناها لله - عز وجل - فقد شبهنا الخالق بالمخلوق ، طبعاً الكلاية والأشاعة لا يوافقون الجهمية والمعتزلة في ذلك؛ لأنهم يثبتون هذه الصفات لله ، لكن ينفون الصفات الفعلية ، ما حجتكم معاشر الكلاية والأشاعة ؟ قالوا: الله ليس محلاً للحوادث
والشيخ يقول : " وقد يقال بل هي أفعال ولا تسمى حوادث - لماذا سميتوها حوادث ؟! - كما سُميت تلك صفات ولم تُسم أعراضاً "، كما أنكم سميت القدرة والإرادة والحياة صفات وما سميتوها أعراض كما صنع المعتزلة والجهمية ، كذلك هذه تسمى أفعال لله - عز وجل - ولا تسمى حوادث كما زعمتم ثم ذكر أن الكلام على الصفات تقدم وإنما الشيخ أتى به هنا فكان لزاماً من الإشارة إليه .

انتقل إلى مسألة جديدة وذكر أيضاً أنه الشيخ لم يلتزم الترتيب ويقول : وأفضل ما رتبت عليه كتب العقائد حديث جبريل وهذا الذي سار عليه السلف الصالح : أنهم رتبوا مسائل الاعتقاد بناء على ترتيب حديث جبريل - عليه السلام - الطويل لما سأل النبي - صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ؟ فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، فيبدؤون بالكلام عن الإيمان بالله أنواع التوحيد الثلاثة ، ثم الإيمان بالملائكة وهلم جرّاً .

« الشيخ يقول : " هذا أحسن ما يرتب عليه كتب أصول الدين " ، ترتب بناء على جواب النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل .

« ما ورد في الثناء على الصحابة :

انتقل بعد ذلك إلى مسألة جديدة وهي قول الطحاوي : " وَحُبُّ أَصْحَابِ رَسُولِ ﷺ ، وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ؛ وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ ، وَبِعَیْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ ، وَلَا نُذَكِّرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ . "

يقول : " يشير الشيخ - رحمه الله - هنا إلى الرد على الروافض والنواصب " .

لأن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ابتلوا بطائفتين :

(١) طائفة غلت في بعضهم كما صنع الرافضة مع آل البيت غلت في علي ومن معه ، وعدد محدود جدا من الصحابة كسلمان والمقداد وعادت البقية .

(٢) الخوارج ناصبوا العداء لجمهور الصحابة ، فذكر هذا ردا عليهم كما سلك أهل السنة في مؤلفاتهم لما يتكلمون عن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في كتب الاعتقاد لأجل الرد على هاتين الطائفتين اللتان ابتلي بهما أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - .

يقول : وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنی كما قال تعالى وذكر شيئا من الأدلة في الثناء على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -

« أدلة ثناء الله على الصحابة في الكتاب والسنة :

قال تعالى : { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

وقال تعالى : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا إِلَى آخِرِ آيَةِ الْفَتْحِ } وقال تعالى : { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } ، وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } ، وقال تعالى : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (١٠) ،

وقال تعالى : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (١٠) {

يقول : " وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار ، وعلى الذين جاءوا من بعدهم - ، فأثنى على الأصناف الثلاثة : المهاجرين ، الأنصار ، الذين جاءوا من بعدهم - ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلا لهم ، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء ، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم ، لا يستحق في الفيء نصيبا بنص القرآن " .

ثم ذكر بعض الأحاديث في الثناء على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -

يقول: "وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - ، قال : (كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء " ومعلوم أن عبد الرحمن بن عوف تقدم إسلامه على خالد ، خالد من مسلمي الفتح - رضي الله عن الجميع - " فسيبه خالد فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تسبوا أحدا من أصحابي ، فلو أن أحداكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه). انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن ، دون البخاري ."

"قالنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول لخالد ونحوه : (لا تسبوا أصحابي) يعني عبد الرحمن وأمثاله ؛ لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقتلوا وهم أهل بيعة الرضوان فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان وهم الذين أسلموا بعد الحديبية ، وبعد مصالحة النبي - صلى الله عليه وسلم - أهل مكة - ومنهم خالد بن الوليد وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة وسموا الطلقاء ومنهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية " .

المقصود إذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى أن يسب المتأخر من أصحابه المتقدم في الإسلام وأخبر أنه لو أنفق أحدهم مثل أحد - هذا الجبل العظيم ، الذي يراه كل إنسان في المدينة في أي مكان - أنفقه ذهباً وفضة في سبيل الله ما بلغ في الفضل عند الله - عز وجل - نفقة أحد الصحابة مد أو نصف المد من شعير ، من بر ، من تمر ، من أقط ، وذلك لمكانتهم - رضي الله عنهم -

يقول : " والمقصود أنه نهى من له صحبة آخراً أن يسب من له صحبةً أولاً ؛ لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية ، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال من مع الصحابة ؟! رضي الله عنهم أجمعين ، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الذين أنفقوا " . لو قيل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؟ أحسن الأقوال أن يقال وهذا هو القول الراجح : هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقتلوا ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربع مئة " .

هناك أقوال أخرى ذكرها المؤلف في تحديد السابقين الأولين ،

يقول : " وقيل : إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين وهذا ضعيف فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرد فضيلة لأن النسخ ليس من فعلهم ولم تدل على التفضيل به دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة . وأما ما يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) فهو حديث ضعيف" ضعفه شديد إن لم يكن موضوعاً .

يقول : " وفي صحيح مسلم عن جابر - رضي الله عنه - قال : قيل لعائشة - رضي الله عنها - : إن أناساً يتناولون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أبا بكر وعمر ! فقالت : وما تعجبون من هذا ! انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر " يعني جاء أناس إلى عائشة قالوا : أن هناك من يقع في أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى لم يسلم منهم الشيخان أبو بكر وعمر ، قالت : وما تعجبون؟! الله - عز وجل - لما انقطع عنهم العمل أحب أن يجري عليهم الأجر فهم يؤجرون بهذا السب وبهذا البغض - رضي الله عنهم وأرضاهم -

يقول : " وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال : (لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة - يعني مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وفي رواية : (تغبر فيه قدماءه ، وفي رواية : يغبر فيه وجهه ، خير من عمل أحدكم أربعين سنة) " ولهذا شرف الصحبة لا يدانيه ولا يجاريه أي شرف ، لاحظ كلام ابن عباس لمقام أحدهم مقام

واحد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خير من عمل أحدكم أربعين سنة فمهما بلغ من هو من غير الصحابة من التابعين أو من تابعيهم أو ممن بعدهم من العمل والفضل فلن يداني قدر الصحابة - رضي الله عنهم - .

يقول : " وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) قال عمران : " فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة " . وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) . وقد قال تعالى : { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ } . ولقد صدق عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في وصفهم حيث قال - ابن مسعود الآن يصف أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بوصف واقعي صادق - إن الله تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالة ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً - أي هؤلاء الذين توفي عنهم النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو راض - فهو عند الله حسن وما رآه سيئاً فهو عند الله سيء " .

يقول : " وفي رواية : وقد رأى أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر ، وأيضاً تقدم كلام ابن مسعود : " من كان مستناً فليستن بمن قد مات ... إلخ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة " ، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه فاعرفوا لهم قدرهم وحققهم " يقول : " فمن أضل ممن يكون في قلبه غل لخيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين " يتأفف ويتحسر في هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم غلا لهذا الجليل الذي اصطفاه الله عز وجل وتولى النبي - صلى الله عليه وسلم - تربيته بنفسه ولهذا في أحاديث أخرى : (الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي) الغرض هو الهدف للرامي ، فأمرنا أن نكف عنهم وأن نمسك عنهم وأن نذكر حسناتهم وندع ما وقع بينهم إلى الله عز وجل كما سيذكره المؤلف ، ولا شك أنهم ليسوا بمعصومين ، فالخطأ واقع منهم واقعاً ، وجائز عليهم شرعاً وعقلاً ، لكن

ما وقع منهم من هنات وأخطاء فهي مغمورة في بحر حسناتهم ، فالبحر لا يتأثر بأن يلقي فيه جيفة ، ولا يتغير لونه ولا طعمه ولا ريحه ، يدل لذلك أن مثل هذه الأخطاء البسيطة لا تؤثر في بحر حسناتهم : ما ثبت في صحيح البخاري من حديث حاطب بن أبي بلتعة الطويل لما أراد أن يكتب لكفار قريش لعزم النبي - صلى الله عليه وسلم - على غزوهم ، في آخر الحديث قال عمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - : (دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق ، قال : لا يا عمر فإنه قد شهد بدراً ، فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم) .

هذه السيئة وإن كانت كبيرة وإن كانت عظيمة لكنها مغمورة في بحر حسنات هذا الرجل مع حسنة واحدة " حضور غزوة بدر " انظمت هذه السيئة في بحر هذه الحسنة العظيمة .

هو هنا يتكلم عن هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم غل - وهم الرافضة - على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -

يقول : " بل قد فضلتم اليهود والنصارى بخصلة ، قيل لليهود : من خير أهل ملتكم ؟ - سئل اليهود من أفضل وخير أهل ملتكم ؟ - قالوا : أصحاب موسى ، وقيل للنصارى : من خير أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحاب عيسى ، وقيل للرافضة : من شر أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحاب محمد !! لم يستثنوا منهم إلا القليل ، و فيمن سبوا من هو خير ممن استثنواهم بأضعاف مضاعفة " لا شك ، سبوا أبا بكر ، سبوا عمر ، سبوا عثمان ، سبوا بقية العشرة ، ومن هؤلاء من هو خير ممن استثنوا بصريح

الأدلة .

يقول : "وقوله : " وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ " أي : لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم كما تفعل الشيعة فنكون من المعتدين ، قال تعالى : {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}

نعم ، نحب أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- هذه عقيدة أهل السنة لكن لا نغلو في هذا الحب كما صنعت الشيعة في علي وآل بيته ، لا ، نحبهم الحب الشرعي وننزلهم منزلتهم التي أنزلهم الله إياها ولكن لا نغلو في حبهم ، فإنهم بشر يجري عليهم ما يجري على البشر لكنهم أفضل هذه الأمة وأحب هذه الأمة ، وأقرب الأمة إلى قلب نبيها عليه الصلاة والسلام ، ولقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وتوفي النبي - صلى الله عليه وسلم- وهو عنهم راض ، ولهذا أمر التابعين ومن بعدهم إلى قيام الساعة بالإمساك عن أصحابه عليه الصلاة والسلام ، فمن حقوقه علينا أن نرعاه في أصحابه - رضي الله عنهم وأرضاهم - .

يقول : وقوله : " وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ " كما فعلت الرافضة فعندهم لا ولاء إلا ببراء .

هذه قاعدة عندهم ما في ولاء لعلي وآل بيته إلا بالبراء من جمهور الصحابة خاصة من الشيخين ، وهذه بدعة من بدع الروافض بل الولاء للجميع ، ولا نتبرأ من أحد منهم .

يقول : " لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأهل السنة يوالونهم كلهم ، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها ، بالعدل والإنصاف لا بالهوى والتعصب ، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد كما قال تعالى : {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} وهذا معنى قول من قال من السلف : الشهادة بدعة ، والبراء بدعة " الشهادة أي : الشهادة لمعين أنه من أهل الجنة أو من أهل النار ممن لم يشهد له النص ، أما البراءة فهي البراءة من أبي بكر وعمر بناء على أنه لا ولاء إلا ببراء .

يقول : " يروى ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين ، منهم : أبو سعيد الخدري والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وغيرهم ، ومعنى الشهادة : أن يشهد على معين من المسلمين أنه من أهل النار أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به ، وقوله : " وَحُبُّهُمْ دِينَ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ " لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص .

ولهذا جاء في صحيح مسلم : (أن حب الأنصار من الإيمان ، وحب علي وآل البيت من الإيمان) ولا شك أن محبة الصحابة رضي الله عنهم جميعا من الإيمان .

يقول : " وروى الترمذي عن عبد الله بن مغلل قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول : (الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)

إذا النبي - صلى الله عليه وسلم- أمرنا في هذا الحديث بأن نتولى جميع أصحابه وأن نحب جميع أصحابه دون استثناء ، وأن نعرف لهم قدرهم ومنزلتهم رضي الله عنهم وأن لا نتخذهم غرضا بعده يعني : مكانا للسب والنيل ، بل نذكر محاسنهم ونسكت عما حصل بينهم .

يقول : " وتسمية حب الصحابة إيمانا مُشكِل على الشيخ رحمه الله ؛ لأن الحب عمل القلب وليس هو التصديق فيكون العمل داخلا في مسمى الإيمان " ، بالطبع الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله على مذهب الإمام أبي حنيفة : أن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان ولهذا أشكلت عليه هذه العبارة حب الصحابة إيمان والحب عمل قلبي ، كيف أدخلت العمل في

مسمى الإيمان؟ وأنت على مذهب جمهور الأحناف أن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان !!
المؤلف هنا الشارح أراد أن يعتذر، فيقول: "فيكون العمل داخلا في مسمى الإيمان وقد تقدم في كلامه: "أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان"، ولم يجعل العمل داخلا في مسمى الإيمان وهذا هو المعروف من مذهب أبي حنيفة إلا أن تكون هذه التسمية مجازا".

يعني أطلق أن الحب إيمان من باب المجاز وليس من باب الحقيقة .
يقول: "وقوله: "وَبَعْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ يُظَاهِرُونَ" تقدم الكلام في تكفير أهل البدع وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} وقد تقدم الكلام في ذلك "يعني: كفر دون كفر، وتقدم الكلام على هذا بالنسبة لكم في الفصول السابقة .

يقول: "قوله "الطحاوي":

خلافة أبي بكر رضي الله عنه:

" وَنُتِبَتِ الْخِلَافَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ "

بدأ الكلام في مسألة متعلقة بالصحابة ومتعلقة بالإمامة ، والإمامة مسألة من المسائل الكبار التي جرى الخلاف فيها في وقت مبكر، في زمن الصحابة وقريبا من زمنهم رضي الله عنهم ، وافتقرت الأمة بسبب هذه المسألة فرق وأحزاب ، ولكن الله عز وجل وفق أهل السنة وهداهم للحق والصواب ؛ ولهذا ضمن السلف رحمهم الله مسألة الإمامة ضمنوها كتب العقائد .

الحلقة (٢٩)

◀ مسألة الإمامة والخلافة

وتوقعنا على قول المؤلف: "وَنُتِبَتِ الْخِلَافَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ "

◀ مسألة خلافة أبي بكر رضي الله عنه :

أجمع أهل السنة على أن المستحق للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر رضي الله عنه بإجماع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا لا خلاف فيه بين أهل السنة قاطبة، لكن اختلفوا هل ثبتت خلافته بالنص أم بالاختيار؟ ومن قال أنها ثبتت بالنص ، هل هو بالنص الجلي، النص الواضح، استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم بعده، وولاه الخلافة بعده ، أم بالنص الخفي ؟

يقول الشارح: "اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه هل كانت بالنص أو بالاختيار ؟".

بمعنى : هل النبي صلى الله عليه وسلم نص على أن الخليفة بعده أبو بكر؟ أم أنه ترك الأمر للصحابة وهم الذين اختاروه فصار خليفة بناء على اختيار جمهور الصحابة ؟

يقول: "فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة"

الحسن وبعض أهل الحديث قالوا: ثبتت بالنص، لكن ليس بالنص الجلي، النص الخفي والإشارة، النبي صلى الله عليه وسلم نص عليه لكن لم يكن نصا جليا لم يكن واضحا، وأشار إلى ذلك إشارات .

يقول: "ومنهم -أي: من أهل الحديث ومن السلف- من قال: بالنص الجلي، وذهب جماعة من أهل الحديث -ومن السلف-

والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار وليس بالنص، لا خفيا ولا جليا.

♦ أدلة من قال إنها بالنص : مجموعة من الأحاديث ذكر المؤلف شيئا منها ، من ذلك :

- الدليل الأول ما رواه البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : (أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرايت إن جئت فلم أجدك؟- كأنها تريد الموت- وفي رواية -أنه قال: لها تعالي من العام القابل، قالت: أرايت إن لم أجدك؟ - إذا أنت قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى - قال : إن لم تجدني فأني أبا بكر).
- قالوا: هذا فيه نص من النبي صلى الله عليه وسلم على أن الخليفة بعده والذي سيتولى الأمر بعده: أبو بكر.
- الدليل الثاني: يقول: وحديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقتدوا بالذَّيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر)

قالوا: هذا نص من النبي صلى الله عليه وسلم أن الخليفة بعده أبو بكر؛ ولهذا أمرنا بالإقتداء به وبعمر

- الدليل الثالث: في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: (دخل عليَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في اليوم الذي بُدئ فيه - أي : بدأه الموت - فقال : " ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا ثم قال : يا أبا الله والمسلمون إلا أبا بكر - وفي رواية: (فلا يطمع في هذا الأمر طامع).
- قالوا : هذا نص من النصوص ، يقول لعائشة : ادعي أباك ، تعني : الصديق ، وأخاك لأكتب له كتاب : أن الخليفة من بعدي أبو بكر ، ثم ترك ذلك وقال : (يا أبا الله والمسلمون إلا أبا بكر).
- وفي رواية : قال: (ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر لأكتب لأبي بكر كتابا لا يُختلف عليه ، ثم قال: معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر).

قالوا : هذا نص جلي على أن الخليفة بعده أبو بكر .

يقول : - أيضا من الأدلة على أنه بالنص - "أحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة ، وهو يقول : (مروا أبا بكر فليصل بالناس)

كونه استخلفه على الصلاة ، وأمره أن يؤم الناس ، وروجع في ذلك ، راجعته عائشة أكثر من مرة وراجعته حفصة ، ومع ذلك أصر على أن الذي يؤم الناس بعده أبا بكر ، قالوا : هذا نص من النبي صلى الله عليه وسلم على أن الخليفة بعده أبو بكر .

يقول : " وقد رُوجع في ذلك مرة بعد مرة فصلى بهم مدة مرض النبي صلى الله عليه وسلم ."

♦ من الأدلة أيضا : يقول : " وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (بيننا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف ، والله يغفر له ، ثم استحالت غربا ، فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه ، حتى ضرب الناس بعطن).

يقولون : هذا دليل أيضا على أن النبي صلى الله عليه وسلم نص عليه من بعده ، فهذه الرؤية فيها نص ، أنه - القليب - النبي صلى الله عليه وسلم نزع منها ، ثم نزع أبو بكر بعد نزع النبي صلى الله عليه وسلم ، أي: أن الذي سيتولى الأمر بعدي هو: أبو بكر ، قوله : (ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين) فيه إشارة إلى قصر مدة خلافته رضي الله عنه (وفي نزعه ضعف) قال أهل العلم: هذا الضعف: الاضطرابات والمخالفات التي حصلت من أهل الردة

(والله يغفر له، ثم استحالت غربا) أي: تحول الدلو إلى غرب، الغرب أكبر من الدلو، "فأخذها ابن الخطاب" والسبب : اتساع

وطول مدة خلافته ، وأيضا :انتظام الأمور في وقته رضي الله عنه ،انتظمت الأمور في وقته تماما ، لم تنتظم لأحد مثله ؛ ولهذا قال : (فلم أر عبقريا من الناس يَفْرِي قَرِيه) ينزع بقوة وشدة ، (حتى ضَرَبَ الناس بِعَظَن) يعني : رَوَّوا ورَوَّوا بهائمهم . يقول : " وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال على منبره : (لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، لا يَتَقَيَّنَ في المسجد خَوْخَةٌ إلا سدت إلا خوخة أبي بكر) .

يقول : " وهذا أيضا فيه نص على أن الخليفة بعده أبو بكر " .

يقول : " وفي سنن أبي داود وغيره من حديث الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : (من رأى منكم رؤيا ؟ فقال رجل : أنا رأيت كأن ميزانا أنزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر ، فرجحت أنت بأبي بكر ، ثم وزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر ، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ثم رُفِع الميزان فرأيت الكراهة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم - أوَّلها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : خلافة نبوة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء) قالوا : هذا نص من النبي صلى الله عليه وسلم على أن الخليفة بعده : أبو بكر .

يقول : " فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة ثم بعد ذلك ملك ، وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه ؛ لأنه لم يجتمع الناس في زمانه " بمعنى : أنه حصل في وقته اضطراب ، معروف أن أهل الشام لم يبايعوه " بل كانوا مختلفين ، لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك . وروى أبو داود أيضا عن جابر رضي الله عنه أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيظ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونيظ عمر بأبي بكر ، ونيظ عثمان بعمر قال جابر : فلما قمنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : أما الرجل الصالح فرسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني المذكور في الرؤيا التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم - ، وأما المنوط بعضهم ببعض - أي : يكون كل واحد معلق بالآخر - فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه)

" وروى أبو داود أيضا عن سمرة بن جندب أن رجلا قال : (يا رسول الله رأيت كأن دلوا دُيَّ من السماء ، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شربا ضعيفا ، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضرع ، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضرع ، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت منه ، فانتضح عليه منها شيء) .

" وعن سعيد بن جهمان عن سَفينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء أو الملك) .

هذه الأدلة استدلت بها من قال : أن خلافة أبي بكر كانت بالنص من النبي صلى الله عليه وسلم .

أما من قال أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وأن خلافته كانت بالاختيار ، استدلت بذلك بمجموعة من الأدلة منها : يقول : " واحتج من قال لم يستخلف - يعني أنها كانت بالاختيار ، ما حجتكم ؟ قالوا : حجتنا الخبر المأثور - عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر ، وإن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) - قال هذا الكلام لما طُعن ، قيل له : استخلف يا أمير المؤمنين ، يعني أوص من يتولى الخلافة بعدك ، قال : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ، يعني أبا بكر ؛ لأنه استخلف عمر ، نص على عمر ، كتب أن الخليفة بعده عمر ، وإن لم أستخلف هذا هو الشاهد ، ولم ينكر عليه الصحابة رضي الله عنهم ، ولم ينكر عليه من حضر ، ما قالوا : لا يا أمير المؤمنين ، الرسول استخلف أبا بكر ، قال : وإن لم أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا ابن عمر يقول : لما ذكر رسول الله ،

علمت أنه لم يستخلف لأنه لا يعدل برأي النبي صلى الله عليه وسلم أحد .
وأيضا ذكر دليل آخر يقول : (وبما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفا لو استخلف ؟)

قالوا : هذا دليل صريح لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخلف لذا سألوها من كان مستخلفا، لو استخلف ، لو افترضنا أنه استخلف ، فلو كان مستخلفا لقالت عائشة : لا ، هو استخلف أبا بكر ، كيف تقولون لو كان مستخلفا؟
يقول : "والظاهر والله أعلم أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب ولو كتب عهدا لكتبه لأبي بكر، بل قد أراد كتابته ثم تركه ، وقال : (يأي الله والمسلمون إلا أبا بكر)

بالطبع هذا الجواب أجاب به الذين قالوا : أن رسول الله استخلف أبا بكر ، قالوا : الجواب عن حديث عائشة وحديث عمر : أن المقصود به أنه لم يستخلف بكتاب مكتوب ، هذا ليس صحيح ،

هو لم يستخلف لا بكتاب مكتوب ولا بعهد منطوق ، وسيأتي إن شاء الله القول الراجح .
يقول : " فكان هذا أبلغ من مجرد العهد فإن النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك حامد له ، وعزم على أن يكتب بذلك عهدا ، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه "

هذا هو الراجح إذن القول الراجح : أنه لم يستخلف لا نصا جليا ولا خفيا ، بل ترك الأمر للمسلمين لما علم أن المسلمين لا يختارون غيره ولا يعدلون عنه ، نعم دلهم على هذا الأمر ، أرشدهم إليه ، ألمح إليه ، لكنه لم يستخلف لا استخلاف مكتوب ولا منطوق ، هذا هو الرأي الراجح .

يقول : " فترك الكتاب اكتفاء بذلك " اكتفاء بأن المسلمين لا يعدلون عن أبي بكر ، وهذا أقوى في خلافة أبي بكر ، لو استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم ، يكون استخلاف النبي صلى الله عليه وسلم بطريق واحد ، لكن كونه أرشدهم ودلهم وألمح إلى هذا الأمر ، ثم ترك الأمر إليهم فاختره الصحابة ، فكان هذا أقوى في تثبيت خلافته رضي الله عنه وأرضاه .
يقول : " ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ، ثم لما حصل لبعضهم شك : هل ذلك القول من جهة المرض ؟ أو هو قول يجب إتباعه ؟ ترك الكتابة اكتفاء بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر " لما علم أن المؤمنين لم يختاروا غير أبي بكر ترك أمر الكتابة ، ليس هناك حاجة للاستخلاف ، يقول : " فلو كان التعيين مما يشتهه على الأمة لبينه بيانا قاطعا للعذر ، لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعين وفهموا ذلك ، حصل المقصود " يقول : هو أرشدهم ، دلهم ، عرف أن الآن القضية اتضحت لهم ، ترك الأمر إليهم .

يقول : " ولهذا قال عمر " - لاحظ عمر ، لو كان عنده شيء مكتوب من النبي صلى الله عليه وسلم أو نص من النبي صلى الله عليه وسلم في استخلاف أبي بكر ، لما كان اختلاف الأنصار والمهاجرين ، ولما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يؤمروا عليهم أحدهم ، جاء عمر ، لو كان معه نص مباشرة ، لقطع رضي الله عنه دابر الخلاف ، وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أصلا استخلفه فلا اختيار لنا ، وهذا من أقوى الأدلة التي استدلت بها من قال : أن خلافة أبي بكر بالاختيار وليس بالنص ، لكن ماذا قال عمر ؟

يقول : " ولهذا قال عمر رضي الله عنه في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار : أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر ذلك منهم أحد ، ولا قال أحد من الصحابة : إن غير أبي بكر من المهاجرين

أحق بالخلافة منه، ولم ينازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار، طمعا في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بطلانه " . أي : أن يكون أميرين .

يقول : " ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر إلا سعد بن عباد ، لكونه هو الذي كان يطلب الولاية ، ولم يقل أحد من الصحابة قط إن النبي صلى الله عليه وسلم نص على غير أبي بكر ، لا على علي ولا العباس ولا غيرهما ، كما قد قال أهل البدع " .

عمر رضي الله عنه لما قام في سقيفة بني ساعدة قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم رضىك - يعني أبا بكر - لدينا أفلا نرضاك لدينا ، فلو كان معه نص لذكره ، لكنه فهم من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم من فعل النبي صلى الله عليه وسلم كما فهم جمهور الصحابة : أنه هو الخليفة بعده ؛ ولهذا اختاروه خليفة استنادا إلى هذه النصوص واسترشادا بها .

يقول : " وروى ابن بطة أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلي إلى الحسن فقال : هل كان النبي صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر ؟ فقال : أو في شكك صاحبك ؟ نعم ، والله الذي لا إله إلا هو استخلفه ، لهو كان اتقى الله من أن يتوثب عليها " .

يقول : " وفي الجملة : فجميع من نقل عنه أنه طلب تولية غير أبي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية ، ولا ذكر أن غير أبا بكر أفضل منه ، أو أحق بها ، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط ، وهم كانوا يعلمون فضل أبي بكر رضي الله عنه ، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ففي الصحيحين عن عمرو بن العاص : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ فقال : عائشة " فقلت : من الرجال ؟ قال : أبوها " قلت : ثم من ؟ قال : " عمر " وعد رجالا) " .

الشيخ يقول : ليس هناك دليل لا شرعي ولا قولي يعتد به لمن ذهب إلى أن غير أبي بكر أفضل من أبي بكر ، أو أنه أحق بالخلافة منه ، وإنما كل من ذهب إلى غير هذا فإنما حمله على ذلك إما حب القبيلة أو العصبية أو الهوى ، كما هي الحال عند أهل الضلال من الرافضة وغيرهم .

◀ بيان فضل أبي بكر ومكانته عند النبي صلى الله عليه وسلم :

يقول : " وفيها أيضا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر أخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه ، - هذه الأحاديث المؤلف يسوقها لبيان فضل أبي بكر ومكانة أبي بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنها لا يدانيها أي منزلة لبقية أصحابه رضي الله عن الجميع - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أما صاحبكم - يعني أبا بكر - فقد غامر) فسلم وقال : إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء - يعني صار بيني وبينه سوء تفاهم - فأسرعت إليه ، ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي ، فأبى علي ، فأقبلت إليك - كأنه يعني يقول : لعلك تتوسط لي عند عمر أن يغفر لي وأن يسمح لي - فقال : (يغفر الله لك يا أبا بكر) - يعني النبي صلى الله عليه وسلم قال له هذا الكلام - ثلاثا ، ثم إن عمر ندم ، فأتى منزل أبي بكر فسأل : أتم هو ؟ فقالوا : لا ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه ، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتغير - أي : يتغير - حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ، فقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم مرتين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم - هذا هو الشاهد في بيان فضل ومنزلة ومكانة أبي بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم - : (إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟) مرتين ، يقول الراوي : فما أؤذي بعدها " . ومعنى غامر : أي : غاضب وخاصم ، ويضيق هذا المختصر في ذكر فضائله رضي الله عنه فقد ألفت فيه مؤلفات مستقلة . ثم ذكر قصة مبايعة أبي بكر رضي الله عنه كما روتها عائشة في

الصحيحين ، الشاهد أن القول الراجح في المسألة في خلافة الصديق : أن المصطفى لم يأمر المسلمين بأن يكون الخليفة عليهم من بعده أبا بكر، وإنما دلهم عليها لإعلام الله له بأن المسلمين سيختارونه، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف أبي بكر ، وأرشدهم إليه بأمر متعددة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك حامد له ، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً، ثم عَلم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك، فلو كان التعيين مما يشتهبه على الأمة لبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا قاطعا للعدر ، ولكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعين، وفهموا ، حصل المقصود ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمحضر من المهاجرين والأنصار : ليس فيكم من تُقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر فخلافة الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسوله بها ، وانعقدت لمبايعته إلخ ما ذكر، واختاره المسلمون اختياراً استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله، وأنه أحقهم بهذا ... إلخ ما ذكر رحمه الله.

*** الشاهد :** أن خلافته على القول الصحيح ثبتت بالاختيار استناداً إلى إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وإلى دلالاته بأفعاله وأقواله .

الحلقة (٣٠)

◀ ثبوت الخلافة لعمر بن الخطاب بعد أبي بكر :

تكلّمنا في الحلقة السابقة عن كلام المؤلف حول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ، والخلاف فيها بين أهل السنة حول ثبوتها ، هل ثبتت بالنص الجلي أو الخفي ؟ أم ثبتت بالاختيار؟ وانتهينا إلى القول الراجح أنها ثبتت بالاختيار ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى ذلك ، ودلهم عليه ، وأراد أن يكتب كتاباً بخلافته ، لكنه لما علم أن الله عز وجل سيختار أبا بكر وأن المسلمون سيختارون أبا بكر ولن يعدلوا عنه ، ترك الكتابة اكتفاء بذلك ، وقد أرشدهم إلى أنه الأحق بالخلافة بفعله وقوله صلى الله عليه وسلم، وكل من زعم أن غيره أحق بالخلافة منه فلا دليل معه البتة ، وهذه قاعدة :

ولهذا أجمع أهل السنة استناداً إلى هذه الأدلة الصريحة الصحيحة التي لا تقبل التأويل: أن المستحق للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر، وعليه أجمع الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يقول الطحاوي : ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه).

أي وثبتت الخلافة من بعد أبي بكر ، لعمر رضي الله عنه أيضاً هذا مما أجمع عليه أهل السنة: أن المستحق للخلافة بعد أبي بكر، عمر رضي الله عنه، باستخلاف أبي بكر، وقد رضي به المسلمون قاطبة، ولم يعترض على ذلك معترض .

يقول: "أي وثبتت الخلافة بعد أبي بكر، لعمر رضي الله عنهما، وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه". لما فوّض الأمر إلى عمر، أجمعت الأمة عليه رضي الله عنهم وأرضاهم .

يقول : " وفضائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر ، وأكثر من أن تذكر ، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه قال : قلت لأبي - يعني: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا ثابت في صحيح البخاري: يا أبت من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا بني ، أو ما تعرف ؟ فقلت : لا ، قال : أبو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر ، وخشيت أن يقول : ثم عثمان فقلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وُضع عمر على سريره - أي : بعدما طُعن في صلاة الفجر ، وسيذكرها في حديث عمرو بن ميمون الطويل - ، فتكثفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه - يعني اجتمع عليه الناس ، وتزاحموا عليه - قبل أن يُرفع ، وأنا فيهم فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي ، فالتفت إليه فإذا هو عليّ - لاحظ عليّ رضي الله عنه الذي يزعم الرافضة أن عمر اغتصب الخلافة منه - فترحم على عمر ، وقال : ما خَلَفْتُ أحداً أَحَبَّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك ، وذلك أني كنت كثيراً ما كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما".

"وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزعه من القليب ، ثم نزع أبي بكر ، ثم استحالت الدلو غربا ، فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقرى من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن".

"وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص ، قال : (استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده نساء من قريش ، يُكَلِّمْنَهُ عالِيَةً أصواتهن ، الحديث ...- يعني خفضن أصواتهن - وفيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم - لأن هذا هو الشاهد - : (إيه يا ابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك)

"وفي الصحيحين أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : (قد كان في الأمم قبلكم محدّثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد ، فإن عمر بن الخطاب منهم). قال ابن وهب : تفسير محدّثون : ملهون".

بمعنى إن يكن في هذه الأمة أحد ملهم فهو عمر رضي الله عنه ، فهذه الأحاديث دالة على فضله ومكانته رضي الله عنه ، واستخلاف أبي بكر ، ورضا الأمة بهذا الاستخلاف يُعد إجماعا على خلافته رضي الله عنه وأرضاه .

◀ ثبوت الخلافة عثمان بن عفان :

ثم قال المؤلف : "وقوله : "ثُمَّ لِعُثْمَانَ" أي : وثبتت الخلافة من بعد أبي بكر وعمر لعثمان رضي الله عنهما ، وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه ، وأمر الشورى والمبايعة لعثمان في صحيحة فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون..."

القصة طويلة : أنه لما دخل أبو لؤلؤة المجوسي وطعن عمر في صلاة الفجر وقَدَّمَ عمر عبد الرحمن بن عوف فأكمل بالناس الصلاة ، ثم جاءه الناس ونقل إلى بيته وسقي لبنا فخرج اللبن من جسده فعملوا أنه ميت ، بمعنى أن أمعاءه قد تقطعت فطلبوا منه أن يستخلف فقال الكلمة التي سبق أن ذكرناها في خلافة أبي بكر : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، وجعل الأمر شورى في بقية العشرة التي توفي عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض ، وقال يحضركم عبد الله بن عمر كالمُعزّي له وليس له حق فيها ، ثم ذكر في الحديث الطويل اجتماع بقية العشرة وطلب عبد الرحمن بن عوف كل واحد من هؤلاء العشرة يتنازل عن حقه لصاحبه ليضيق دائرة النقاش والخلاف ، فجعل الزبير أمره إلى عليّ ، وطلحة أمره إلى عثمان ، وسعد جعل أمره إلى عبد الرحمن ، ثم قال عبد الرحمن لعلي وعثمان : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرنَّ أفضلهم في نفسه ، فأُسكِتَ الشيطان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلو على أفضلكم ، قال : نعم ، ثم ذكر أنه شاور الصحابة ، ومكث ثلاث ليال

وهو يستخير ويستشير في من يستحق الخلافة من هؤلاء، وفي اليوم الثالث : بايع عثمان رضي الله عنه ، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد ، فبيعته رضي الله عنه - عثمان - تعتبر بإجماع الصحابة ، بل يقول شيخ الإسلام : لم يجتمع لأحد الخلفاء الأربعة فضلا عن غيرهم اجتماع في اختيار الخليفة كما اجتمع الناس في خلافة عثمان .

وذلك أن أبا بكر حصل في أول الأمر مخالفة من الأنصار ، عمر ليس للناس في هذا اختيار لأنه استخلاف من أبي بكر ، علي رضي الله عنه خالفه أهل الشام ولم يبايعوه ، أما عثمان فبايعه الجميع دون استثناء ، ولهذا بيعته تعتبر بإجماع الأمة .

◀ من فضائل عثمان رضي الله عنه :

يقول : " ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة كونه ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه " أي : زوجته على ابنتيه ، بل لم يعلق كما جاء في بعض الأحاديث أحد بابيه على ابنتي نبي سوى عثمان رضي الله عنه ، فقد تزوج رقية وأم كلثوم ، لما توفيت إحداهما تزوج الأخرى .

يقول : " وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعا في بيته كاشفا عن فخذه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحالة فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحالة فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوى ثيابه فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال : (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) .

" وفي الصحيح : لما كان يوم بيعة الرضوان ، وأن عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده فقال : (هذه لعثمان)

... يعني بايع نيابة عن عثمان رضي الله عنه لأنه هو الذي بعثه إلى أهل مكة ، والأحاديث في فضله ومكانته ومنزلته كثيرة جدا سيذكر الشيخ طرفا منها فيما بعد ، الشاهد أن هذه الأحاديث كافية في بيان أنه المستحق للخلافة بعد أبي بكر وعمر وهذا مما استقر عليه مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يثلاثون بعثمان بعد أبي بكر وعمر .

◀ خلافة علي بن أبي طالب وفضائله :

ثم قال : " وقوله : " ثم لعلي بن أبي طالب " ﷺ

أي : ويثبت أهل السنة والجماعة الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنه ، لما قتل عثمان وبايع الناس عليا صار إماما حقا واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة النبوة ، كما دل على هذا حديث سفينة المقدم ذكره أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء " فهو الذي أتم خلافة النبوة إضافة إلى الستة أشهر التي تولوها ابنه الحسن بن علي رضي الله عنه ، سفينة راوي الحديث عد هذه السنوات .

يقول : " وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفا ، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة ، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر وخلافة الحسن ابنه ستة أشهر ، وأول ملوك المسلمين معاوية رضي الله عنه ؛ - لأنه هو الذي تولى الملك بعد الحسن ، بعدما تنازل له الحسن عن الخلافة ، فهو أول ملوك الإسلام - وهو خير ملوك المسلمين ، لكنه إنما صار إماما حقا لما فوض إليه الحسن بن علي رضي الله عنهما الخلافة فإن الحسن رضي الله عنه بايعه أهل العراق بعد موت أبيه ، ثم بعد ستة أشهر ، فوض الأمر إلى معاوية وظهر صدق قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن

ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) والقصة معروفة في موضعها "في كتب التاريخ وكتب السير،

***الشاهد:** أن الخليفة الرابع هو: علي بن أبي طالب وهو الذي جاء في ختام خلافة النبوة، بالطبع أكملها ابنه الحسن رضي الله عنه .

يقول: "فالحلافة ثبتت لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام" وهذا خلاف ما جنح إليه وذهب إليه النواصب من الخوارج: أنهم يكفرون عليا ولا يرون أنه الخليفة الرابع المستحق للخلافة، والمسلمون بايعوا علي ولم يقف ويتردد في المبايعة إلا أهل الشام مع عثمان رضي الله عنه للشبه التي هي معروفة ومعلومة في كونهم كانوا يطالبون بدم قتلة عثمان .

يقول : " والحق مع علي رضي الله عنه فإن عثمان رضي الله عنه لما قُتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمي الله عثمان أن يظن بالأكابر ظنون السوء، وبُلبغ عنهم أخبارا منها ما هو كذب، ومنها ما هو محرف، ومنها ما لم يُعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء قوم يحبون العلو في الأرض، وكان في عسكر علي رضي الله عنه، من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله "

***الشاهد:** الشيخ الآن تطرق إلى ما حصل معاوية وأهل الشام في كونهم تخلفوا عن بيعة علي بحجة المطالبة بدم عثمان يقول : ولا شك أن الحق - لما وقع القتال بين علي ومعاوية فالحق مع علي رضي الله عنه وأرضاه ، وهذا بإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم : يقتله أولى الطائفتين بالحق ، وذكر أن عمار تقتله الفئة الباغية، وذلك أنه معلوم أن نهاية عثمان واستشهاده رضي الله عنه كان بسبب الفتنة التي ماجت وراجت في المدينة، ونتج عن هذه الفتنة أنه كثر الكذب، وكثر الافتراء، وظنَّ بأكابر الصحابة ظن السوء، كما ظن بعلي وبطلحة وبمعاوية ، ونُقلت أخبار ليست بصحيحة بلغت أهل الشام، لأنه وقت فتن، وهكذا دائما أوقات الفتن تروج فيها الشائعات ويروج فيها الكذب ويروج فيها القيل والقال ، وينقل الكلام مريض القلب بالشهوة ، والجاهل ؛ ولهذا يحصل الاختلال .

لا شك كان في عسكر علي رضي الله عنه بعض هؤلاء الطغاة الذين تماثلوا على عثمان ، لكن هؤلاء أحد أصناف ثلاثة :

- ١- منهم من لا يُعرف بعينه ، ما يعرف أن فعلا فلان شارك .
- ٢- منهم من له شوكة ، له قبيلة ستحميه ، وربما تكون الفتنة أكثر وأكثر ، يقتل فيها مجموعة من المسلمين لو اقتصر منه في نفس الحال ؛ ولهذا علي رضي الله عنه قال : انتظروا تهدي الأمور ، ثم تأتي بقتلة عثمان ونقتلهم واحدا واحدا ، ونقتص منهم .

٣- لم يُتهم ، لكن لم تقم عليه الحجة البينة ، لا بد في الاقتياد منه؟ ، لا بد من قيام الحجة البينة الظاهرة ، إذا لم يعترف وليس عندنا حجة لا يجوز أن نقص منه .

يقول : " ومن لم تقم عليه حجة بما فعله ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم يُنتصر للشهيد المظلوم، ويُقمع أهل الفساد والعدوان، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه، فجرت فتنة الجمل" نعم قام طلحة رضي الله عنه والزبير رضي الله عنه ومن معهم جميعا، واجتهدوا ورأوا أنه لا بد أن تنتصر لهذا الإمام المظلوم

الذي تركناه حتى تمالأ عليه هؤلاء الطغاة الخوارج فقتلوه، قالوا: إن لم نتصر له الآن ونقتص من قاتليه، وإلا استوجبنا غضب الله، كيف لم ننصر هذا الخليفة الراشد؟.

فوقعت وقعة الجمل لأنهم خرجوا على علي رضي الله عنه، وهذا اجتهد منهم وأخطئوا في ذلك أيضاً، فرأي أهل السنة، وعقيدة أهل السنة أنهم أخطئوا في ذلك، لكنهم مجتهدون كما سيذكر المؤلف، المصيب منهم له أجران والمخطئ له أجر واحد.

يقول: "فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين" نعم وقعة الجمل لم تكن لا باختيار طلحة والزبير، وهم ما خرجوا يريدون قتالا، وإنما خرجوا يريدون الأخذ بدم عثمان فقط، وأيضاً لم يقع هذا القتال باختيار من علي، وإنما جرى القتال بسبب الفتنة التي سعى فيها المفسدون من هؤلاء الخوارج إذ كان هناك جزء منهم في معسكر أهل الجمل: الزبير وطلحة، وجزء في معسكر علي، ولهذا كما ذكر المؤرخون قالوا: إن اصطلحوا؛ لأن علي والزبير وطلحة أرادوا أن يجتمعوا ويصطلحوا وتنتهي المسألة، قبل بليّلة قال هؤلاء الخوارج الموجودون هنا، والموجودون هنا: إن اصطلحوا فهم على رؤوسنا، يعني نحن الضحية، فأثاروا الفتنة هؤلاء، وأثاروا الفتنة فوقعت فتنة الجمل على غير اختيار منهم رضي الله عنهم، ولهذا ثبت أن الزبير في وقعة الجمل قابل علياً وجهاً لوجه شاهراً سيفه فقال: له علي رضي الله عنه: أتذكر لما دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً، يعني الزبير وعلي وكان بينهم من الصحبة والعلاقة والمحبة الشيء الكثير، فقال لك: إنك تقاتله وأنت ظالم له، فتذكر الزبير رضي الله عنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم فأغمد سيفه ورجع وولى ظهره، هذا دليل على أنهم ما كانوا يريدون الفتنة، وما كانوا يريدون القتال، بل كانوا يبحثون عن الحق، ولما جاء قاتل الزبير يبشر علي قال: أبشر بالنار، فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (بشر قاتل ابن سمية بالنار)، فنحر نفسه ابن جُرمز). وعلى كل حال: هذه الأمور وقعت بغير اختيار من الصحابة رضي الله عنهم، ولا إرادة منهم، وما كانوا يريدون الدنيا ولا حطامها.

الحلقة (٣١)

◀ تتمة الكلام عن عهد علي رضي الله عنه :

يقول: "ثم جرت فتنة صفين لرأي وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم أو لا يتمكن من العدل عليهم وهم كأقون حتى يجتمع أمر الأمة، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم" بمعنى أن أهل الشام بقيادة معاوية رضي الله عنه كانوا يطالبون بدم قتلة عثمان وذكروا أنه

لا يمكن لهم الرضوخ مادام الأمر مضطرباً بهذا الشكل وكانوا يخشون على أنفسهم كما كانوا يظنون أن يطغى عليهم هؤلاء الخوارج الذين قتلوا علي رضي الله عنه لكن علي هو الخليفة الراشد وهو الذي ارتضاه المسلمون ولياً لأمرهم.

ولهذا قال المؤلف: "وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته"؛ فعلي رضي الله عنه رأى أن يترك الأمر إلى أن تهدأ الأحداث وتستقر الأمور وتعود الأمور إلى نصابها ويرجع هؤلاء الغاغة والغوغاء إلى بلادهم ثم بعد ذلك يمكن أن يمسك بهؤلاء القتلة واحداً واحداً، ويقيم عليهم حكم الله عز وجل فهذا هو رأيه وعلى ذلك تجب طاعته لأنه هو الخليفة الراشد.

يقول: "ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه"؛ بمعنى أن لا يشذ أحداً منهم برأي ولا أن يشذ بأمر من الأمور لئلا لا يحصل هناك اضطراب أو اختلاف.

"اعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم" أي بقتال أهل الشام هؤلاء الذين امتنعوا عن البيعة حتى تستقر الأمور فرأى رضي الله عنه أنه لا بد من إخضاع الجميع لطاعته وهذا هو الرأي الصواب .

يقول: "بطلب إمام - نعم يقول واعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم بإمام، أن لو أصر عليهم بمعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفلة قلوبهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخليفين من بعده مما يسوغ"، نعم يعني رضي الله عنه رأى أنه لا يمكن تألف قلوب هؤلاء يعني أهل الشام كما تألف النبي صلى الله عليه وسلم قلوب بعض من كان حديث عهد بإسلام كما في حنين فرأى أنه من الواجب إخضاعهم فان لم يخضعوا أخضعهم حتى ولو بالقتال . ثم قال : حتى لو رأى رأياً ورأى غيره أن الواجب في غيره يجب على هذا الغير أن يرضخ لرأي الأمير والخليفة لأن طاعته واجبه.

يقول : " فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال " بمعنى رأى علي رضي الله عنه أن الواجب عليه والذي يحمله مكانه كخليفة للمسلمين وولي أمر للمسلمين أن يقاتل هؤلاء الذين امتنعوا عن طاعته .

يقول: "وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوه من النصوص في الأمر بالعود في الفتنة"؛ أي اعتزل هذه الفتنة اعتزل القتال أكثر أكابر الصحابة رضي الله عنهم كسعد بن أبي وقاص وكعبد الله بن عمر وغيرهما اعتزلوا الفتنة اعتزلوا الفريقين لم يكونوا في فريق معاوية ولا في فريق علي رضي الله عنهم يقول : لما سمعوه من النصوص من أمر النبي صلى الله عليه وسلم أنها إذا وقعت الفتن أمر المسلم أن يتجنبها فرأوا أن يتجنبوا هذه الفتنة .

"ولما رأوه من الفتنة التي تربوا مفسدتها على مصلحتها" نعم لأنهم وازنوا بين الأمور ورأوا مفسدة المشاركة أكثر من مصلحة المشاركة فيها ولهذا اعتزلوا هذه الفتنة .

يقول: "والقول في الجميع بالحسنى"، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن القول في الفريقين والطائفتين بالحسنى وأن يقال {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فأهل السنة والجماعة يرون نعم أن علي هو المصيب وله إن شاء الله أجران ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر، ولكن الإمساك على الفريقين وأن يدعوا الإنسان بما أرشدنا الله عز وجل إليه بقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}

ولهذا قال المؤلف : "والفتن التي كانت في أيامه - أي في أيام علي رضي الله عنه - قد صان الله عنها أيدينا - بمعنى أننا سلمنا والله الحمد والمنة من المشاركة فيها يقول-فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا بمنه وكرمه " وهذه المقولة تنقل عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ذكر عنده شيء من هذه الفتن التي وقعت أيام الصحابة قال مقولته المشهورة تلك فتنة صان الله أو طهر الله أيدينا منها فلنظهر ألسنتنا منها ؛ بمعنى نترك الأمر إلى الله عز وجل فقد قدم الجميع إلى الله وهو أعلم لكن نحن نعتقد أن المصيب في هذا هو علي رضي الله عنه وأن معاوية أخطأ لكن لم يكن خطأ هذا عن شهوة ولا عن هوى في نفسه وإنما كان اجتهداً اجتهد رضي الله عنه فأخطأ .

◀ ما ورد في فضائل علي بن أبي طالب :

يقول : " من فضائل أمير المؤمنين - عاد المؤلف لما أشار إلى الفتن التي وقعت في عهد علي عاد ليذكر شيئاً من فضائله رضي الله عنه لبيان مكانته ومنزلته - يقول من فضائل أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه ما في الصحيحين أي ما ثبت

في صحيح البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) وقال يوم خيبر كما صح عنه صلى الله عليه وسلم: (لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) قال: فتناول لها فقال: ادعوا لي علياً فأتي به أرمد أي في عينه شيء من الوجع فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه)"

هذا الحديث في الصحيحين وقد ثبت عن عمر رضي الله عنه أنه قال ما تمنيت الإمارة أو ما استشرفت للإمارة إلا في هذا الموقف لهذا الثناء وهذه الخاصية التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، فتمنى عمر أن يكون مكان علي هنا يقول: "لما نزلت هذه الآية {...فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...} دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي) وهذه أيضاً من فضائله وفضائله كثيرة لا يمكن حصرها في هذا المقام، فالمؤلف رحمه الله ذكر جزءاً يسيراً للتنبيه على باقي فضائله رضي الله عن الجميع.

ثم قال: "قوله: وهم الخلفاء الراشدون الأئمة المهديون" أي: هؤلاء الأربعة الذين تقدم ذكرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي هؤلاء الخلفاء الراشدون الذين أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم باتباع سنتهم.

يقول: "تقدم الحديث الثابت في السنن وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منا القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال: (أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم من بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً)" ثم قال هذا هو الشاهد: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة) "فهم الخلفاء الراشدون المذكورون في هذا الحديث الذي أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بالتمسك بسنتهم وأن نعص عليها بنواجذنا أي أن نشد على تمسكنا بسنتهم رضي الله عنهم ووصفهم بأنهم مهديون، يقول: "وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل كترتيبهم في الخلافة"؛ بمعنى أن ترتيبهم بالفضل كترتيبهم بالخلافة هذا هو الذي استقر عليه رأي أهل السنة والجماعة فأبو بكر أفضلهم بإجماع أهل السنة، ثم عثمان على رأي جمهور أهل السنة دل هذا مما استقر عليه رأي الجمهور نعم هناك بعض الأقوال لبعض الأئمة من تقديم علي على عثمان في الفضل وليس بالخلافة لكن هذا القول رجع عنه أصحابه كما سيأتي في النقل عن أبي حنيفة رحمه الله فالذي استقر عليه رأي أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

يقول: "ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية" بمعنى أن أبا بكر وعمر تميزا عن بقية الأربعة عن الاثنين الآخرين عن عثمان وعلي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بإتباع سنة الخلفاء الراشدين بمعنى أنه أمرنا باتباع سنة هؤلاء الأربعة لكن لم يأمرنا بالاعتداء إلا بأبي بكر وعمر فهذه ميزة لهما ولهذا أشار المؤلف هنا أن الاقتداء في قول النبي صلى الله عليه وسلم اقتدوا بالذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر أن هناك فرق بين الاتباع بالسنة والاعتداء فالاعتداء بمعنى الاقتداء بهما في أفعالهما أما الأربعة فتتبع سنتهم رضي الله عن الجميع

يقول: "وفرق بين إتباع سنتهم والاعتداء بهم فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان وعلى هذا عامة أهل السنة" نعم يقول روي عن أبي حنيفة وغيره أنه قدم علي على عثمان في الفضل لأنه رأى أن الأدلة أو ترجح عنده من خلال مجموع الأدلة أن علي أفضل من عثمان لكن هذا الرأي لعله رجع عنه لأن الذي صرح به خاصة في الفقه الأكبر الذي نقل عنه وهو مشهور

عند أصحابه تقديم عثمان على علي ولهذا قال المؤلف وعلى هذا عامة أهل السنة بمعنى أن يقدم عثمان على علي رضي الله عن الجميع .

يقول: " وقد تقدم قول عبد الرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنهما إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان " لما طعن عمر كمل سبق الكلام في الحلقات السابقة ، أنه لما طعن عمر رضي الله عنه وجعل أمر الخلافة في الستة من العشرة الباقيين والقصة سبق الكلام عليها

***الشاهد :** أن الذي تولى الأمر عبد الرحمن بن عوف فقال أمام الملاء : " يا علي إني نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان أي يقدمون على عثمان أحدا "

ولهذا قال المؤلف : " وقال أيوب السختياني من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار " بمعنى يقول أيوب بناء على رأي عبد الرحمن بن عوف أن جمهور الصحابة كانوا يقدمون عثمان على علي فمن قدم علي على عثمان فقد أزرى ، أي : بمعنى تنقص المهاجرين والأنصار تنقصهم في رأيهم لأنهم هم الذين قدموا عثمان على علي رضي الله عنهما .

يقول : " وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي - بمعنى كان هذا مشهورا عند الصحابة يتداوله جمهور الصحابة يقول - كنا نقول أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان " ومع ذلك ما ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ولا أنكر بعض الصحابة على بعض في هذا الأمر فدل على أن هذا هو الذي استقر عند جمهور الصحابة تقديم عثمان على علي رضي الله عنهم .

يقول : " قوله وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله الحق وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين " بمعنى أيضا أننا نقدم هؤلاء العشرة فهؤلاء شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص بالجنة وجاء في آحادهم بعض الأحاديث التي تدل على فضلهم ومكانتهم ولهذا جمهور أهل السنة يرون أن أفضل الصحابة رضي الله عنهم بعد الأربعة بقية الستة ، الستة بقية العشرة .

◀ بعض ما ذكر في فضائل العشرة المبشرين بالجنة :

يقول : " تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة ومن فضائل الستة الباقيين من العشرة رضي الله عنهم أجمعين ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أرق رسول الله صلى الله عليه وسلم أي أصابه الأرق أي عدم النوم ذات ليلة فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة قالت: وسمعنا صوت سلاح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من هذا؟) فقال سعد ابن أبي وقاص يا رسول الله جئت أحرسك وفي لفظ آخر وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام)

***الشاهد :** في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني فوق سعد بأن جاء لحراسة النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك دعا له النبي صلى الله عليه وسلم .

وأيضا من فضائل سعد ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد فقال : (ارم فداك أبي وأمي) وفي صحيح مسلم عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة - هذا في فضل طلحة رضي الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة - التي وقع بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد قد شلت بمعنى لما رمى المشركون النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بسهامهم وقاه رضي الله عنه وأرضاه بيده فشلت جراء ذلك فهذه من فضائله أنه وقى

النبي صلى الله عليه وسلم وأصيب وابتلي بسبب ذلك .

ويقول : " وفيه أيضا عن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأيام أيام أحد التي قاتل بها النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد ابن أبي وقاص يقول: وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال : (ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير أي أمرهم بالخروج فخرج الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: (لكل بني حواري وحواري الزبير) فهذه من فضائل الزبير على وجه الخصوص

يقول: " وفيهما أيضا أي في الصحيحين عن الزبير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يأتي بني قريظة فيأتيهم بخبرهم؟) ، أي يهود بني قريظة وهذا يوم الخندق فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال: (فداك أبي وأمي) فهذا من فضائله رضي الله عنه .

يقول : " وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح - وهذا في فضل أبي عبيدة أحد هؤلاء العشرة وأيضاً ذكر حديث - لما جاءه أهل نجران وهذا ثابت في الصحيحين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: (يا رسول الله ابعث لنا رجلاً أميناً فقال : (لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين) قال : فاستشرف لها الناس -لأن النبي صلى الله عليه وسلم امتدح بهذا - قال : فبعث أبو عبيدة بن الجراح) ثم ذكر المؤلف الحديث الذي جمع به النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء العشرة وبشرهم بالجنة وهو حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: (أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أني سمعته يقول: (عشرة في الجنة النبي في الجنة وأبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد بن مالك في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ولو شئت لسميت العاشر قال: فقالوا من هو؟ قال: سعيد بن زيد)

قال لمشهد - هذا يقوله سعيد بن زيد رضي الله عنه في فضل هؤلاء الصحابة وخاصة هؤلاء العشرة - "لمشهد رجل منهم مع رسول الله يَغْبِرُّ منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عَمَّرَ عُمَرُ نوح" رواه أبو داود وغيره فهذه الأدلة صريحة صحيحة في فضل هؤلاء العشرة رضي الله عن الجميع

الحلقة (٣٢)

◀ تتمه فضائل العشرة المبشرين بالجنة :

قال : " وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم " بمعنى أن أهل السنة يقدمون هؤلاء العشرة على جمهور الصحابة رضي الله عنهم .

يقول: " ومن أجهل ممن يكره التكلم بلفظ العشرة أو فعل شيء يكون عشرة لكونهم يبغضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة " بمعنى الشيخ يشير إلى طائفة سيذكرها وهم الرافضة أنهم يبغضون لفظ العشرة أو التكلم بشيء فيه عشرة لكونهم يبغضون هؤلاء التسعة من العشرة.

يقول : " وهم يستنون منهم علي رضي الله عنه فمن العجب أنهم يغالون لفظ التسعة وهم يبغضون التسعة من العشرة - يعني هذا تناقض كونهم يحبون ويوالون لفظ التسعة وهم في واقع الأمر يبغضون التسعة من العشرة - يقول "ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار" أي يبغضون سائر الصحابة من المهاجرين والأنصار لكن هؤلاء التسعة من العشرة يخصونهم بشيء من العداوة والبغض .

يقول : " من السابقين الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة " أي يبغضون جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وقد رضي الله عنهم جملةً كما ذكر ذلك في كتابه وكما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة ومع ذلك فالرافضة تبغض هؤلاء

يقول: "وكانوا ألفاً وأربعمائة -أي الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة بيعة الرضوان - وقد رضي الله عنهم كما قال تعالى : {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...}

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة) يقول : "وفي صحيح مسلم أيضاً عن جابر: (أن غلام حاطب بن أبي بلتعة قال : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية)" بمعنى أن شهوده لبدر والحديبية كفيلا أن ينجو من النار بهذا العمل العظيم .

يقول : " والرافضة يتبرؤون من جمهور هؤلاء - أي من جمهور الصحابة رضي الله عنهم يتبرعون منهم - بل يبرئون من سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من نفر قليل نحو بضعة عشر رجلاً " بمعنى أنهم يتبرعون -أي الرافضة تتبرأ من جمهور الصحابة - ويستثنون عدداً قليلاً ومن يستثنون علي والحسن والحسين وعمار والمقداد وسلمان لكن جمهور الصحابة يتبرعون منهم .

يقول : " ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس " الشيخ الآن يريد أن يناقش هؤلاء من الجانب العقلي والجانب الشرعي في كونهم يبغضون لفظ العشرة بسبب هؤلاء العشرة المبشرين بالجنة يقول لو افترض أن في الأرض هناك عشرة أشخاص يعتبرون من أكفر الناس ،

"لم يجب هجر هذا الاسم بذلك" يعني: لا يجوز لا عقلاً ولا شرعاً أن نهجر لفظ العشرة بسبب هؤلاء العشرة. يقول : "كما أنه سبحانه لما قال : {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}" الله عز وجل ذكر أن هناك في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون يقول لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً، بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع من القرآن يقول بل العكس الله عز وجل أثنى على لفظ العشرة وجاء ذكر العشرة مراراً في كتاب الله وذكر على ذلك أمثلة {...تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ..} {وَوَاعِدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ...} {وَالْفَجْرِ {١} وَلَيَالٍ عَشْرٍ {٢}}

يقول : "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان وقال: (في ليلة القدر التمسوها في العشر الأواخر من رمضان) وقال : (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر يعني عشر ذي الحجة)" *الشاهد : أن هذا النصوص تدل على أن لفظ العشرة لا علاقة له لا بالذم ولا بالمدح كما صنع هؤلاء الجهال عندما أبغضوا هذا اللفظ لارتباطه بالعشرة المبشرين بالجنة وفي الواقع ليس كل هؤلاء العشرة يبغضونهم ، هم يبغضون تسعة لأن علي مع هؤلاء العشرة وهذا من جهلهم وتناقضهم.

يقول : " والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين بالجنة الإثني عشر إماماً " يقول الرافضة يستبدلون هؤلاء العشرة باثني عشر إماماً وهم ذكرهم المؤلف "علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويدعون أنه وصي النبي صلى الله عليه وسلم" بمعنى الذي أوصى له بالخلافة من بعده أنه وصي النبي صلى الله عليه وسلم ، "وهي دعوى مجرده عن الدليل" هذه دعوى منهم لا دليل عليها لا من القرآن ولا من السنة ولا حتى من فعل الصحابة رضي الله عنهم، يقول "ثم الحسن" أي بقية الاثني عشر "ثم الحسن

رضي الله عنه ثم الحسين رضي الله عنه ثم علي بن الحسين زين العابدين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضا ثم محمد بن علي الجواد ثم علي بن محمد الهادي ثم الحسن بن علي العسكري ثم محمد بن الحسن ويغالون في محبتهم" أي في محبة هؤلاء الاثني عشرة ولهذا سميت هذه الطائفة من فرق الشيعة بالاثني عشرية لأنهم يوالون هؤلاء الأئمة الاثني عشر.

يقول: "ويتغالون في محبتهم ويتجاوزون الحد -الشرعي في محبة هؤلاء - ولم يأت ذكر الأئمة الاثني عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله" نعم جاء ذكر الاثني عشر لكن ليس هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين يشير إليهم الرافضة عدا واحد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

يقول : " وهو ما أخرجه في الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: (دخلت مع أبي علي النبي صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقول: (لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا) ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عني فسألت أبي: ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلهم من قریش)، وفي لفظ: (لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة) وفي لفظ: (لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثني عشر خليفة) طيب من هم هؤلاء الاثني عشر،

يقول المؤلف: " وكان الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم - بمعنى عزيزاً نعم وكان الناس بخير وكان الأمر - والاثني عشر منهم الخلفاء الراشدون الأربعة ومعاوية الخامس وابنه يزيد السادس وعبد الملك مروان وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز" فهؤلاء اثني عشر خليفة لازال أمر الإسلام عزيزا قويا قاهراً ظاهراً في ولاية هؤلاء فهؤلاء هم الذين أثنى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أما الأئمة الذين يذكروهم الرافضة فهؤلاء لم يتوّل أصلاً أحدا منهم الخلافة عدا علي رضي الله عنه وحتى الرافضة يرون أن الإسلام في وقت هؤلاء كان مقهوراً وذليلاً وهذا من تناقضهم يقول "عند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل أيام هؤلاء فاسداً منغصاً يتولى عليهم الظالمون" أي في عصر هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين يتولونهم الرافضة وهذا من تناقضهم هم يرون أن الأمة في هذا الوقت الذي فيه هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين هم علي والحسن والحسين إلى آخره، أنه لا يزال "فاسداً منغصاً يتولى عليهم الظالمون المعتدون بل المنافقون الكافرون وأهل الحق أذل من اليهود" هذه عقيدة الرافضة في هذا الوقت وفي هذا الزمن "وقولهم ظاهر البطلان بل لم يزل الإسلام عزيزاً في ازدياد في أيام هؤلاء الاثني عشر" الخليفة الذين تولوا الخلافة فعلاً .

يقول: " قوله : ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياتهم المقدسين من كل رجز فقد برأ من النفاق " هذا قول الإمام الطحاوي بمعنى أن من أحسن القول في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفي أهل بيته وفي أزواجه فقد برأ من النفاق فهذه علامة من علامات سلامة هذا الرجل من النفاق .

يقول الشارح: "تقدم بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم - على وجه العموم وعلى وجه الخصوص في بعضهم - في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بماء يدعى قمّا بين مكة والمدينة - مكان موقع يقال له خم بين مكة والمدينة بعد منصرفه من حجة الوداع - فقال يعني خطب الناس في هذا الموقع - فقال: (أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي - أي يأتي الموت - فأجيب ربي وأني تارك فيكم ثقلين: أولاهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب به ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً) ولهذا عرف أهل السنة والجماعة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم قدرهم ومكانتهم وحضهم فتولاهم وترضوا عنهم وعرفوا لهم منزلتهم رضي الله عنهم. يقول: "وأخرج البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه

قال: (ارقبوا محمدا في أهل بيته) "

يقول الشارح : "وإنما قال الشيخ رحمه الله : "فقد برئ من النفاق" لأن أصل الرفض إنما أحدثه منافق زنديق " أي أصل مذهب الرافضة أصله الذي ابتدعه رجل زنديق منافق، "قصده إبطال دين الإسلام والقدرح في الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك العلماء - وهو عبد الله بن سبأ هذه الشخصية التي ظهرت زمن عثمان رضي الله عنه يقول - فإن عبد الله بن سبأ لما أظهر الإسلام- أي أظهر أنه مسلم- أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه كما فعل بولس بدين النصارى" بولس كان يهوديا وكان يسوم النصارى سوء العذاب فأظهر التنصر والتمسك بالنصرانية بقصد إفساد دين النصارى وفعلا حصل ما أراد لأنه هو الذي دعا إلى عقيدة التثليث في دين النصارى. يقول كذلك صنع عبد الله بن سبأ لما أظهر الإسلام أراد إفساد الإسلام كما أفسد بولس دين النصارى.

يقول: " فأظهر التنسك ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " هذا يعني عبد الله بن سبأ أظهر العبادة وأظهر الزهد والورع ثم زعم أنه لا بد من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترتب على ذلك أنه سعى في فتنة عثمان رضي الله عنه فهو الذي ألّب على عثمان وبدا يتنقل بين أقطار المسلمين ويثير الناس ويثير العامة و الغاغة على عثمان رضي الله عنه ويفتري الافتراءات على عثمان فانتهى الأمر بمقتل عثمان .

يقول: " ثم لما قدم علي الكوفة أظهر الغلو في علي والنصر عليه ليتمكن بذلك من اعتراضه وبلغ ذلك علي - غلا في علي حتى زعم أنه الله عز وجل أو أن فيه جزء من الإله يقول فبلغ ذلك علي - فطلب قتله - أي سعى في قتله والإمساك به ليقتله لأنه أمسك بأصحابه وحرقهم بالنار قتلهم يقول- فهرب منه إلى قرقيس وخبره معروف في التاريخ وتقدم أنه من فضله على أبي بكر وعمر، جلده جلد المفترى " يعني علي رضي الله عنه ثبت عنه أنه قال :من قدمني على أبي بكر وعمر جلده جلد المفترى يعني : أنه افتري في هذا الأمر كيف تقدمني علي أبي بكر وعمر وهم أفضل الأمة يقول "وبقيت في نفوس المبطين خمائر بدعت الخوارج من الحرورية والشيعة ولهذا كان الرفض باب الزندقة" يعني الرفض هو بداية الزندقة والذي ابتدعه عبد الله بن سبأ ، "كما حكاه القاضي أبو بكر ابن الطيب عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام" هؤلاء الباطنية الذين يرون أن النصوص لها ظاهر يخالف حقيقة النص الذي هو الباطن وهؤلاء لاشك أنهم زنادقة كما حكم عليهم علماء الإسلام. قال هؤلاء : كيف سعوا في إفساد الإسلام ذكر أبو بكر ابن الطيب أن هؤلاء في إفسادهم لدين الإسلام كانوا يسلكون هذا المسلك يقول قال "فقالوا للداعي أي الداعي لمذهبهم يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلما أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك" بمعنى تجعل الطريق الذي تستجلب وتستدر به عاطفة هؤلاء المدعوين التشيع " واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلي" اجعل الطريق والوسيلة التي تصل بها إلى قلب هذا الرجل كيف ظلم الصحابة وكيف ظلم الناس علي رضي الله عنه فهو الأحق بالخلافة إلى آخره ، نعم "من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين رضي الله عنه" الحسين قتل في زمن يزيد بن معاوية أيضا لكي يستجر عواطف الناس يذكر فتنة الحسين وما حصل له ونهايته المأسوية التي حصلت لاشك أن هذه الأحداث قد تؤثر على عامة الناس خاصة إذا كان الجهل عاما.

يقول: " و التبري من تيم وعدي " أي التبري من قبيلة أبي بكر وعمر المقصود التبرؤ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأن الرافضة يعتقدون أن أبا بكر وعمر هما اللذان ظلما علي حقه فأخذوا الخلافة علما أن الوصي هو علي يقولون ذلك زورا وبهتانا "وبني أميه وبني العباس" بمعنى أظهر ظلم هؤلاء ظلم أبي بكر وعمر وظلم بني أميه وظلم بني العباس بأنهم اغتصبوا حق أهل البيت "وأن علياً يعلم الغيب" أي وأشعر هذا المدعو بأن علياً يعلم الغيب وهذه شيء من خصائص

الرُبوبية يفوض إليه خلق العالم بمعنى أن علي هو الذي يخلق العالم وهو الذي يعدم هذا العالم وأمر العالم بيده وهذه لا تصلح إلا لله عز وجل حتى لا تصلح للأنبياء .

يقول: " وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم إلى أن قال : فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدا - أي أنست منهم تقبلاً وامتنالاً لما تدعوهم إليه يقول - أوقفته على مثالب علي وولده رضي الله عنهم " لأنهم يقصدون إفساد الإسلام والطعن في الإسلام انتهى .

يقول : " ولا شك أنه يتطرق من سب الصحابة إلى سب أهل البيت ثم إلى سب الرسول صلى الله عليه وسلم " يقول من سب الصحابة فلا بد أن يسب أهل البيت لأن أهل البيت هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة أزواجه ومن سب أهل البيت وسب الصحابة رضي الله عنهم لزم أن يسب النبي صلى الله عليه وسلم . يقول : " إذ أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الصانعين " .

ثم قال: " قوله -أي قول الطحاوي - وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل " يعني أن أهل السنة والجماعة يتولون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جملةً وتفصيلاً وأيضاً يتولون السلف علماء السلف رحمهم الله عز وجل من بعد الصحابة وهم أصحاب القرون المفضلة ومن جاء بعدهم ممن اقتفى أثرهم وسلك مسلكهم إلى قيام الساعة والدليل على ذلك ذكره الشارح في قوله سبحانه: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} *الشاهد : من الآية : {... وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ...}

يقول : " فيجب على كل مسلم من بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء أي العلماء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم - فالعلماء في الأمة كالنجوم في السماء - يهدي بهم في ظلمات البر والبحر وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم " أي أئمة السلف رحمهم الله الذين نقلوا لنا هذا الدين عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . " إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها إلا المسلمين " فالأمم السابقة اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون شرار هذه الأمة علماؤها والذين أفسدوا دين هذه الأمم هم علماؤها بخلاف هذه الأمة " فإن خيارها هم علماؤها " ولهذا حفظ الله عز وجل هذا الدين بوجود هؤلاء الثلة المباركة وقد جاء الثناء عليهم في آيات أحاديث لا حصر لها في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

الحلقة (٣٣)

◀ وجوب موالاة المؤمنين وخاصة أهل العلم :

تقدم الكلام في الحلقة السابقة أن الله عز وجل أثني على علماء هذه الأمة ورفع من مكانتهم ومنزلتهم وأن عقيدة أهل السنة والجماعة أن يتولوا عموم المؤمنين وعلى وجه الخصوص هؤلاء الأئمة والعلماء وذكر المؤلف أن علماء الأمم السابقة كانوا شرارها أما هذه الأمة فلله الحمد والمنة فإن علمائهم هم خيارها يقول : " فإنهم خلفاء الرسل من أمته " بمعنى أن هؤلاء العلماء هم ورثة الأنبياء كما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (العلماء ورثة الأنبياء).

يقول: " والمحيون لما مات من سنته " ولا شك أن بهم تحي السنة وبهم يحفظ الله عز وجل لهذه الأمة دينها وشريعته لأنهم هم نقلة الشريعة وهم الذين أوضحوا للناس مفهوم نصوص الوحيين .

يقول : " بهم قام الكتاب وبه قاموا " نعم . بهم قام الكتاب كتاب الله عز وجل والوحي وبه قاموا ، قاموا به على أتم وجه ، "وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا" لاشك أن القرآن نطق بفضلهم ومكانتهم ومنزلتهم وأمر الناس أن يعرفوا لهم حقهم، وهم أيضا قاموا بكتاب الله عز وجل في الناس يدعون الناس إلى ما فيه من الشرع والعلم والحكمة ويبينون للناس معاني هذا الكتاب ، " وكلهم متفقون اتفاق يقينيا على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم " أي هؤلاء العلماء جميعاً بالإجماع لن يشذ منهم أحد أنهم دعوا الناس إلى وجوب إتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الدقيقة والجليلة بل قال كبارهم وأئمتهم والمقتدى بهم قالوا للناس صراحةً منطوقاً أو مفهوماً إذا خالف قولنا قول النبي صلى الله عليه وسلم فخذوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم ودعوا أقوالنا .

يقول : "ولكن إذا وجد لواحدٍ منهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافه فلا بد له في تركه من عذر" بمعنى إذا وجدنا في أقوال أحدٍ منهم رأياً خالف فيه حديثاً صحيحاً، فالواجب علينا أن نأخذ بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن ندع قول هذا العالم. نعم أهل السنة لا يدعون العصمة في أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا في الصحابة ولا في العلماء والأئمة من بعدهم كما يصنع أهل البدع وأهل الضلال فأهل السنة يعتقدون أن كلاً يخطئ ويصيب فإذا وجد قولٌ لأحد هؤلاء الأئمة صح الحديث أو صح حديثٌ بخلافه فالواجب علينا نحن قبول الحديث والأخذ بما صح به النص، وموقفنا من قول هذا العالم لا نأخذ قوله لكن لا نثرب عليه ولا نتنقص من قدره بل نعتقد أنه لن يبلغه هذا الحديث ويصح عنده وتركه ولهذا إذا ثبت أن أحداً خالف قوله قول النبي صلى الله عليه وسلم فإننا نعتقد له أحد هذه الأعذار الثلاثة التي ذكرها المؤلف : يقول : "وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

◊ أحدها: "عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله "يعني إذا قال قولاً يخالف قول النبي صلى الله عليه وسلم فنحن نعتقد أن هذا الإمام لم يبلغه حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقول النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة.

◊ الثاني: "عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول" نعم ربما بلغه هذا الحديث لكن نعتقد أن هذا الإمام ما كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بقوله هذا القول الذي قال بخلافه والنبي صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم والناس ليسوا على درجة واحدة في فهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم فقد يخفى معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم على بعض آحاد الأمة ولا يضره هذا .

◊ الثالث: "اعتقاد هذا الإمام أن ذلك الحكم منسوخ" نعم قد يثبت عنده هذا الحديث وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا القول وانه أراد بهذا القول هذه المسألة التي بخلاف المسألة التي قال بها الإمام لكن هذا الإمام يعتقد أن هذا الحكم منسوخ نسخ بنص آخر، ولهذا قال بخلافه هذا هو منهج أهل السنة في التعامل مع الأقوال التي لهؤلاء الأئمة المخالفة لقول النبي صلى الله عليه وسلم مع اعتقادنا أنهم ليسوا بمعصومين وأنهم يخطئون ويصيبون يقول : " فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق وتبليغ ما أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم ". أي لهم الفضل أنهم السابقة الذين سبقونا بالإيمان ومنهم وهم الصحابة من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم الوحي مباشرة وفهموا قوله ومراده وكذلك الأئمة الذين جاءوا بعد الصحابة رضي الله عنهم فلهم قصب السبق في كونهم هم السابقون الأولون .

يقول : " وإيضاح ما كان منه يخفى علينا " نعم لهم قصب السبق ولهم السابقة في إيضاح الوحي الذي جاء به النبي صلى الله

عليه وسلم فهم أفهم الناس لكلام النبي صلى الله عليه وسلم وأقدر الناس وأدرى الناس بمعنى كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عنهم وأرضاهم ذكر المؤلف هذه الآية وهذا هو منهج السلف أن المؤمن دائماً يردد: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} فالله أثنى على هؤلاء الذين جاءوا من بعد هؤلاء من بعد الصحابة رضي الله عنهم أنهم دائماً يرددون هذا الدعاء .

« لا يفضل أحد من الأولياء على أحد من الأنبياء :

ثم قال: " قوله أي الطحاوي ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحدا من الأنبياء عليهم السلام ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء " ربما يتبادر إلى ذهن السامع أن أهل السنة لما ذكروا هذه الفضائل وهذه الأدلة وهذه النصوص في فضل هؤلاء السابقين من العلماء أو الصحابة رضي الله عن الجميع قد يتبادر إلى ذهنه أن أهل السنة يعتقدون أن الأولياء أفضل من الأنبياء كما حصل من بعض أهل الضلال من غلاة المتصوفة من أهل حلول والاتحاد كما سيذكره المؤلف لأن هؤلاء جعلوا الأولياء في منزلة فوق الأنبياء والرسول ، و أهل السنة لا يفضلون هؤلاء الأولياء والعلماء ، نعم ويعرفون لهم قدرهم ومكانتهم ومنزلتهم لكن مع ذلك لا يرفعونهم فوق درجتهم التي أنزلهم الله عز وجل إياها فهم دون الأنبياء والرسول بل إن الواحد من الأنبياء أفضل من جميع الأولياء .

يقول الشارح : " يشير الشيخ رحمه الله تعالى إلى الرد على الاتحادية " هؤلاء الاتحادية فرقة من فرق غلاة المتصوفة الذين يزعمون أن الله عز وجل متحد بالخلق ولهذا لا يفرقون بين الخالق والمخلوق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

يقول : " الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسول : قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ...} ، إلى أن قال {... وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا} الآية الثانية {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا}

هذا هو منهج أهل السنة أنهم يقدمون قول النبي صلى الله عليه وسلم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم وحكم النبي صلى الله عليه وسلم على حكم أي احد كائنا من كان.

يقول: " و قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

قال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة) ، وقال بعضهم : (ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه) ، والأمر كما قال فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعمل بإرادة نفسه فيكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله وهذا غش النفس وهو من الكبر فإنه شعبة من قول الذين قالوا : {لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ} اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " .

*الشاهد : من هذه النصوص وهذا الكلام أن المؤلف يشير أن الواجب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم وعدم الخروج عن حكمه خلافاً لقول هؤلاء الاتحادية وولادة المتصوفة الذين زعموا أنهم يسعهم الخروج عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وأن الولاية في درجة أعلى من درجة الأنبياء.

يقول: " وكثير من هؤلاء - أي المتصوفة وأهل الاتحاد - يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة - معنى الرياضة التي يزاوها والعبادة والتقشف والزهد والانتفاء عن الناس والرهبة التي ابتدعوها وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير إتباع لطريقتهم بمعنى انه يستطيع أن يصل بهذه الطرق المبتدعة من رياضة النفس وغيرها - إلى درجة الأنبياء

والرسل" بمعنى انه يوحى إليه يقول منهم من يظن انه قد صار أفضل من الأنبياء وهذا كما صرح به ابن عربي المكي الطائي يعني لن يصل إلى درجة الأنبياء فحسب بل وصل إلى درجة أعلى من الأنبياء .

يقول : "ومنهم من يقول أن الأنبياء والرسل إنما تأخذ العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء" بمعنى بعضهم يزعم من الغلو الذي وصل إليه أن الأنبياء والرسل يأخذون العلم عن طريق الولي، ولهذا جعلوا الولاية درجة أعلى من درجة النبوة "ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء" كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فابن عربي ادعى لنفسه أنه خاتم الأولياء .

يقول : " ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون - لما أنكر الربوبية وادعاه لنفسه - وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه - بمعنى هذا الخلق المشاهد السماوات والأرض والمخلوقات واجب بنفسه انه موجود بنفسه لان الله اتحد به - ليس له صانع مباين له - ليس له رب منفصل عنه كما هي عقيدة عموم المسلمين - لكن هذا يقول: هو الله ، وفرعون اظهر الإنكار بالكلية لكن كان فرعون بالباطن اعرف بالله منهم - لأنه كان معترف ومقر بوجود الله عز وجل أما هؤلاء في بواطنهم وظواهرهم أن الوجود والله شيء واحد - فإنه كان مثبتا للصانع وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق" يعني أن الخالق اتحد بالمخلوق فأصبحا شيئا واحدا .

يقول : " كابن عربي وأمثاله - أي ممن يقول هذا القول ابن عربي صاحب الفصوص وصاحب الفتوحات المكية الذي يغلو فيه بعض غلاة الصوفية - وهو لما رأى أن الشرع ظاهر لا سبيل إلى تغييره - يعني انه لا يستطيع تغيير هذا الشرع الظاهر ولو اظهر ذلك لعامة المسلمون معاملة المرتد - قال : النبوة ختمت - يعني لا يمكن أن يدعي النبوة والرسالة لان هذا أمر معلوم للضرورة عند عموم المسلمين حتى العامة منهم فلن يتجرا أن يقول انه نبي أو رسول - لكن الولاية لم تختتم - زعم أن النبوة صحيح ختمت لكن الولاية لم تختتم - وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة - بمعنى زعم نفسه انه خاتم الأولياء وزعم أن الولاية أو الدرجة التي وصل إليها أعظم من درجة النبوة يقول ما هو أعظم من النبوة - وما يكون للأنبياء والمرسلين وأن الأنبياء مستفيدون منها - كما قال أي مستفيدون من طريق الولاية يقول نقل عن ابن عربي هذا البيت الذي يحدد فيه الدرجات قال:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

فابن عربي يرى أن أعلى الدرجات: الولاية ثم النبوة ثم الرسالة يقول وهذا قلب للشيعة فان الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين هذا يعني انعكاس تاما في المفاهيم ومناقض تماما لما ثبت في شرع الله عز وجل

إذاً الأولياء هم المتقون المتبعون للنبي والرسول ليس المستغنون عن النبي والرسول هؤلاء ليسوا أولياء بل هؤلاء غلان ملاحظة من استغنى عن النبي أو من النبي أو عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم فهو ملحد ليس بالمؤمن وابن عربي يعتقد أنه مؤمن بل هذا أكمل درجات الولاية .

يقول: " كما قال تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} ، والنبوة أخص من الولاية والرسالة أخص من النبوة -يعني المؤلف يقول أعلى الدرجات الرسالة ثم النبوة ثم الولاية على عكس ما ذكر ابن عربي - كما تقدم التنبيه على ذلك ، وقال ابن عربي أيضا في "فصوصه" - كتابه فصوص الحكم - ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن فراها قد كملت إلا موضع لبنة فكان هو موضع اللبنة " النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في الحديث الصحيح أن مثله ومثل الأنبياء قبله كمثل قصر أتم بنائه إلا موضع لبنة فكان هو اللبنة عليه الصلاة والسلام ابن عربي لما رأى أن هذا البناء كمل بوضع هذه اللبنة ، يقول: " وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية أيضا خاتم الأولياء"

لا بد أن يرى هذا القصر وان البناء اكتمل إلا موضع لبنتين كما يزعم ابن عربي يقول: "فيرى ما مثله النبي صلى الله عليه وسلم ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين ويرى نفسه تنطبع في موضع تلك اللبنتين فيكمل الحائط والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين أن الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب" فالفضة هو ظاهر الشريعة ولبنة الذهب هي باطن الشريعة كما يزعم لأنه يرى أن الشرع له ظاهر وباطن .

" واللبنة الفضة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام " أي كونه يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر هذه لبنة الفضة عنده أما الباطن لا فهو استقلاله عن النبي صلى الله عليه وسلم وتبعية النبي صلى الله عليه وسلم له وهي لبنة الذهب يقول "نعم كما هو آخذ عن الله في السرّ ما هو في الصورة الظاهرة المتبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول" يعني هو يزعم أن الرسول يأخذ الوحي عن طريق الملك عن طريق جبريل عن الله عز وجل لا هو رأى نفسه في درجة أعلى من هذا بمعنى أنه يأخذ عن الله مباشرة ولهذا قال فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ولهذا زعم أن درجته أعلى من درجة النبوة لأنه يسمع من الله ويأخذ من الله مباشرة .

قال: " فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع " بمعنى فهمت وأدركت حقيقة هؤلاء الضلال من الاتحادية يقول : " فمن اكفر من ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب وللرسول المثل بلبنة فضة فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسول صلى الله عليه وسلم - يقول أي كفر أعظم من كفر من يعتقد انه أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم - {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَيْثُورٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ} وكيف يخفى كفر من هذا كلامه وله من الكلام أمثال هذا وفيه ما يخفى من الكفر ومنه ما يظهر - ولهذا يقول كلامه الذي في كتابه الفصوص والفتوحات المكية يريد بالكفر لكن منه ما يظهر ومنه ما يخفى - فهذا يحتاج إلى ناقد جيد " يحتاج النظر في كلام هذا إلى عالم يفهم مراد كلامه وإشاراته ليبين حقيقة مذهب هؤلاء ليظهر " أو ليظهر زيفه فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد ومنه مالا يظهر إلا للناقد الحاذق الأصيل وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين {... لَنْ تُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ...}

لماذا كفر هؤلاء وأضلوا؟ لأن هؤلاء راموا المنزلة المساوية لمنزلة الرسل أما ابن عربي فلا ، فإنه ذهب إلى أبعد من هذا إلى منزلة أعلى من منزلة الأنبياء والرسل .

يقول: " ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة اتحادية في الدرك الأسفل من النار والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام " يعني تعامل مع ابن عربي وأمثاله أن يعامل كمعاملة المنافقين الذين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يظهرهم الإسلام ولهذا جرت عليهم أحكام الإسلام ويعاملون معاملة المسلمين لكن لو ظهر من أحدهم شيء من هذا الكلام الذي يبطنه الكفر والردة عامله المسلمون معاملة المرتد .

يقول : " كما كان يظهره المنافقون في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ويبطنون الكفر وهو يعاملهم معاملة المسلمين مما يظهر منهم فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر لأجري عليه حكم المرتد ولكن في قبول ثبوته خلاف والصحيح عدم قبولها وهي رواية معلى عن ابن حنيفة رضي الله عنه".

يعني يقول لو أظهر أحدا منهم شيئا من هذا الكفر الذي يبطنه لعامله المسلمون معاملة المرتد.

هل يستتاب أو لا يستتاب ؟

محل خلاف : في مذهب الإمام أبي حنيفة أو رواية مذهب الإمام أبي حنيفة أنه لا يستتاب.

❖ الشاهد : من هذا الكلام أنهم يعاملون معاملة المنافقين .

بعد هذا انتقل المؤلف إلى قول الطحاوي رحمه الله قوله ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم الكلام على كرامة هؤلاء الأولياء

هل يثبتها أهل السنة أو لا يثبتونها ؟

المسألة مسالة خلافة

يقول الشارح: " المعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة" يعني الشيء المعجز في لغة العرب كل أمر خارق لما اعتاده الناس مثل اعتاد الناس أن بني ادم يمشون على الأرض فلو طار احد منهم بين السماء والأرض يعتبر هذا أمر خارق للعادة ،النار بطبعها محرقة فلو ألقى فيها إنسان ولم تحرقه هذا أمر خارق للعادة ...فكل أمر جاء على خلاف ما اعتاده الناس اطرادا يعتبر معجزة ، يقول: " وفي عرف أئمة أهل العلم المتقدمين كالإمام احمد بن حنبل وغيره يسمونها الآيات هذه المتعلقة بالأمور الخارقة للعادة التي تجري على أيدي الأنبياء الصحيح أنها تسمى آيات يقول ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما بين الآية والمعجزة فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي وجماعهما الأمر الخارق للعادة " نعم صحيح أن الكرامة هي التي تجري على يد الولي من أولياء الله عز وجل أما المعجزة أو الآية فهي التي تجري على يد النبي وكلاهما يصدق عليه أنه أمر خارق للعادة .

الحلقة (٣٤)

ثبوت كرامة الأولياء :

يقول المؤلف " ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم " أي نؤمن بما جاء من كرامات هؤلاء الأولياء العلماء وبما صح عن الثقات بما يروى عنهم وذكر المؤلف أو الشارح أن العلماء يطلقون المعجزة على آيات الأنبياء والكرامة على ما يجريه الله عز وجل على يد الأولياء وكلاهما يجمعهما الأمر الخارق للعادة بمعنى أن الشيء الذي يجري على يديهما أمر خارق للعادة على خلاف ما اعتاده الناس .

قال الشارح " فصفت الكمال ترجع إلى ثلاثة ؛ كمال العلم وكمال القدرة وكمال الغنى وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله عز وجل " ولهذا كل ما كان الإنسان أكمل في هذه الجوانب كلما كان أعلى وأرفع درجة، لكن هذه الصفات على وجه الكمال والتمام لا تصلح إلا لله عز وجل .

ويقول " فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً وهو على كل شيء قدير وهو غني عن العالمين ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة الأمور مجتمعة " { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } - هذا كمال الغنى - { وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ } - هذا كمال العلم - { وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ } { إِنَّا أَتَيْنَا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْنَا } - هذا كمال القدرة - وهكذا قال نوح عليه السلام فهذا أول أولي العزم وأول رسول بعثه الله لأهل الأرض وهذا خاتم الرسل يعني الرسول صلى الله عليه وسلم وخاتم أولي العزم وكلاهما تبرأ من ذلك - تبرأ من هذه الصفات الثلاث التي على وجه الكمال - وهذا لأنهم يطالبونهم - أي أعدائهم من المشركين طالبوهم بلوازم هذه الثلاثة الأمور - تارة بعلم الغيب - يطالبونهم بعلم الغيب - كقوله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} -يسألونك عن متى الساعة؟ وهذا غيب لله عز وجل فلا يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يخبر بذلك - وتارة بالتأثير كقوله تعالى {وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} - وهذا فيما

يتعلق في كمال القدرة وهذا أمره لله عز وجل النبي لا يستطيع إلا بما أقدره الله عليه - وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية كقوله تعالى {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ} - وهذا خلاف الغنى الذاتي الموصوف به الله عز وجل الذي يستغني عن ما يحتاجه الناس إليه وهذا اتهم به أتباع الأنبياء بهذه التهمة - فأمر الرسول أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك وإنما ينال من تلك الثلاث بقدر ما يعطيه الله فيعلم مما علمه الله إياه ويقدر على ما أقدره الله عليه ويستغني عن ما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع " إما القدرة على شيء لا يقدر عليه الناس، وإما أن يستغني عن شيء لا يستطيع عامة الناس أن يستغنوا عنه، وإما أن يعلم شيء لا يستطيع عامة الناس أن يعلموه، وهذه اكتسبوها من من ؟ من الله عز وجل ليس من أنفسهم ، يقول " ثم الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين " رجع إلى مسألة كرامة الأولياء أو الخارق للعادة الذي يجريه الله عز وجل على يد بعض العباد.

هل هو أمر محمود أم أمر مذموم أم الأمران متساويان ؟

فصل المؤلف فيقول " ثم الخارق " أي الشيء الذي خُرق على يد هذا الرجل هذا المخلوق خرق الله على يده أجرى الله على يده خلاف ما هو معهود من البشر هل هذا أمر محمود أو ليس بمحمود .

يقول: " ثم الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمورة بها ديناً وشرعاً إما واجب أو مستحب - يعني إذا حصل بها أمر محمود شرعاً سوء في الجوانب الواجبة أو في الجوانب المستحبة كان محموداً - وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً - يعني إن كان اقتضى أمر مباح أصبح من المباحات كسائر المباحات التي تستلزم من الإنسان أن يشكر الله عز وجل على هذا الأمر - وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبب في العذاب أو البغض " يعني إذا الله عز وجل جعل على يد هذا الإنسان خارق للعادة فاستخدمه وكان سبباً لمخالفة أمر عز وجل أو معاندة الله عز وجل أو معصية الله عز وجل فإن هذا الخارق يكون سبب لبغض هذا الشخص وسبب لعذاب هذا الشخص ،

ضرب الشارح مثلاً : " كحال الذي أوتي الآيات فانسلخ منها : بلعام بن باعورا لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو لغلبة حال أو عجز أو ضرورة " يعني هذه الأسباب هي التي تجعل الإنسان يستخدم هذا الخارق في معصية الله عز وجل فإذا استخدمها في معصية الله عز وجل صار هذا الأمر الخارق وبال عليه معذب بسببه لأنه هو الذي حمله على معصية الله عز وجل بخلاف لو خرق الله العادة لإنسان فاستخدمه في أمر مباح فيعتبر هذا من نعم الله التي يشكر الله عز وجل عليها

◈ مثال على ذلك: لو إنسان انقطعت به السبل في الصحراء في وقت لا يعهد فيه نزول المطر ولا يعهد فيه حصول الماء فنبع له ماء أو حصل نبع ماء على غير المعهود في هذه الصحراء مترامية الأطراف تعتبر كرامة من الأمور المباحة إذا استخدمها الإنسان فسيشرب منها وسيسقي دابته منها فهو أمر مباح يشكر الله عز وجل على هذا الأمر كما يشكره على سائر المباحات.

يقول " فالخارق ثلاثة أنواع - الشيء الذي يأتي على غير العادة يخرقه الله عز وجل على خلاف عادة البشر ثلاثة أنواع:

١- "محمود في الدين" - وهو الشيء الذي يحمل صاحبه على طاعة الله عز وجل .

٢- "ومذموم" - وهو الذي يحمل صاحبه على معصية الله عز وجل .

٣- "ومباح" - الذي لا هذا ولا ذاك .

" فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها" قال أبو علي الجوزجاني " : كن طالباً

للاستقامة لا طالباً للكرامة " بمعنى أن المؤمن يحرص على الوصول إلى درجة الاستقامة بغض النظر عن الكرامة لكن نلاحظ أهل البدع كما هو حاصل عند بعض الصوفية الواحد منهم يجتهد ويبحث عن الكرامة وإذا لم تحرق له العادة اتهم دينه واتهم استقامته وهذا ليس بصحيح فجل العلماء وجل السلف وجل الصحابة لم تحرق لهم العادة لم تجري على يدهم كرامات فهل هذا يدل على نقص إيمانهم أو نقص تقواهم أو نقص عبادتهم لا ليس بصحيح بل أحياناً كما سيذكر المؤلف يكون خرق العادة ابتلاء وامتحان لهذا الإنسان فيكون ضلاله بسبب خرق هذه العادة ولهذا المطلوب من المؤمن أن يكون طالب للاستقامة لدين الله عز وجل لعبادة الله عز وجل بغض النظر هل جرت له كرامة أو لم تجر له كرامة هل حصلت له أو لم تتحصل له كرامة

يقول : " وربك يطلب منك الاستقامة قال السهروردي - وهو من أئمة الصوفية - في "عوارفه" - عوارف المعارف كتاب مشهور عند الصوفية وهذا يرد به على عموم المتصوفة فهؤلاء أثمتكم ابر علي الزوجاني والسهروردي يخالفونكم فيما تذهبون إليه من الحرص على الحصول على الكرامات .

ويقول " وهذا أصل كبير - هذا كلام السهروردي - في الباب فإن كثير من المجتهدين المتعبدين سمعوا السلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات في خوارق العادات فنفسهم تتطلع إلى شيء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيء منه ولعل أحدهم يبقى منكسراً القلب متهم لنفسه في صحة عمله حيث لم يحصل له خارق - بمعنى إذا اجتهد في العبادة ولا حصل له خارق اتهم عبادته - ولو علموا بسر ذلك لكان عليهم الأمر فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً والحكمة فيه أنه يزداد بما يراه من خوارق العادات وأمارات القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا والخروج عن دواعي الهوى فسبيل الصادق - هذا هو الشاهد - فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل كرامة " يعني وصولك إلى أعلى درجات الاستقامة هذه غاية الكرامة فلا تكن طالب للكرامة بقدر ما تكون طالب للاستقامة .

ويقول " ولا ريب أن للقلوب من التأثير أعظم مما للأبدان لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تعالى تارة ومكروها لله أخرى وقد تكلم الفقهاء في وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن وهؤلاء يشهدون ببواطنهم وبقلوبهم الأمر الكوني ويعدون مجرد خرق أمر العادة لأحدهم بأنه كرامة من الله له - يعني بمجرد ما أن تنخرق العادة لأحد يعتبرونها كرامة وهذا ليس بصحيح - ولا يعلمون أنه في الحقيقة إنما الكرامة لزوم الاستقامة - هذه هي الكرامة الحقيقية ، أما خرق العادة فقد يحرق الله عز وجل عادة لأعدائه - وإن الله تعالى لم يكرم عبداً بكرامة أعظم من موافقته في ما يحبه ويرضاه وهي طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه وهؤلاء هم أولياء الله الذي قال فيهم {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} وأما ما يبتلي الله تعالى به عبده من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه - يعني الكرامة لا يلزم منها أن الله يحب هذا العبد أو يبغضه ولا يلزم منه أن هذا العبد له مكانه عند الله وهذا الذي لم تجر له كرامة ليس له مكانه عند الله عز وجل - بل قد سعد - بهذه الكرامة - قوم إذا أطاعوه ، وشقي - بهذه الخرق للعادة لا نسميها كرامة - قوم إذ عصوه - لأنهم استخدموا خرق هذه العادة في معصية الله عز وجل - كما قال تعالى {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} - هذا هو السعيد لما أكرمه الله عز وجل ورفع منزلته وأجرى على يديه مالم يجر على يد غيره شكر الله عز وجل وازداد في طاعته فكان خير له - ويقول تعالى {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} - الشخص الثاني لما أجرى الله على يديه خرق العادة صار سبباً لضلاله وانحرافه فكانت وبالاً عليه ولهذا

لا يلزم منها السعادة ولا الشقاوة ، خرق العادة كأن الإنسان يمشي على الماء بقدميه هذه خرق للعادة لما جرت لصحابة رضي الله عنهم في معركة القادسية كان هذا سبب لشحذ همهم وشكر الله عز وجل على هذا الأمر والاجتهاد في الجهاد فصارت خيراً لهم وقد يجري الله تعالى خرق هذه العادة لأحد لمن يدعي الولاية كأن يمشي على الماء أو يطير في الهواء ولكنه يزداد في معصية الله عز وجل، ويظهر بعض الأمور المضادة لحكم الله عز وجل فهذا الخرق للعادة سبب لضلاله وانحرافه وسبباً لوباله .

يقول : "ولهذا كان الناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام : يعني باتجاه الكرامة موقف الناس في مقابل خرق العادات

١. "قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة" وهؤلاء الذين يكون خرق العادة سبباً لطاعتهم وزيادة في الاستقامة
٢. "وقسم يتعرضون بها لعذاب الله" من اتخذ خرق هذه العادة لمعصية الله عز وجل فأحياناً قد يفتح الله عز وجل للإنسان على يديه من الدنيا ما لا يفتح على غيره لا لذكائه ولا لقوته ولا لقدرته ولكن فتح من الله عز وجل فيتخذ هذا المال سبب لمعصية الله عز وجل ولمحاربة الله عز وجل فيكون هذا المال وبالاً عليه
٣. "وقسم يكون في حقهم" بمنزلة المباحات كما تقدم .

ثم تكلم الشيخ عن كلمات الله عز وجل الكونية والدينية التي يحصل بها هذه الخوارق للعادة يقول : " وتنوع الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله وكلمة الله نوعان: كونية ، ودينية " بمعنى أن الإنسان قد يجري الله عز وجل على يديه أو يكشف له شيء يخفى على غيره كما كشف لعمر وهو يخطب في الناس فكشفت له أرض المعركة في العراق ورأى جيش المسلمين ورأى قائد المسلمين سارية وكان خلفه الجبل فناده يا سارية الجبل يا سارية الجبل يعني الحق بالجبل فهذه كرامه من الله عز وجل خرق للعادة أنه شاهد ما لا يشاهده غيره ورأى أرض المعركة وهو في المدينة المنورة فقد يكون هذا بإرادة الله الكونية وقد يكون بإرادته الدينية الشرعية

يقول: " فكلما كانت الكونية هي التي استعاذ به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر) وهذا تقدم الكلام عليه أن كلمات الله الكونية هي الشاملة لكل شيء يحصل بها كل شيء قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } فكل ما يجري في هذا الكون من خير وشر وإيمان وكفر من طاعة ومعصية هو بكلمات الله الكونية كن فكان ويقول قال تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } كل هذه أدله على كلمات الله الكونية ، "والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق" بمعنى جميع الخوارق سواء الكرامات التي للأولياء أو الخوارق التي تجري على يد المشعوذين والباطلين كلها تجري بإرادة الله الكونية .

يقول: " النوع الثاني الكلمات الدينية - الشرعية ذكر الدينية يعني الشرعية - وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي أمره ونهييه وخبره وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به كما أن حظ العباد عموماً وخصوصاً العلم بالكونيات والتأثير فيها أي بموجبها فالأولى تدبيرية كونية وثانية شرعية دينية فكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية " فكلمات الله عز وجل الدينية الشرعية يكشف الله عز وجل لبعض عباده خاصة العلماء بحيث أنهم يفهمون النصوص ويدركون من معاني هذه النصوص نصوص الوحيين نصوص الكتاب والسنة ما لا يدركه غيرهم من عامة الناس وهذه كرامة من الله في أن يعطي الله عبده فهماً وإدراكاً يدرك به معاني وحقائق هذه النصوص ما يخفى على غيره بخلاف الآيات الكونية في التي يحصل بها الخوارق العامة .

يقول : " وقدرة الأولى التأثير في الكونيات إما في نفسه كمشي على الماء وطيرانه في الهواء - هذا تأثير في الكون يمشي على

الماء أو يطير في الهواء - وجلوسه في النار - كل هذا بكلمات الله الكونية - وإما في غيره - أي يؤثر في غيره أما أن يمرضه أو يتصرف في غيره تصرف خارق للعادة - بإصباح وإهلاك - بمعنى قد يهلك غيره يؤثر على غيره - وإغناء وإفقار، وقدرة الثانية - أي الآيات الشرعية - التأثير في الشرعيات إما في نفسه بطاعة الله عز وجل بحيث انه يستطيع أن يؤثر على نفسه فتزداد - بطاعة الله ورسوله والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنا وظاهرا وإما في غيره - بمعنى يستطيع أن يؤثر على الناس بأن يأمر بطاعة الله فيطيعه الناس يأمر بالاستقامة فيستجيب الناس له ،

يقول: "أما في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله فيطاع في ذلك طاعة شرعية " وهذا يعتبر كرامة ومن تأثير الله عز وجل الديني الشرعي أو من كلمات الله الدينية الشرعية

يقول: " فإذا تقرر ذلك فأعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم - هذه النتيجة النهائية بمعنى عدم حصول الخوارق لا من جهة العلم ولا من جهة القدرة لا تضر المسلم ما دام أنه مجتهد في طاعة الله عز وجل يقول - لا تضر المسلم في دينه من لم ينكشف له شيء من المغيبات ومن لم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له - لأنه ربما لو أجري على يديه لكان سببا لهلاكه وانحرافه نسأل الله السلامة - فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة - إن اقترن بهذا الخارق التمسك بدين الله والاستقامة على طاعته وإلا صار وبالا عليه وخسران في الدنيا والآخرة - فإن الخارق قد يكون مع الدين - يعني الخارق قد يجريه الله عز وجل على إنسان ملتزم و متمسك بدين الله عز وجل - وقد يكون مع عدمه أو فسادة أو نقصه - قد يكون مع عدم الدين أو مع وجود الدين وهو فاسد أو مع وجود الدين وهو ناقص فالخارق ليس أمانة على الاستقامة وليس أمانة على محبة الله عز وجل وليس أمانة على منزلة الإنسان عند الله عز وجل فالخارق يجري على يد المطيع وعلى يد العاصي.

الحلقة (٣٥)

◀ الخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له :

قال: " فالخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له " بمعنى الخارق للعادة الذي ينفع صاحبه هو الذي يخدم الدين وهو الذي تابع لشرع الله عز وجل معين للإنسان على طاعة الله عز وجل.

يقول : " كما الرياسة النافعة هي التابعة للدين وكذلك المال النافع هو التابع للدين - والذي يعين صاحبه على الطاعة والاستقامة وإذا كان المال سبب في معصية الله عز وجل صار ضرره أكبر من نفعه - كما كان السلطان والمال النافع بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأي بكر وعمر - بمعنى أن الله عز وجل جعل بيد هؤلاء السلطان والمال فكان سببا لطاعة الله عز وجل وصار نافعا بالنسبة لهم - فمن جعلها هي المقصود وجعل الدين تابع لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين "بمعنى من جعل خرق العادة هي الأصل والدين تابع لها ووسيلة لها فهو أشبه بالشخص الذي يأكل الدنيا بالدين يجعل الدين سلما لأكل المال الحرام

يقول: " وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشرعية صحيحة " فالذي استقام على طاعة الله عز وجل رجاء في عفوهِ وكرمه وجنته وخوفاً من عذابه فهو الشخص الذي على سبيل النجاة وهو السالك لمنهج الأنبياء الذين أمرنا الله عز وجل بالاعتداء بهم {وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} ولهذا كان الأنبياء رحمهم الله يدعون الله كما أخبر الله عز وجل عنهم يدعون الله رغبا ورهبا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا .. { فهذه سبيل أهل الإيمان .

ويقول : " والعجب أن كثيرا ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفاً من النار أو طلباً للجنة" فهذا موجود عن بعض غلاة الصوفية يزعم أنه يطيع الله عز وجل محبة لله لا خوف من النار ولا رجاء للجنة، وهذا خلاف المنهج الشرعي الصحيح فنحن نطيع الله عز وجل ونؤمن به محبة فيه ورجاء لرحمته وخوفاً من عذابه وهذا هو منهج الأنبياء لكن هؤلاء يزعم بعضهم أن همه ارتفع ، أنه يرجو الجنة أو يخاف العذاب ، نعم يقول عجيب ممن يقول بهذا القول ويعتقد هذا الاعتقاد يجعل همه بدينه أدنى خارقاً من خوارق الدنيا الآن يقول أنا أعبد الله عز وجل لا خوفاً من عذابه ولا رجاء في جنته ورحمته ثم يجعل همه في دينه وطاعته أن يحصل له خارق بسيط من الخوارق أن يجريها الله عز وجل على يديه هذا من التناقض العجيب ومن الجهل المركب .

يقول : " ثم إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه قال تعالى : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} " يقول الإنسان إذا تدين لله عز وجل علماً وعملاً منهجاً وسلوكاً فإن احتاج إلى خارق سيجريه الله على يديه لأن الله عز وجل تكفل بذلك قال : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} لكن إذا احتاج له الإنسان وقد لا يحتاج الإنسان إلى خارق للعادة.

يقول : " وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا} وقوله تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

*الشاهد : أن الإنسان إذا احتاج إلى خارق و أي نوع من أنواع الخوارق وقد اتقى الله عز وجل ظاهر وباطن وصدق مع الله عز وجل في هذا أجرا الله عز وجل هذا الأمر عليه، وعداً من الله

يقول: "وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)، ثم قرأ قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} رواه الترمذي برواية أبي سعيد الخدري " الحديث في سنده مقال لكن على فرض صحته فيه إثبات الفراسة واستدل بعض أهل العلم على الفراسة بقول الله عز وجل كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عنه {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} أي المتفرسين فالفراسة سيعرفها المؤلف لاحقاً وأتى بها هنا عرضاً ليبين أن الله عز وجل إذا احتاج المؤمن إلى خرق العادة أياً كانت هذه العادة وصدق مع الله عز وجل خرق الله له العادة إذا احتاج لذلك.

يقول: " وقال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين : (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في نفس عبدي يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه) فظهر أن الاستقامة حظ الرب وطلب الكرامة حظ النفس وبالله التوفيق " هذا الحديث في استدلال على أن الإنسان كلما كان أتقى وأكثر استقامة لله عز وجل كلما أجرى الله عز وجل على يديه من الخوارق إذا احتاج لذلك ولا شك أن الله يريد من العبد الاستقامة لا يريد منه طلب الكرامة طلب الكرامة هذا حظ النفس فالواجب للمؤمن أن يسعى فيما يريده الله عز وجل لا فيما تريده نفسه ويطمح إليه هواه

يقول : " وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهر البطلان " بالطبع المعتزلة ينكرون الكرامة ويعتقدون عدم وجود الكرامة

ولا يمكن أن تحصل على يد الأولياء والسبب في ذلك حجتهم في ذلك يقولون لئلا تشبه المعجزة بالكرامة لهذا قال المؤلف قول المعتزلة في القول بالكرامة ظاهر البطلان .

"فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات" هذا أمر محسوس نشاهده ويشاهده الناس أن الله عز وجل يجري على بعض عباده أمور خارقة للعادة فهؤلاء لما أنكروها أنكروا أمراً معلوم بالحس .

قوله : "وقولهم لو صحت لاشتبهت بالمعجزة" هذه هي شبهتهم لماذا أنكر المعتزلة الكرامة ما الذي حملهم على إنكار الكرامة قالوا لأجل ألا تشبه لو صحت الكرامة فعلاً لاشتبهت بالمعجزة واشتبه على الناس النبي وغير النبي، ويقول: "فيؤدي إلى التباس النبي بالولي" يعني يشبهه على الناس هل هذا نبي أو ولي على حد قول المعتزلة وذلك لا يجوز أن يلتبس النبي بالولي ولهذا قالوا نقول بإنكار الكرامة .

يقول المؤلف : "وهذه الدعوة تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة" هذا هو الفرق بين الكرامة وبين آية الأنبياء ، الأنبياء يأتي بهذا الخارق ويدعي النبوة ويقول : أنا نبي مرسل من الله عز وجل الولي لا يدعي النبوة ولو ادعى النبوة لفضحه الله عز وجل ولما كان ولياً ولما جرى على يديه هذه الخوارق .

قال المؤلف : "وهذا لا يقع" بمعنى أن الولي لا يدعي النبوة ولو ادعى النبوة لم يكن ولي بل كان متنبئ كذاب وقد تقدم الكلام في الفرق بين النبي والمتنبئ عند قول الشيخ أن محمد عبده المجتبي ونبيه المصطفى فلا حاجة للإعادة هنا

***الشاهد :** أن الكرامة لا يلزم منها اختلاط النبي بالولي كما يزعم المعتزلة سبب التعليل لأن الولي لا يدعي النبوة من خلال هذا الخارق الذي أجراه الله على يديه بخلاف النبي لما أجرى الله على يديه هذا الخارق ادعى النبوة وجاء إلى الناس وقال: أنا نبي من الله فأقره الله عز وجل على هذا الأمر وأجرى عليه الخوارق بعد الخوارق بخلاف الدعي المتنبئ.

ويقول : "مما ينبغي التنبيه عليه هنا أن الفراسة ثلاثة أنواع- هنا الكلام جاء كلام المؤلف عن الفراسة -

١ / فراسة إيمانية : وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده وحقيقتها - يعني تعريفها سبب في هذه الفراسة نور يقذفه الله عز وجل في قلب عبده فيرى مالا يرى غيره ويعلم مالا يعلم غيره -

وتعريفها : خاطر يهجم على القلب - هذا تعريف ابن القيم لها - يشب عليه كوثوب الأسد على الفريسة ومنها اشتقاقها " يعني الفراسة من كلام ابن القيم والمؤلف نقل عنه يقول : اشتقت الفراسة من هذا لأنها كالوثوب يعني شيء يقذفه الله عز وجل في قلب العبد لا يستطيع دفعه كوثوب الأسد على الفريسة عرفها ابن القيم تعريف ثاني قال أو نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى مالا يراه غيره بمعنى أن هذا النور يخطر على القلب فيتوقع شيء فيقع ما توقع كما حصل لعمر في حوادث وأمور متكررة أو يقذفه الله عز وجل في عيني عبده فيرى مالا يراه غيره يبصر مالا يبصر غيره هذه هي الفراسة الإيمانية إذن سببها هو نور يقذفه الله عز وجل في قلب العبد حقيقتها هذا الخاطر أو الشيء الذي يهجم على القلب يرد على القلب أو إلى العين هذه الفراسة تحصل على حسب قوة الإيمان فكل ما كان العبد أقوى إيماناً كان أحداً فراسة .

يقول المؤلف : " وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان فمن كان أقوى إيمان فهو أحداً فراسة قال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى الفراسة: مكاشفة النفس ومعاينة الغيب وهي من مقامات الإيمان " ، إذا ينكشف للإنسان غيب لا يراه غيره وهذه الفراسة بحسب قوة إيمان الشخص ولهذا تجد عند أهل الإيمان حقيقة من الفراسة ومن العلم ما يجهله كثير من الناس من أين حصل لهم هذا الشيء؟! ، من قوة الإيمان التي اكتسبها بطاعة الله عز وجل .

" ٢ / فِرَاسَة رِيَا ضِيَة : وَهِيَ الَّتِي تَحْصُلُ بِالْجُوعِ وَالسَّهَرِ وَالتَّخْلِ بِمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَجَرَّدُ مِنْ عَوَالِقِ الْحَيَاةِ يَنْعَزِلُ عَنِ النَّاسِ يَحَاوِلُ يَقْلِلُ مِنَ الْأَكْلِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ مِنَ النَّوْمِ كَذَا فَالْنَفْسُ إِذَا تَجَرَّدَتْ مِنْ هَذِهِ الْعَوَالِقِ صَارَ لَهَا مِنَ الْفِرَاسَةِ وَالْكَشَفِ بِحَسَبِ تَجَرُّدِهَا الْآنَ الَّذِي يُوْثِّرُ عَلَى النَّفْسِ دَائِمًا التَّوَسُّعُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَأْكُلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَجَالِسَةِ فَتَخْتَلِطُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ بَدَأَ يَنْكَشِفُ لَهُ مَا لَا يَنْكَشِفُ لْغَيْرِهِ، إِذَا هَذِهِ الْفِرَاسَةُ سَبَبُهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي تَجَرُّدِهِ عَنْ هَذِهِ الْعَوَالِقِ وَهَذِهِ تَسْمَى فِرَاسَةً رِيَا ضِيَةً.

يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ " وَهَذِهِ فِرَاسَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالْمُؤْمِنِ وَلَا بِالْكَافِرِ - فَكُلٌّ مِنْ سَلَكِ هَذَا الْمَسْلَكِ تَجَرَّدَ عَنْ هَذِهِ الْعَوَالِقِ رَوْضَ نَفْسِهِ حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا سِوَاءَ أَكَانَ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا - وَلَا تَدُلُّ هَذِهِ الْفِرَاسَةُ لَا عَلَى إِيْمَانٍ وَلَا عَلَى وَلَايَةٍ وَلَا تَكْشِفُ عَنْ حَقِّ نَافِعٍ - بِمَعْنَى أَنَّهُ

لَا يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حَقٍّ - وَلَا عَنْ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ بَلْ كَشَفَهَا مِنْ جِنْسِ فِرَاسَةِ الْوَلَاةِ - الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَلَايَةَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ يَكُونُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْفِرَاسَةِ أَوْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَجْهَلُهُ عَامَّةٌ مِنْ فِي وَلَايَتِهِمْ مِنْ شُعُوبِهِمْ - وَأَصْحَابُ عِبَارَةِ الرُّؤْيَا وَالْأَطْبَاءُ وَنَحْوُهُمُ الَّذِينَ يَعْبُرُونَ الرُّؤْيَا قَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْفِرَاسَةِ، أَيْضًا الْأَطْبَاءُ قَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْفِرَاسَةِ

* الشَّاهِدُ : إِنَّهَا تَحْصُلُ بِالتَّعَلُّمِ وَالاكْتِسَابِ هَذِهِ الْفِرَاسَةُ لَيْسَتْ مُوَهَّبَةً مِنَ اللَّهِ كَمَا هِيَ حَالُ الْفِرَاسَةِ الْإِيْمَانِيَةِ نَوْرٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ، لَا، هِيَ تَحْصُلُ بِالتَّدْرِبِ وَالتَّعَلُّمِ وَلِهَذَا كَلَّمَ أَزْدَادَ الطَّبِيبِ عِلْمٌ فِي فَنِّهِ كَلَّمَ كَانَ أَكْثَرَ دِرَايَةً وَفِرَاسَةً مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَطْبَاءِ لِأَنَّهُ حَصَلَ عَلَى هَذَا الشَّيْءِ بِالتَّدْرِبِ وَكَثْرَةِ الْمَطَالَعَةِ وَكَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ وَكَثْرَةِ الْمَجَالِسَةِ لِمَنْ هُمْ أَصْحَابُ الشَّأْنِ .

٣ / فِرَاسَةُ خَلْقِيَّةٍ : وَهِيَ الَّتِي صَنَّفَ فِيهَا الْأَطْبَاءُ وَغَيْرُهُمْ وَاسْتَدَلُّوا بِالْخَلْقِ عَلَى الْخَلْقِ - أَحْيَانًا يَكُونُ خَلْقُ الْإِنْسَانِ دَلِيلًا عَلَى خَلْقِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ فَأَنْتَ تَعْرِفُ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ لِلَّذِي أَمَامَكَ الْمَادِي الْمَخْلُوقُ تَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ أُمُورٍ غَائِبَةٍ هَذِهِ تَسْمَى فِرَاسَةً خَلْقِيَّةً - لَمَّا بَيْنَهُمَا مِنْ ارْتِبَاطٍ الَّتِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ كَالِاسْتِدْلَالِ بِصَغَارِ الرَّأْسِ الْخَارِجِ عَنِ الْعَادَةِ عَلَى صَغَرِ الْعَقْلِ - يَعْنِي كُلَّ مَا صَغُرَ رَأْسُهُ الْإِنْسَانُ كُلُّ مَا ضَعُفَ عَقْلُهُ - وَبِكَبَرِهِ عَلَى كِبَرِهِ - الشَّاهِدُ عَلَى هَذَا مَجَالُهُ عِلْمُ النَّفْسِ وَمَحَلُّ خِلَافِ الْآنَ بَيْنَ أَهْلِ هَذَا الْفَنِّ هَلْ فَعَلًا أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ دَالَّةٌ عَلَى خُلُقِ الْإِنْسَانِ أَوْ لَا وَعَلَى كُلِّ حَالٍ الْمَسْأَلَةُ اجْتِهَادِيَّةٌ - وَسَعَةِ الصَّدْرِ عَلَى سَعَةِ الْخَلْقِ وَبُضِيْقِهِ عَلَى ضَيْقِهِ وَبَجَمُودِ الْعَيْنَيْنِ وَكَلَالَةِ نَظَرِهِمَا عَلَى بِلَادَةِ صَاحِبِهِمَا وَضَعْفِ حَرَارَةِ قَلْبِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ "

* وَالشَّاهِدُ : أَنَّهُ يَسْتَدِلُّ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ عَلَى خُلُقِهِ فَهَذِهِ فِرَاسَةٌ تَسْمَى فِرَاسَةً خَلْقِيَّةً.

انْتَهَى إِلَى هُنَا كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ عَنِ الْكِرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَالْوَلَايَةِ وَالْكَلَامِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَأَنْتَقِلُ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَسْأَلَةٍ جَدِيدَةٍ وَهِيَ :

◀ مَسْأَلَةٌ : أَشْرَاطُ السَّاعَةِ وَالْإِيْمَانِ بِهَا :

يَقُولُ : " وَقَوْلُهُ وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ مِنْ خُرُوجِ الدِّجَالِ وَنَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجِ دَابَّةِ الْأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا " هَذَا كَلَامُ الْأَمَامِ الطَّحَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْإِيْمَانِ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ أَمَارَاتُ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتُ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطُ السَّاعَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ بَعْبَادَهُ أَنْ جَعَلَ لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ وَلِهَذَا الْوَقْتِ الْهَائِلِ الَّتِي هِيَ السَّاعَةُ أَوِ الْقِيَامَةُ أَوِ الصَّاخَةُ أَوِ الطَّامَةُ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لَهَا أَمَارَاتٍ وَعَلَامَاتٍ لِأَنَّهُ أَخْفَى عِلْمَهَا عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ وَمَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ عِلْمَ السَّاعَةِ فَلَمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ

بعلمها بعلم وقتها جعل لها أمارات وعلامات بعضها ظاهر بيّن وبعضها قد يخفى على عامة الناس لكن يعلمها العلماء وهذه الأمارات والعلامات قسمان: قسمها أهل العلم :

١ /علامات صغرى : وهي التي منها شيء حصل وقد يكون منها شيء موجود ومنها شيء سيحصل.

٢ /والعلامات الكبرى: وهي التي لم يحصل منها شيء لكن أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم عنها أنها إذا وقعت كانت كعقد أنفرط نظامه ، بمعنى إنها تتابع مرة واحدة وسيأتي الحديث عنها واحدة واحدة الشيخ هنا بدء بذكر شيء من علامات الساعة الصغرى ، وعلامات الساعة الصغرى كثيرة ولهذا ألف فيها أهل العلم استقلالاً كُتب مستقلة حاولوا جمع النصوص الدالة على هذه العلامات وهذه الأمارات ولهذا ما يذكر هنا في الكتاب هو نموذج فقط وأمثلة وإذا أراد الإنسان التوسع في هذا فليرجع إلى الكتب التي ألفت في هذا الموضوع .

من العلامات :

ما ذكره الشارح: " في حديث عوف بن مالك الأشجعي قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال: (أعدد ستا بين يدي الساعة- بمعنى انتبه أنه هناك ستة أمور ستحدث قبل قيام القيامة قبل الساعة ذكر منها - موتي - أي وفاته صلى الله عليه وسلم فمبعثه كما قال : (بعثت أنا والساعة كهاتين) فمبعثه أمارة من أمارات الساعة وعلامة من علاماتها وموته علامة من علاماتها - ثم فتح بيت المقدس - هذا حصل في زمن عمر رضي الله عنه - ثم موتتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم - وهو نوع من المرض - واستفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيضل ساخطا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين راية تحت كل راية اثني عشر ألفا)" فهذه علامات الصغرى التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم منها شيء قد وقع ومنها شيء لم يقع حتى الآن فالله أعلم .

الحلقة (٣٦)

◀ علامات الساعة الكبرى :

هناك العلامات والأمارات الكبرى والتي إذا وقعت أو وقع أولها فهي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تتابعت كعقد انفرط نظامه، كحال العقد أو السبحة إذا انقطعت لا تستطيع أن تحدد أولها أو آخرها لسرعة انفراطها .

وحديثنا اليوم عن العلامات الكبرى وقد توقفنا على حديث حذيفة ابن أسيد رضي الله عنه

"قال : (اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة - بمعنى نذكر الساعة - فقال : (ما تذكرون قالوا نذكر الساعة فقال: إنها لن تقوم حتى ترى عشر آيات - بمعنى الساعة لن تقوم ولن تقوم القيامة حتى يسبقها عشرة آيات ما هي العشر آيات يا رسول الله ؟ - الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج مأجوج وثلاث خسوف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)" رواه مسلم، فهذه أمارات ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات ستسبق قيام القيامة.

"وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن الله لا يخفى عليكم، وإن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية)" بدء الآن المؤلف بذكر شيء من التفصيل في هذه الآيات التي أجمّلها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق فذكر بعض الأحاديث الخاصة التي جاءت في الدجال فذكر أن من علامات الدجال أنه أعور ولهذا أشار النبي صلى الله

عليه وسلم إلى عينه كأن عينه طافية يعني كأنه زبيبة وهذه علامة على أنه ليس برب حقيقة فهو ناقص لأنه سيخرج للناس ويدعي الربوبية، ومن علامته أنه ليس برب كونه أعور والله عز وجل له الكمال المطلق وهذا الحديث يدل على إثبات عينين لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه.

يقول: "و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من نبي إلا أنذر قومه الأعور الدجال ألا إنه أعور وأن ربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه كاف وفاء وراء فسرّه في رواية أي كافر) " بمعنى هذه علامتان :

العلامة الأولى: أن عينه طافية وهذه علامة ظاهرة للذي يقرأ والذي لا يقرأ بمعنى أنه صاحب خلقة ناقصة والله عز وجل له الكمال المطلق فهذه علامة ظاهرة على أنه كذاب ليس برب ليس بآله.

العلامة الثانية : أنه مكتوب عليه حرف الكاف والفاء والراء أي كافر .

" وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها) ثم يقول أبو هريرة وقرأوا إن شئتم {وَأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} " انتهى المؤلف وذكر حديثين في أمر الدجال؛ والدجال من من تواترت به سنة النبي صلى الله عليه وسلم فليس عليه دليل من القرآن لكن ثبت بما تواتر تواتراً معنوياً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يخرج في آخر الزمان وله صفات ولأتباعه صفات وما ورد من صفاته أو تفاصيل صفاته وأحواله وكيف سيسوس الناس وكيف سيكون معه جنة ونار وكيف سيمنع من دخول مكة والمدينة هذا موجود في كتب أشراف الساعة إنما أراد المؤلف الإشارة هنا إشارة بسيطة .

ثم انتقل إلى ذكر العلامة الثانية وهي نزول عيسى ابن مريم وقد ثبت بما تواتر من صريح السنة وأيضاً ثبت بالقرآن وليست الآيات التي وردت فيه آيات صريحة ولكن يؤخذ منها بالمفهوم كما استدلل أبو هريرة رضي الله عنه هنا على خروجه بقول الله سبحانه وتعالى: {وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} أي: أن هناك من أهل الكتاب من سيؤمن به إذا خرج في آخر الزمان وأيضاً استدلل أهل العلم على نزول عيسى ابن مريم من القرآن بقوله تعالى

{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} كلام الرجل كهلاً هذا أمر طبيعي إذا كان كالحالة المعتادة يعني كلام الشخص في المهد لاشك آية من آيات الله عز وجل كونه يتكلم وهو على هذه الحالة في الصغر في المهد صغير ، طيب كيف الله قال {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا} قال أهل العلم يأخذ من الآية أنه سيعود مرة أخرى إلى الأرض ويكلم الناس بعد أن بلغ سن الرشد كهلاً

يقول المؤلف : " وأحاديث الدجال وعيسى ابن مريم ينزل من السماء ويقتله ويخرج يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم يضيق هذا المختصر عن بسطها" ، يقول ليس هذا مجال ذكر تفاصيل هذه الأحداث أيضاً خروج يأجوج ومأجوج زمن عيسى عليه السلام وهؤلاء أيضاً ثبت خروجهم بصريح القرآن وبصحيح السنة ،

ثم قال: " وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب " أي هاتان الآيتان فقد ثبتتا بدلالة القرآن وصريح السنة لأن

علامات الساعة وأمارات الساعة منها ما ثبت بالسنة فقط كالذجال ومنها ما ثبت بالسنة والقرآن كأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وإن كانت الآيات فيه ليست صريحة كصراحتها في أجوج ومأجوج وكذلك طلوع الشمس من مغربها وكذلك الدابة، يقول "فقال تعالى {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} " فهذا دليل صريح على خروج الدابة آخر الزمان وثبت في صحيح السنة أنها تخرج فتقسم الناس هذا مؤمن وهذا كافر حتى يتبايع الناس في الأسواق ويعرف بعضهم بعضاً أن هذا مؤمن وهذا كافر فإذا خرجت الدابة لا ينفع نفس إيمانها إذ لم تكن آمنت من قبل

يقول : " قال تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} هذه الآية دالة على طلوع الشمس من مغربها كما فسر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الآتي الذي رواه البخاري عند تفسير الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها)" بمعنى : إذا رآوا الشمس وقد خرجت من المغرب عادة الشمس منذ خلق الله الأرض والشمس تطلع من المشرق وتغرب في المغرب؛ إذا جاء في آخر الزمان خرجت الشمس بمعنى انعكست الآية خرجت الشمس من مغربها فإذا رآها الناس تيقنوا أن الساعة أذنت بالقيام فآمن الجميع لكن هل يقبل منهم الإيمان؟ لا؛ انتهى لأن الإيمان متعلق بالغيب فانتفى الغيب الآن و كشف الغيب ، يقول فلذلك حين لا ينفع نفس إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل بمعنى: لا ينتفع الإنسان بهذا الإيمان الذي آمن بعد طلوع الشمس من مغربها .

ويقول: "روى مسلم عن عبد الله ابن عمر قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها قريباً)" النبي صلى الله عليه وسلم يقول أول الآيات خروجا طلوع الشمس والدابة فأيهما ظهرت فالأخرى على إثرها يعني بعدها مباشرة، لكن هنا إشكال النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أول الآيات خروجا وثبت في السنة أو في أحاديث أخرى أن هناك آيات تسبق هاتين الآيتين نزول عيسى الذجال وأجوج ومأجوج علامات وأمارات أخرى فكيف الجمع؟ ذكر المؤلف الجمع بين هذا الحديث والأحاديث الأخرى ، يقول: "أي أول الآيات التي ليست مألوفة - يعني أول الآيات التي لا يألفها الناس غير معهودة غير معروفة عندهم من جنس آخر أحوال القيامة كلها أمور غير مألوفة لا يعرفها الناس فأول هذه الأحوال وأول هذه الآيات طلوع الشمس والدابة هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إن أول الآيات خروجا ، - وإن كان الذجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك وكذلك خروج أجوج ومأجوج كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر مشاهدة مثلهم مألوفة "يعني الآن الذجال وعيسى وأجوج ومأجوج بشر كسائر البشر فهذا أمر مألوف لكن خروج الشمس من مغربها وخروج هذه الدابة أمر لم يعهد من قبل، ولهذا قال أول الآيات خروجا، أول الآيات التي لا يعهد الناس لأنه سيلي هذه الآيات آيات كثيرة من أحداث القيامة لا يعهد الناس .

ويقول: "أما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف ثم مخاطبتها الناس ووسمها بإيهم بالإيمان أو بالكفر فأمر خارج عن مجاري العادات وذلك أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية" إذا الدابة أول الآيات الأرضية المشاهدة على الأرض التي لم يعهد الناس، والشمس خروجها من مغربها أول الآيات السماوية .

يقول: "وقد أفردت الناس أحاديث أشرط الساعة في مصنفات مشهورة يضيق عن بسطها المختصر" ومما ألف في هذا ما ألفه الحافظ ابن كثير رحمه الله النهاية في أشرط الساعة وكذلك كتاب الإشاعة وكتاب إتحاف الجماعة للشيخ محمود التويجي وهناك مؤلفات كثيرة ألفت في أشرط الساعة وعنت بجمع أحاديث أشرط الساعة والآيات التي وردت في ذلك ومن أراد أن يستزيد فليرجع إلى ما ألف في ذلك استقلالاً .

« كذب الكاهن والعراف :

يقول: "قوله ولا نصدق لا كاهنا ولا عرافا ولا من يدعي شيء يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة" يقول الشارح: "روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)" المؤلف هنا يريد أن يتكلم على أصناف من هؤلاء الضلال والمنحرفين من هؤلاء الفجرة الذين يدعون علم الغيب ويرغبون مشاركة الله عز وجل في شيء من خصائصه علم الغيب بما اختص الله به فلم يطلع عليه أحد من خلقه إلا من ارتضى من رسول أو ملك عن طريق الوحي أما ما عده فلا يمكن لمخلوق كائن من كان أن يدعي معرفة علم الغيب إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الرسل وأفضل الخلق قاطبة مقدم أولى العزم يقول : {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)} فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب فغيره من باب أولى ، بدأ الكلام على الكاهن والكاهن هو الذي يدعي معرفة علم الغيب بعض أهل العلم يخص الكاهن بمن يدعي معرفة علم الغيب في الماضي والعراف من يدعي معرفة علم الغيب في المستقبل

* الشاهد : أن القاسم المشترك بينهم ادعاء علم الغيب يدعون معرفة علم الغيب يدعون معرفة ما غاب عن الأنظار أو غاب عن الأسماع ولا يمكن الوصول إليه بالأسباب المعروفة المعهودة فمن ادعى علم الغيب فهو كاهن أو عراف حكمه ذكر المؤلف أولاً حديث مسلم عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ثم ذكر حديث أبو هريرة رضي الله عنه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً الجمع بين الحديثين هناك عدة أقوال ولعل الأقرب في ذلك ما ذكره بعض أهل العلم ونص عليه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه تيسير العزيز الحميد أنه:

في الحديث الأول : الذي فيه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً قال : سأله من دون تصديق مجرد سؤال فهذا ارتكب ذنب وجراً وكبيرة جزائها أن الله عز وجل لا يقبل منه صلاة أربعين يوماً .

أما في الحديث الآخر : فنص وقيد على أنه سأله وصدقه هناك سأله ولم يصدقه وهنا سأله وصدقه ،

« ما حكمه إن صدقه ؟ فقد كفر بما أنزل على محمد هذا مما جمع بين الحديثين .

يقول المؤلف: "والمنجم يدخل في قسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسئول" المنجم سيعرف المؤلف وسيأتي الحديث عنه استقلالاً هو من يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية بمعنى يستخدم حركة النجوم وحركة أفلاك السماء وحركة الأجرام فيما يحدث على وجه الأرض ، مثلاً في مآل هذا الشخص وحاله هل سيحدث له فقر أو غنى أو كارثة هذا بلا شك نوع من أنواع ادعاء علم الغيب لأن هذه من الأمور

الغيبية ، يقول والمنجم يدخل في قسم العراف عن بعض العلماء بمعنى أن المنجم نوع من أنواع العرافين كأن العرافة أقسام منها المنجم يقول هذا عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه أي قسم آخر لكنه في معناه العام الذي هو دعوى علم الغيب، قال: فإذا كانت حال السائل فكيف بالمستول الآن كلام النبي صلى الله عليه وسلم من أتى عرافا فسأله الحديث الآخر من أتى كاهنا أو عرافا فسأله الآن الكلام على حكم السائل فما الظن بحال المستول إذا كان السائل لا يقبل الله له صلاة أربعين يوماً إن سأله لمجرد السؤال وأن سأله وصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد فما الظن بالمستول الذي هو الكاهن نفسه العراف الذي يزاول نفس المهنة الذي يدعي علم الغيب فلا شك أنه أعظم جرماً

يقول : " وفي الصحيحين ومسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس عن الكهان فقال: ليسوا بشيء) -سألوه عن حال الكهان وما يخبر به الكهان فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ليسوا بشيء وهذا هو الواقع فإنهم ليسوا بشيء - فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقاً - يعني يحدثون بالأمر الغائب فيقع كما أخبروا طيب الرسول صلى الله عليه وسلم أجاب عن ذلك - فقال النبي صلى الله عليه وسلم (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معه أكثر من مائة كذبة) جاء تفصيل هذا في صحيح البخاري في حديث آخر الصحابة سئلوا الرسول صلى الله عليه وسلم حال الكهان فقال: أنهم لا شيء ، فقالوا: أنهم يخبرون في بعض الأحيان عن شيء فيقع كما أخبروا ، قال : نعم ما فيها أي إشكال لأنهم يأخذون الكلمة تخطفها لهم الشياطين عندما يصعد بعضهم على بعض ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم مثَّ لهم بهذا الشمل يرقى بعضهم بعض إلى أن يصلوا إلى السماء فربما خطفوا الكلمة قبل أن يدركهم الشهاب، إذا أوحى الله في السماء وأوحى جبريل للملائكة سمعها الملائكة فالجن قد يخطفون هذه الكلمة فيوحدون بها إلى ربيهم هذا الكاهن فيخبر بها لكن يكذب معها مئة كذبة فيصدق الناس في المائة كذبة بسبب هذه الحادثة وهذا من باب الابتلاء والامتحان ولا شك الكهان كانوا موجودون بكثرة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لكن لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم تضاءلوا لأن السماء حُرست بالشهب ولهذا قال الله عز وجل عنهم {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا} {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا} ولهذا كان الأمر متاح لهم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لكن بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ضيق عليهم يقول: "وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: (ثمن الكلب خبيث ومهر البغي خبيث وحلوان الكاهن خبيث)" لاحظوا كيف قرن النبي صلى الله عليه وسلم حلوان الكاهن الذي يأخذه بمقابل كهاتته و حلوانه كما قال المؤلف التي تسميه العامة حلاوته الشيء الذي يأخذه بمقابل كونه يتكهن لك في هذا الأمر إذا سئل فأخبر يدفع له في مقابل هذا الأمر مال أو أي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه خبيث وقرنه بما تأخذه الزانية جراء بغيها وهذا يدل على خبث هذا العمل إذا كان المال الذي يدخل عليه خبيث فالأصل العمل خبيث وإذا حرم الله شيئاً حرم ثمنه .

ويقول : " يدخل في هذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التي يستقسم بها - يعني كل من يدعي علم الغيب سواء المنجم أو صاحب الأزلام التي يكتب فيها أشبه بالأحجار أو القطع ويستقسم بها وكان أهل الجاهلية يستقسمون بها - مثل الخشبة المكتوب "أ ، ب ، ج ، د" والضارب بالحصى الذي يخط في الرمل وما تعاطاه هؤلاء حرام" كل هذه أنواع وأساليب لادعاء علم الغيب سواء الضرب بالحصى أو الخط في الرمل أو النظر في الكف أو القراءة في الفنجان ونحو ذلك .

***الشاهد :** والقاسم المشترك هو ادعاء علم الغيب فكل ما يأخذه هؤلاء جراء ادعائهم علم الغيب فهو مال خبيث وكسب خبيث محرم .

الحلقة (٣٧)

◀ تتمة مسألة كذب الكاهن والعراف :

قال المؤلف: "قد حكى الإجماع على تحريم غير واحد من العلماء كالبعثي والقاضي عياض وغيرهما" بمعنى أن من أهل العلم من حكى أن أموال هؤلاء محرمة بإجماع أهل العلم، انتقل بعد ذلك المؤلف ليذكر شيئاً من الأحاديث التي وردت في النهي عن التنجيم وحال المنجم - ذكر حديث زيد بن خالد قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ثم قال: في آخر الحديث (أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي ، فمن قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، ومن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) " بمعنى أنه من ادعى أن الكواكب هي السبب في نزول المطر فلا شك أنه نوع من التنجيم المحرم بمعنى ربط ما جرى على وجه الأرض بحركة هذه النجوم والأفلاك فهذا هو التنجيم المحرم فهنا الباء مطرنا بنوء كذا الباء السببية لكن لو قال : قائل مطرنا في نوء كذا فلا مانع فهنا الظرفية بمعنى مطرنا في وقت هذا النجم والنجم لا علاقة له بنزول المطر لكن حدد لنا الوقت كما هو معروف في علم الفلك لكن من قال : مطرنا بنوء كذا بالباء السببية فلا شك أن هذا من التنجيم المحرم حيث جعل النجوم سببا في نزول المطر .

يقول: "وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن وذكر منها الاستسقاء بالأنواء)". بمعنى اعتقاد أن للأنواء أي حركة النجوم وحركة الأفلاك علاقة بنزول المطر والسقيا.

يقول: "و النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر الأئمة بالنهي عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضوع لذكرها" النهي عن الكهانة بصورها أو التنجيم بصورها في الأحاديث كثيرة جداً ودالة دلالة قاطعة على تحريم هذا الأمر، القاسم المشترك بين هذه الأشياء هو ادعاء علم الغيب وربط الأشياء بغير أسبابها التي جعلها الله عز وجل أسباباً حقيقية .

يقول: "وصناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية" هذا هو تعريف التنجيم المحرم الاستدلال بأحوال الفلك أي حركة النجوم باجتماعها أو افتراقها بظهورها بأفولها على ما يحدث على وجه الأرض الفقر والغناء والذكاء والهلم واللذة والألم والسعادة والشقاوة والولادة والموت ربط هذه الأمور بحركة هذه النجوم لاشك أن هذا هو التنجيم المحرم أيضاً يقول بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة - أي التنجيم هذا صناعة عمل محرم بالكتاب والسنة - بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى : {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} - لأنها نوع من أنواع السحر - قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (الجبّ السحر) . فالتنجيم صورة ونوع من أنواع السحر المحرم على لسان جميع الأنبياء ولهذا الله سبحانه وتعالى نفى عنه الفلاح من كل وجه ومن كل طريق وكما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان "أن هذا اللفظ نفى الفلاح بالإطلاق لا يقال إلا في الأعمال الكفرية" وكما سيأتي بأن السحر الحقيقي المتأني عن طريق السحر والشياطين لا يتأني إلا بالكفر.

يقول: "في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه". ذكر قصة أبي بكر

رضي الله عنه وأنه جاء بخراج وذكر أنه تكهن لرجل في الجاهلية .

***الشاهد :** من القصة أن أبا بكر لما علم أن هذا المال الذي جاء به الغلام كان مقابل تكهن الغلام لرجل في الجاهلية أي ثمنه خبيث فاستقاء أبي بكر -أي أخرج ما في بطنه رضي الله عنه- وهو دليل على التورع عن أكل الحرام .

يقول : "والواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والفالات ومنعهم من الجلوس في الحوانيت -أي المحلات- أو الطرقات " وهذه عادة الذين يدعون علم الغيب والمنجمين والذين يخطون في الرمل أو يقرؤون الكف أو يقرؤون في الفنجال أو الكهان أنهم لهم محلات في بعض البلاد أو بعض الأزمنة أو يكونون يجلسون على الطرقات يستجدون الناس أموالهم مقابل هذه الكهانة ، المؤلف يقول الواجب على ولي الأمر أو من بيده السلطة أن يزيل هؤلاء ويعاقبهم لأن وجودهم يعتبر منكر عظيم ولهذا ذكر أنه إذا ترك هؤلاء مع القدرة عليهم ربما يصدق عليهم قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}. نعم فوجود هؤلاء من أشد المنكرات وأعظم من المنكرات المتعلقة بالشهوات لأن هذا أمر متعلق بالاعتقاد وبالشبهة ، نعم ذكر أنه الواجب على ولاية الأمر ومن بيده السلطة أن يغيروا هذا المنكر العظيم

يقول : " هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع - أي هؤلاء الذين يدعون علم الغيب ويزعمون أنه تجري على أيديهم خوارق أنواع من هؤلاء - نوع منهم: أهل تلبيس وكذب وخداع الذي يظهر أحدهم طاعة الجني له أو يدعي الحال من أهل المحال من المشايخ النصابين والفقراء الكذابين و الطرقية المكارين فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شيء من الشريعة أو نحو ذلك" يقول يوجد وللأسف هذه الظاهرة من علم الغيب والتصرف بالكون قد يوجد عند من يدعون علم التصوف يظهر التمسك والزهد ولكن يزعم أن الجن تطيعه في مثلاً الإخبار بالأمر المغيبات ونحوه ويقول: هذه دعوة كذابين ودجالين يأكلون أموال الناس بالباطل فهؤلاء الواجب ردعهم والأخذ على أيديهم وربما قد يصل الأمر إلى أنهم يستحقون القتل كمن يدعي منهم النبوة وأنه يوحى إليه؛ ولا يوحى إلا لنبي أو يطلب تغيير الشريعة أي كأنه أتى بشريعة جديدة غير شريعة النبي صلى الله عليه وسلم هذا النوع يقول المؤلف الواجب أن يأخذ على أيديهم حتى ولو بالقتل لأنهم مرتدون خارجون عن دائرة الإسلام .

يقول: "ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر" يقول من هؤلاء فعلاً من تجري على أيديه بعض الخوارق لكن هذه تتأتى له عن طريق السحر فهو ساحر كذاب يقول بعض العلماء يوجبون قتل الساحر لأن السحر الحقيقي الذي يتأتى عن الجن والشياطين هذا لا يكون إلا كفرة، ولهذا ما نقل عن الشافعي كما سيأتي أن الساحر يقال له صف لنا سحرك فإن وصف ما يوجب القتل قتل وإلا لا ، الإمام الشافعي توسع فأدخل في السحر ما ليس بسحر حقيقة، سحر لغة لكنه ليس سحر حقيقة لأن السحر الحقيقي هو ما يأتي عن طريق الجن والشياطين والجن والشياطين لا تخدم هذا الساحر إلا أن يتقرب لها بنوع من القرابين ونوع من العبادة التي لا تصح إلا لله عز وجل ولهذا حكم عليه جمهور العلماء أنه كافر ويجب أن يقتل واختلفوا هل يستتاب أو لا يستتاب ذكر المؤلف الخلاف في ذلك:

يقول: "وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك في المنصوص عنه-يعني مذهب الجمهور- وهذا المأثور عن الصحابة كعمر وابنه وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم " نعم يقول هذا القول ، القول بقتل الساحر

والمروي عن هؤلاء لأن عمر أرسل أن اقتلوا كل ساحر وساحرة وأيضاً هو رأي عثمان رضي الله عنه ورأي عبد الله بن عمر.

يقول: "ثم اختلف هؤلاء هل يستتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر؟ أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد؟ وقالت طائفة - المسألة في الخلاف في هذه المسألة في كتب الفروع، بعد ذلك يقول- وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه والأكثر يقولون أنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه وزعم بعضهم أنه مجرد تخيل". أهل السنة ذهبوا إلى أن السحر قسمان منهما ما هو حقيقي فعلاً يمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه كما ذكر الله عز وجل في قوله {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ..} في هذه الآية، ومنه ما هو تخيل بمعنى تخيل على العيون وليس بحقيقة ولهذا قال الله عز وجل عن سحرة فرعون {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} أما المعتزلة فخالفوا في ذلك كما سيشير المؤلف أن السحر ما هو إلا تخيل ولا حقيقة له.

يقول: "واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو غيرها أو خطابها أو السجود لها والتقرب إليها مما يناسبها من الملابس والبخور والخواتم ونحو ذلك فإنه كفر" يعني السحر الذي من هذا النوع الذي يتقرب فيه الساحر من الكواكب ويسجد للكواكب ويذبح للكواكب ويستغيث بها فلا شك أن هذا كفر بالإجماع، يقول "وهو من أعظم أنواع الشرك فيجب غلقه" فيجب على من بيده السلطة ومن بيده الأمر والنهي إغلاق هذا الباب والأخذ على يد هؤلاء المفسدين لأنه شرك صريح، بل سده وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليهم السلام "وهم الصابئة التي بعث فيهم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الكواكب" ولهذا قال لما حكى عنه الله في قوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ٨٨} فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩} لأنهم كانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل والمعابد ويتقربون إليها بأنواع القرب وهؤلاء أيضاً كأولئك.

◀ مسألة الرقي والعزائم:

يقول: "واتفقوا- أي العلماء- كلهم على أن كل رقية و تعزيم أو قسم فيه شرك بالله فإنه لا يجوز التكلم به انتقل المؤلف هنا إلى الإشارة إلى مسألة الرقي وهي العزائم التي ينفت بها على صاحب الآفة وأهل العلم اشترطوا في الرقي الشرعية أن تستوفي ثلاثة شروط:

١. أن تكون بلسان عربي مفهومة المعاني محفوظة الألفاظ.
 ٢. أن تكون بأسماء الله وصفاته وآياته وبما ورد من الأوراد الشرعية الصحيحة
 ٣. أن يعتقد أنها سبب من الأسباب والنفع والضرر بيد الله عز وجل، لكن إذا كانت هذه الرقية مشتملة على: أدعية شركية، أو الإقسام على الله بما فيه شرك، فلا شك أنه لا يجوز التعامل بها لا من الراقي ولا من المرقى.
- يقول: "وإن أطاعته به الجن أو غيرهم" ربما نعم يأتي هذا الراقي المخرف الذي هو كاهن فيدعو أدعية بأسماء جن وشياطين يدعوا غير الله عز وجل فتطيعه الجن في حال إذا كان هذا المرقى مصروعاً أو مصاباً من قبل الجن فيشفى من صرعه أو مرضه وهذا لا يدل على صحة فعل هذا الراقي إنما لأنه يستخدم الجن والشياطين.
- يقول: "وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به - هذه قاعدة كل كلام اشتمل على كفر أو على منكر لا يجوز التكلم به سواء دعا به الإنسان أو تكلم به ابتداءً ويقول- كذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به" وهذا كما ذكرت لكم أن أهل العلم اشترطوا في الرقية الشرعية لا بد أن تكون مفهومة المعاني لأنه ربما إذا كانت من حروف أو ألفاظ غير مفهومة المعاني بخزعبلات ربما اشتملت هذه الخزعبلات والطلاسم على أسماء جن وشياطين وتضمنت دعاء غير الله عز وجل أو

الاستغاثة بغير الله عز و جل لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (لا بأس بالرقى ما لم تكن شرك) الأصل في الرق الجواز إذا توفرت فيها الشروط الثلاثة التي ذكرتها لكم.

◀ التنازع في حقيقة السحر وأنواعه :

يقول: "ولا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} يعني لا يجوز للإنسي أن يستعيز بالجن بمعنى أن يطلب منه الإعانة والغوث- قالوا : كان الإنسي إذا نزل في الوادي يقول أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه- يقولون هذي في سبب نزول الآية أي يعني كانوا يستعيزون بعظماء الجن وسادتهم من سفهاء الجن- فبييت في أمن وجوار حتى يصبح {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} أي زادوهم إثماً وطغياناً وجرأه وشرأً يعني الأنس باستعاذتهم للجن رفعوا من شأنهم وزادوهم تسلط على بقية الإنس الذين لا يستعيزون بهم.

قال " وذلك أنهم قالوا سدنا الأنس والجن" أي تعاضوا في أنفسهم وازدادوا كفراً إذا عاملتها الأنس بهذه المعاملة وقد قال تعالى: {وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٤٠} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ٤١} ، فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم: ضالون إنما تنزل عليهم الشياطين" يعني هؤلاء المخرفين بعض ضلال الصوفية يزعم أنه يخاطب الملائكة ويسأل الملائكة فتنزل عليه الملائكة وتخدمه الملائكة يقول وفي واقع الأمر أن الذي يخدمه هم الجن الذي يخاطبهم ويستعين بهم ويستعيز بهم هم الجن بصريح هذه الآية أن الله يسأل الملائكة {أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٤٠} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ٤١}، إذا أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أي يتقربون إلى الجن يذبحون لهم ويستغيثون بهم ويدعونهم من دون الله عز و جل فخدمتهم الجن قدمت لهم الخدمة التي يريدون يقول وأنها تنزل عليهم الجن والشياطين وقد قال تعالى: {وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} الله عز و جل خاطب هؤلاء الداعين والمدعويين أنكم جميعاً في النار قول الأنس {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ}

قال المؤلف : "استمتع الإنسي بالجنى بقضاء حوائجه وامتنال أوامره وأخباره بشيء من المغيبات "

◀ يعني كيف استمتع الإنسي بالجنى ؟ لما قدم له خدمة حصل على هذه الخدمة ، دفع عنه هذا البلاء قدم له هذا الشيء الذي طلبه واستمتع الجنى بالإنسي تعظيمه إياه كون الإنسي عظمه ودعاه من دون الله عز و جل وتقرب إليه واستغاثة وخضع له، إذا استمتع بعضهم ببعض فالمصالح متبادلة بين الطرفين الجن تخدم الأنس لأنهم عبدوهم وتقربوا إليهم والأنس عبدوهم لأنهم قدموا لهم هذه الخدمة من الإخبار بالمغيبات أو قضاء الحاجات وكل هذا شرك وضلال، ويقول: "نوع منه يتكلم بالأحوال الشيطانية " أي نوع من هؤلاء ضلال الصوفية كل هؤلاء يبين الشيخ أنهم يستخدمون الجن والشياطين كحال العرافين والكهان والسحرة يقول هؤلاء نوع منهم ، فنوع من هؤلاء الضلال أي ضلال الصوفية يتكلم بالأحوال الشيطانية ، "والكشف ومخاطبته لرجال الغيب وأن له خوارق تقتضي أنهم أولياء لله " فيظهر أنه يعلم الغيب ويفعل أشياء في الغيب ويزعم أنه يخاطب الملائكة وفي واقع الأمر يخاطبون الجن يخاطبون الشياطين ويتعاملون معها وهي التي تُجري على أيديهم الخوارق فتطير بهم في الهواء ، ويلبس على كثير من الناس أنه هو الذي يطير في الهواء وأنه صاحب كرامه وأن ولي من أولياء الله عز و جل، وفي وقع الأمر أن الشياطين هي التي تحمله، يمشي على الماء لأن الشياطين تحمله على الماء يخبر

بالمغيبات لأن الشياطين تخبره بالمغيبات..، فهو ليس ولي بل ضال كاهن دجال وهو يتظاهر أمام الناس أنه من أولياء الله، يقول: "وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين" لأن المشركين على شاكلتهم فأحياناً يوجد من هؤلاء من يكون في صف المشركين على المسلمين لأنهم سواء وإن تظاهر بالصلاح والتقوى والزهد قال: ويقول: "إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لأن المسلمين قد عصوا وفي الحقيقة هؤلاء إخوان المشركين" يعني أن الرسول هو الذي أوحى إليه وأمره أن يقاتل مع المشركين المسلمين لماذا؟ لأن المسلمين لم يطيعوا هذا الدجال المخرف، يقول: "والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب" تجاه هؤلاء الدجالين المخرفين الكذابين الذين يدعون الولاية وهم يستخدمون الجن والشياطين يقولون هم على ثلاثة أحزاب "حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم وحدده الثقات بما رأوه وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم" يعني قسم من الناس يكذب بوجود أصلاً رجال غيب ولكن إذا حدث أو رأيهم والتبس عليه الأمر آمن بوجود هؤلاء رجال الغيب) وهم في الحقيقة الجن والشياطين، ويقول "وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم في الباطن طريق إلى الله غير طريق الأنبياء" الحزب هذا أسوأ من الآخر، يعني رأوا فعلاً أن هؤلاء رجال غيب لكن يقولون هؤلاء الأولياء لهم طريق باطن عن طريق رجال الغيب وطريق في الظاهر عن طريق الرسل والأنبياء ولهذا زعموا أن النصوص لها ظاهر وباطن. "وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارج عن دائرة الرسول فقالوا: يكون الرسول ممد لطائفتين فهؤلاء هم معظمون للرسول جاهلون بدينهم وشرعه" الحزب الثالث وللأسف ما استطاعوا أو ما تجرؤوا أن هناك ولي لله عز وجل أو صالح يمكنه أن يخرج عن دائرة شريعة النبي صلى الله عليه وسلم لكن قالوا أن الرسول أصلاً ممد لهؤلاء أهل الظاهر الذين هم عامة الناس وأيضاً لأهل الباطن لهؤلاء الأولياء فطريقهم عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم فهؤلاء معظمون للرسول لأنهم ما جعلوا أحداً يسعه الخروج عن دائرة الرسول صلى الله عليه وسلم لكنهم جاهلين بدينه وشرعه لأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لعموم الناس وظاهرها وباطنها سواء ليس هناك أشخاص لهم شريعة خاصة ودعوة خاصة وأمور خاصة، لا، شرع النبي صلى الله عليه وسلم أتى به للجميع للعالم والعامي للأمة وغير الأمة، يقول "الحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين-أي أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم يخاطبون ويتعاملون مع رجال الغيب أنهم أتباع للشياطين لا أكثر ولا أقل وأن الشياطين هي التي تخدمهم- وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} نعم هم سموهم رجال ولكن يبقون جن وشياطين لا يخدمونهم إلا بعد أن يتقربوا لهم بأنواع من القرايين.

الحلقة (٣٨)

يقول: "والا فالإنس يؤنسون أي يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنسي أحياناً ولا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنسان- سمي الإنسي لأنه يؤنس ويُشاهد ويُجالس بخلاف الجن الذي مستتر عن الأنظار. يقول- وافتراق هذه الأحزاب الثلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن"، يعني هؤلاء التبس عليهم أمر هؤلاء فما يعرفون منهم أولياء الشيطان من أولياء الرحمن، وإلا فالواقع فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يخاطبون رجال الغيب هم من أولياء الشيطان وليسوا من أولياء الرحمن، هم من حزب الشيطان.

يقول: "ويقول بعض الناس: الفقراء يُسلم إليهم حالهم، وهذا كلام باطل" لاشك، الفقراء أي فقراء الصوفية درجة من درجات التصوف يُسلم لهم حالهم أي لا يسألون عن فعلهم وهذا كلام باطل لأن الجميع يجب أن تعرض حاله على الكتاب

والسنة وعلى هدي النبي صلى الله عليه وسلم وعلى شرع النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال المؤلف استدل على رد قول هؤلاء أن النبي صلى الله عليه وسلم، "قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) وفي رواية (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، فلا طريقة إلا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم - أي ما هناك طريقة ولا شريعة ولا منهج ولا سبيل إلا طريقة النبي صلى الله عليه وسلم - ولا حقيقة إلا حقيقته ، ولا شريعة إلا شريعته ، ولا عقيدة إلا عقيدته . ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وإلى جنته إلا عن طريقه ، إلا بمتابعته - إلا بهدية عليه الصلاة والسلام - في الظاهر والباطن، ومن لم يكن له مصداقاً في ما أخبر ملتزماً لطاعته فيما أمر، في الأمور الباطنة التي في القلوب أو الأعمال الظاهرة التي هي على الأبدان لم يكن مؤمناً فضلاً أن يكون ولياً. الآن يزعمون أن هؤلاء أولياء الله عز وجل المؤلف يقول هذا ليس بمؤمن؛ بل المؤمن من يستسلم للنبي صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً في أعماله وفي قلبه عقيدةً وشريعةً وسلوكاً. ثم ذكر أن حال هؤلاء الذين يزعمون إنهم غير ملزمين بالنبي صلى الله عليه وسلم في الباطن، أن هؤلاء واقع الأمر متبعون للشياطين توحى إليهم أوليائهم من الجن .

◀ اعتقاد الولاية في بعض البله بدعة وضلال :

ثم ذكر " أن من اعتقد في بعض البله والمولعين مع ترك متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله انه من أولياء الله - بأن يعتقد في أنواع من هؤلاء السذج إنهم أولياء الله عز وجل - ويفضله على متبعي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو ضال مبتدع ".

يقول: من اعتقد أن هؤلاء البله أفضل من هؤلاء الملتزمون بهدي النبي صلى الله عليه وسلم الملتزمون بسنته صلى الله عليه وسلم. يقول: فهو مخطئ في اعتقاده، فإن ذلك الأبله إما أن يكون شيطاناً زديقاً ، هذا الأبله الذي تظاهر بالسذاجة وكذا هو للأسف عند بعض طوائف من الصوفية هذا ولي من أولياء الله عز وجل .

يقول : " أما أن يكون شيطاناً زديقاً أو زُكُرياً متحياً - يعني مصاباً في عقله - أو مجنوناً معذوراً ، فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله " يعني من ظلال الصوفية إنهم يفضلون هؤلاء الأنواع هؤلاء الذين أحياناً يُعدون من المجانين ، يفضلونهم على هؤلاء المتبعين لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ولهدية. يقول لا يجوز هذا عقلاً ولا شرعاً أن يُفَضَّلوا ، لا يجوز أن يُساووا فضلاً أن يُفَضَّلوا عليهم .

يقول: " بل الواجب متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً - ثم ذكر أثراً - عن يونس بن عبد الأعلى الصلبي قال: قلت للشافعي أن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء فلا تعتبروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة - بمعنى رأيت على يديه بعض هذه الخوارق لا تعتبروا به حتى تعرضوا منهجه وعبادته وعقيدته على الكتاب والسنة - قال الشافعي: قَصَّرَ الليث رحمه الله بل إذا رأيت الرجل يمشي في الماء أو يطير حتى في الهواء فلا تعتبروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، يقول: أما ما يقوله بعض الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها البله فهذا لا شك حديث لا يصح - حديث موضوع - بل ذكر أن الجنة لأولي الألباب - أصحاب العقول - كما قال الله عز وجل وكما قال رسوله صلى الله عليه وسلم، نعم النبي صلى الله عليه وسلم - قال: (اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء)، ولم يقل البله - هذا هو الحديث الصحيح - وطائفة الملامية " وهم طائفة من طوائف الصوفية، هؤلاء يفعلون في الظاهر المنكرات لأجل أن يلومهم الناس بزعمهم وهم مؤمنون مطيعون في الباطن ابتعاداً كما يزعمون عن الرياء وهذا ضلالٌ وانحراف ورد الباطل بباطل آخر، بل الواجب على المؤمن أن يفعل في الظاهر ما أمره الله عز وجل به. وأن ينتهي عما

نهى الله عز وجل عنه ، ويجاهد نفسه عن أن يكون شيء من أعماله له فيه نصيب للخلق . يعني يبتعد عن الرياء ، لكن أن يفعل المنكرات لأجل أن يلومه الناس بحجة أن لا يراي في عمله فهذا ضلال كما قال المؤلف .

يقول : " وكذلك الذين يُصعقون أو يُصعقون عند سماع الأنغام الحسنة - قال أيضاً طوائف من الصوفية من ضلال الصوفية أنهم ربما صعقوا لما يسمعون أنواع من الأنغام - الأصوات الحسنة أو الطرب ، يقول - مبتدعون ضالون وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبباً في زوال عقله . ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك " . هذه أمور مبتدعة وضلال وانحراف ، ولم يكن هذا من هدي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . حتى لم يكونوا يُصعقون عند سماع القرآن كما ذكر المؤلف بل كانوا كما وصفهم الله عز وجل { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ولهذا قال الله تعالى { اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } هذا فُصارى فعل أصحاب النبي الذين أمرنا الله عز وجل بأن نقتدي بهديهم وأن نقتفي أثرهم، ما كانوا يُصعقون عند سماع القرآن فضلاً عن أن يُصعقوا عند سماع الأصوات الحسنة أو الأنغام أو نحو ذلك كما يفعله هؤلاء الضالّال .

يقول: " وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين فأولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم " . نعم هناك أناس كانوا فيهم خير وهُدى وعلى ثقی ثم حصل لهم سبب من الأسباب فزالت عقولهم فهؤلاء رُفع القلم عنهم فإذا رجعت عقولهم رجع إليهم إيمانهم الذي كانوا عليه .

ولهذا يقول : " فإذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان ، ويهتدون بذلك في حال زوال عقولهم بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل لهم نوع إفاقة بالكفر والشرك " . هؤلاء الذين على الضلال والانحراف والكفر والشرك في قلوبهم فإذا زالت عقولهم بهذه الأسباب التي يستجلبونها بطرق مبتدعة فإذا زال هذا تكلموا بهذا الشرك وهذا النفاق والزندقة التي في قلوبهم ،

إلى أن قال المؤلف " وما يحصل لبعضهم - أي هؤلاء الصوفية ، وهذه أيضاً حال من أحوال هؤلاء المبتدعة من ضلال الصوفية - عند سماع الأنغام المطربة من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانهم المعروف منه فذلك شيطان يتكلم على لسانه " . يعني إذا سمع عندهم أنواع يسمونها من بدعهم التواجد أو الوجد ربما ضربوا الدفوف وغنوا الأغاني والأصوات المطربة فحصل عندهم تواجد وصعق ربما تكلم ، يعني رأيت من أحوالهم كحال المجانين ربما تكلم بعضهم بكلام فيه نوع من الهذيان يقول المؤلف في الواقع أن الذي يتكلم ليس هو بل يتكلم الشيطان أو الجني على لسانه . يقول فذلك شيطان يتكلم على لسانه .

" كما يتكلم على لسان المصروع وذلك كله من الأحوال الشيطانية - وليست من الأحوال الرحمانية . نعم هي من الأحوال الشيطانية وليست دليل على أن هذا ولي من أولياء الله عز وجل بل دليل على أنه ولي من أولياء الشيطان - وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أو تقريباً إلى ولاية الله عز وجل " هؤلاء يتقربون إلى الله عز وجل ويرون أن كونك ترتقي في درجات الولاية أن تصل إلى درجة زوال العقل وهذا عين الضلال .

يقول: " هذا كلام ضال بل كافر يظن أن للجنون سراً يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من مكاشفة أو تصرف عجيب خارق للعادة - كل هذا موجود عند الصوفية بسبب انحرافهم عن المنهج الصحيح - من أعتقد هذا فهو كافر فقد قال تعالى { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } في واقع الأمر أن الشياطين لا تنزل ولا تخدم إلا كل

أَفَاكٍ أَثِيمٍ} وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} يقول فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد أن يكون عنده كذب وفجور .

يقول : " وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات -وهذه أيضاً أحوال وصفات ومناهج بعض الصوفية أنهم يتقربون إلى الله عز وجل ويتعبدون إلى الله عز وجل بأنواع من الرياضات وبأنواع من الخلوات والبعد عن الناس والانقطاع إما في الصحراء أو في بعض الأديرة والبيع يسمونها أربطة، ينقطع عن الناس تماماً ويترك الجمعة والجماعات، يقول: "فهم من {الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} لأن هذا لم يكن من هدي النبي صلى الله عليه وسلم ويترتب على هذا أيضاً ترك الجمع والجماعات ولهذا ذكر المؤلف "أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عُذر طبع الله على قلبه) وهؤلاء ربما مكث الواحد منهم السنة والسنتين و الأشهر لا يشهد الجمعة ولا الجماعات ويزعم أنه يتعبد الله عز وجل بهذا الأمر، ثم قال: "وكل من عدل عن إتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان عالماً بها فهو مغضوب عليه وإلا فهو ضال" كل من اختار طريقاً وهدياً غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم هو عالم بها فإما أن يكون من المغضوب عليهم كما قال الله عز وجل في نهاية سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}

يقول : " شَرَعَ اللهُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَهْدِيََنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، أما من يتعلق بقصة موسى والخضر عليهم السلام "، بعض غلاة الصوفية يزعم انه يصل إلى درجة بأن لا يكون ملزوم بإتباع النبي صلى الله عليه وسلم وان له هدي وشريعة تخالف شريعة النبي صلى الله عليه وسلم . ويحتج بقصة الخضر ، فالخضر يقول: ولي من أولياء الله عز وجل ولم يكن ملزم باتباع شريعة موسى عليه السلام ، وهذا لاشك انه ضلال وانحراف وكفر بالله عز وجل . لماذا ؟

هو يقول : " في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني " بمعنى يقول: إن الله عز وجل وهبني علماً من لدن نفسي أستغني بهذا العلم عن إتباع الوحي الذي هو شرع النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول: " الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق . فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر-نعم الخضر لم يكن ملزم بإتباع موسى عليه السلام لأنه لم يكن مبعوثاً إليه . ولهذا كان النبي في الأمم السابقة يُبعث إلى قومه خاصة . ولهذا نقل المؤلف عن الخضر-ولم يكن الخضر مأموراً بالمتابعة ، ولهذا قال الخضر لموسى : أنت موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم . أما محمد صلى الله عليه وسلم فهو مبعوث إلى جميع الثقلين ولو كان موسى وعيسى حين لكانا من أتباعه . وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض إنما يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فمن ادعى أنه مع محمد صلى الله عليه وسلم كالخضر مع موسى عليه السلام، أو جَوَّزَ ذلك لأحدٍ من الأمة فليجدد إسلامه " . يعني من زعم أن هناك مخلوق يسعه الخروج عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فليجدد إسلامه بمعنى انه مرتد . لأن الله قال للنبي صلى الله عليه وسلم {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} فكل هذه الآيات صريحة في أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الجميع ولا يسع أحداً الخروج عن شريعته. ولهذا قال في الحديث الذي صح في صحيح مسلم قال: (لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) يقول فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلاً عن أن يكون ولياً من أولياء الله . هؤلاء الضلال و

الْجُهَّالَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَؤُلَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَسْعَهُمُ الْخُرُوجُ عَنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَقُولُ: "بِأَنَّ الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِرِجَالِ مَنْهُمْ حَيْثُ كَانُوا" وَهَذَا أَيْضاً مِنَ الْخَزَعِلَاتِ وَضَلَالِ الصُّوفِيَةِ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي بَعْضِ أَوْلِيَائِهِمْ وَمُقَدِّمِيهِمْ وَأَتَمَّتْهُمْ أَثْمَةُ الضَّلَالِ لِمَا قِيلَ لَهُمْ لِمَاذَا هَؤُلَاءَ مَا يَذْهَبُونَ وَيَحْجُونَ كَمَا يَحْجُ النَّاسُ وَيَعْتَمِرُونَ كَمَا يَعْتَمِرُ النَّاسُ، بِمَعْنَى يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُجِّ وَالْعَمْرَةِ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ أَصْلَ الْكَعْبَةِ تَأْتِي وَتَطُوفُ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ مَنْ أَنْ يَذْهَبَ لِلْكَعْبَةِ، الْكَعْبَةُ تَأْتِي وَتَطُوفُ بِهِ .

ولهذا قال المؤلف: "فهلّا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله صلى الله عليه وسلم حين أحصر عنها وهو يود منها نظرة" النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء عام الحديبية ويريد الدخول ومنعه المشركون وكان يود -يتمنى- أن ينظر إليها فقط . هلّا خرجت إليه الكعبة وطافت به وهو أعظم الأولياء . وأعلى قدراً وأشرف قدراً .

يقول: " هَؤُلَاءَ لَهُمْ شَبَهٌ بِالَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً} بمعنى انه يريد ان يكون له منزلة مثل منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم أو مكانة أعظم من منزلة النبي صلى الله عليه وسلم وأن يوحى إليه كما يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

◀ الجماعة حق والفرقة زيغ :

يقول: "قوله: ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً"، انتهى الكلام على بعض أحوال الصوفية وبعض صفاتهم وبعض خزعبلاتهم وخرافاتهم، وأنقل يتكلم على مسألة جديدة وهي مسألة الجماعة والنهي عن الفرقة. ذكر الشارح عدة نصوص تدل على وجوب الاعتصام بحبل الله جميعاً وعدم التفرق قال تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على وجوب الاجتماع، وذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد سبق الإشارة إليه أنه ذكر أن اليهود اختلفت على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنتين وسبعين وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، وذكر انه قال كلها في النار إلا واحدة في رواية هي الجماعة وفي رواية أخرى هي من كان على مثل ما كنت عليه اليوم وأصحابي، وذكر حديث إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاردة القاصية، بمعنى الذي يبتعد عن الجماعة

يقول: " وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ} قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ {أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} قَالَ: هَاتَانِ أَهْوَنُ " فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعضاً وحصل هذا وإن كان على غير ما أراد النبي صلى الله عليه وسلم وعلى غير ما يجب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر بعض النصوص الدالة على وجوب الاجتماع وعدم التفرق .

◀ وجوب رد المسائل المتنازع فيها إلى الله ورسوله :

يقول: " وهكذا مسائل النزاع التي تنازعت فيها الأمة في الأصول والفروع يعني في مسائل الأصول ومسائل الفروع إذا لم تُرد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق " . يقول أي مسألة من مسائل الأصول والفروع إذا لم يُرد فيها الأمر إلى الله وإلى رسوله أي إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم لم يظهر ولم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم والواقع شاهد على ذلك فأهل الضلال والانحراف وأهل الأهواء اختلفوا فيما بينهم لأنهم لم يُردوا ما تنازعوا فيه إلى الله

ورسوله . وكذلك حتى في مسائل الفروع إذا اعتمد الإنسان على رأيه وقياسه واجتهاده دون الرجوع إلى الكتاب والسنة فهو في أمرٍ مريج بمعنى في تنازع واختلاف .

يقول : " فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول صلى الله عليه وسلم إمّا عادلون وإمّا ظالمون، فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره " . يقول الناس تجاه ما بعث الله به الرسول إمّا عادلون وإمّا ظالمون إذا خفي عليهم ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فالعادل هو الذي يعمل بما ثبت عنده ولا يظلم غيره ، والظالم هو الذي يعتدي على غيره وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} بمعنى أن هذا العلم ما زادهم إلا ظلماً وبغياناً على بعضهم البعض .

يقول: "والأفلاسلو سلكو ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً كالمقلدين لأئمة العلم الذين يعرفون عن أنفسهم إنهم عاجزون عن معرفة حكم الله عز وجل"، ليس الناس على طبقة واحدة من العلم والمعرفة والإدراك، ولهذا إذا كان الإنسان ليس له القدرة في الاجتهاد والنظر في الأدلة فعليه أن يقلد من يثق في علمه وتقواه من هؤلاء الأئمة ولا يظلم غيره المخالف له .

يقول: "ثم أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان-يعني أنواع الخلاف وهذا الكلام نقله رحمه الله عن شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم-اختلاف تنوع واختلاف تضاد، واختلاف التنوع له وجوه وصور منها الوجه الأول أن يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً". يعني نلاحظ أن الاختلاف إمّا أن يكون اختلاف تنوع يعني الاختلاف بين أهل العلم، اختلاف تنوع هذا مخالف لهذا بسبب أن هذا متبع لنوع من السنة و هذاك متبع لنوع من السنة هذا يقول بإحدى القراءات والثاني يقول بالقراءة الأخرى وكلاهما مصيب . هذا صورة من صور اختلاف التنوع

ولهذا يقول: "كما في القراءات التي اختلفت فيها الصحابة رضي الله عنهم حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: كلا كما محسن" يعني هنا ما فيه إشكال كونك تأخذ مثل أدعية الاستفتاح في أول الصلاة وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ مختلفة هذا يأخذ بصيغة وهذا يأخذ بصيغة ، إذاً أنواع الخلاف فيها لا يضر، وكذلك صيغ الأذان وصيغ الإقامة .

الحلقة (٣٩)

◀ تنمة مسألة الخلاف والفرقة :

توقفنا فما مضى في الحلقة الماضية على الكلام في مسألة الاختلاف وأن الاختلاف نوعان :

١ / اختلاف تنوع ٢ / اختلاف تضاد

وذكر المؤلف إن اختلاف التنوع أيضاً على وجوه ذكر منها ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما هي الحال في مسألة اختلاف الصيغ في دعاء الاستفتاح أو اختلاف القراءات ونحو ذلك .

◇ الوجه الثاني من اختلاف التنوع :

يقول : " منه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر لكن العبارتان مختلفتان -يعني المؤدى واحد لكن هذا عبر بلفظ وذاك عبر بلفظ آخر -كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود -هذه في مسائل الفقه - وصوغ الأدلة والتعبير عن المسميات- يعني هذه يسميه بهذا الاسم وذاك يسميه باسم آخر فلا يضر هذا اختلاف تنوع لأن النتيجة والنهاية واحدة - ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد أحد المقاتلين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها" يعني الظلم هنا والإشكال كون الإنسان يعتدي على صاحب المقالة الأخرى وهي في واقع الأمر هي قوله لكن هذا عبر عنها بلفظ وذاك عبر

عنها بلفظ آخر؛ أو يعيب على شخص قال بسنة وهو يقول بسنة والواقع أن السنة ثبتت بالصيغتين فهذا هو الذي يذم .
يقول : " وإما اختلاف التضاد -النوع الثاني من أنواع الاختلاف- فهو القولان المتنافيان إما في الأصول وإما في الفروع
عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد - اختلاف التضاد أن يكون أحد القولين صواباً والآخر خطأ القول الثاني
مخالف تماماً للأدلة والقول الأول موافق للأدلة - والخطب في هذا أشد^(١) ، لأن القولين يتنافيان لكن نجد كثير من هؤلاء
هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حقاً ما "يعني يقول قد يلاحظ أن الشخص الذي يقول بالقول الباطل
لا يكون القول الذي معه باطل صرف، بل لا بد أن يكون غالباً معه حق والإشكال أن يجحد الإنسان هذا القول الحق
والباطل فالواجب العدل أن تقبل ما مع هذا من الحق وإن ترد الباطل، يقول: قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه
"حق ما أو معه دليل يقتضي حقاً ما فيرد الحق مع الباطل" كونه يرد هذا الكلام جملة وتفصيلاً رد الحق والباطل وهنا
يكون الظلم والبغي ، طبعاً ذكر أن هذا يجري كثيراً لأهل السنة يقول بعض أهل السنة ومن لم يوفق للمنهج الصحيح في
التعامل مع المخالف هو الذي يرد هذا الكلام جملة وتفصيلاً حقه وباطله إذا ظهر أنه باطل والصحيح والعدل أنك تقبل
الحق وترد الباطل كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أبا هريرة لما أشار عليه الشيطان بقراءة آية الكرسي قال صدقك
وهو كذوب فالحق يقبل ممن جاء به

يقول: " وأما أهل البدعة فالأمر فيهم ظاهر ومن جعل الله له هداية ونوراً ، رأى من هذا ما يبين له منفعة ما جاء في
الكتاب والسنة من نهيه عن هذا وأشباهه وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا لكن نور على نور " نعم يقول والأمر مع
أهل البدع أعظم وأعظم هم الذين أحياناً يحملهم الهوى على رد الحق وإن علموه أتباعاً لمعظمهم وأئمتهم .

يقول : "والاختلاف الأول الذي هو اختلاف التنوع، الذم فيه واقع على من بغي على الآخر فيه" اختلاف التنوع يذم على من
بغى على الآخر وظلم الآخر فقط "وقد دل القرآن على حمد كل واحدة على الطائفتين من مثل ذلك "يقول اختلاف التنوع ما
فيه إشكال، يمدح هذا ويمدح هذا ويثنى على هذا ويثنى على هذا وإنما الذي يذم أن تبغى إحدى الطائفتين على الأخرى كما
في قوله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ...}

وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار فقطع قوم وترك الآخرون فأثنى الله عز وجل على الطائفتين
" وكذلك ذكر قول الله عز وجل : {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَاهِدِينَ} {٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا... {٧٩}، فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم وكما
في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة " النبي
صلى الله عليه وسلم في يوم بني قريظة قال: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) فانطلقا الصحابة أدركتهم صلاة
العصر قبل أن يصلوا إلى بني قريظة فاختلفوا فبعضهم قال نقف ونصلي العصر لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا فقط
بالاستعجال لكن حضرت الصلاة نصلي قال الآخرون لا النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تصلوا العصر إلا في بني قريظة لا
نصليها إلا في بني قريظة في أي وقت فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعنف هؤلاء ولم يعنف أولئك .

يقول : " وكما في قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر).
والاختلاف الثاني -الذي هو اختلاف التضاد- هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وذمت الأخرى- تحمد المصيبة المتبعة للحق
وتذم المخالفة للحق -كما في قوله تعالى : {... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ

(١) تم تصحيحها من المرجع

{اٰخْتَلَفُوْا فَمِنْهُمْ مَّنْ اٰمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ...} - ولهذا اثنى الله عز وجل على إحدى الطائفتين وذم الأخرى - وقوله تعالى: {هٰذَانِ خَصَمَانٍ اٰخْتَصَمُوْا فِي رَّبِّهِمْ فَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ...} ، -إذا طائفتان - وأكثر الاختلاف الذين يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول-اختلاف النوع يقول أكثر الاختلاف الذي حصل ووقع فيه،افترقت الأمة فيه إلى فرق هو من اختلاف النوع الذي كان الواجب أن يقبل الحق ممن جاء به ويرد الباطل-وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لان إحدى الطائفتين لا تعترف بالأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك ولذلك تجد جعل الله مصدره البغي في قوله تعالى: {وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيْهِ اِلَّا الَّذِيْنَ اُوْتُوْهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...} ، جاءتهم البيات جاءهم الحق لكن حملهم البغي على ذم الطائفة الأخرى .

يقول : " لأن البغي مجاوزة الحد وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة ، وقريب من هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين عن أبي زناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(ذروني ما تركتكم فإنما اهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبياءهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)- يعني لا تختلفوا ولا تتفرقوا - فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمر به معللاً أن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية"

◀ الاختلاف في الكتاب :

يقول : " ثم الاختلاف في الكتاب من الذين يقرؤون به على نوعين أحدهما اختلاف في تنزيله والثاني اختلاف في تأويله وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض "

يقول الاختلاف في كتاب الله عز وجل اختلفت الأمة فيه إلى نوعين من الاختلاف :

النوع الأول : اختلاف في التنزيل. النوع الثاني : اختلاف في التأويل.

يقول : " فالأول:كاختلافهم في تكلم الله في القرآن وتنزيله " وهذا سبق الكلام عليه هل الله عز وجل تكلم في القرآن ابتداءً أم خلقه كما زعمت الجاهلية والمعتزلة، هل هو حروف وأصوات كما قال عنه أهل السنة أم هو معنى قائم بالنفس كما قالت الأشاعرة والكلابية نعم فهذا هو الاختلاف في تنزيله ذكر وتقدم الكلام عليه .

يقول: " وأما الاختلاف في تأويله الذي يتضمن الإيمان في بعضه دون بعض-في تأويله أي في معناه، الاختلاف الأول في التنزيل الثاني الاختلاف في المعنى والحقيقة-فكثير كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية فكأنما فُقيء في وجهه حب الرمان يعني من الغضب فقال: أ بهذا أمرتم أم بهذا أؤكلتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتهم عنه فانتهوا)". وذكر الحديث وروايات الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عليهم هذا الأمر وأمرهم باتباع ما بلغهم وترك ما نهوا عنه وما لا يعلمونه .

يقول:"وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله يؤمنون ببعض دون بعض يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات وما يخالفه أما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون فيه الكلم عن مواضعه،وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه" ، يقول أهل البدع قاطبة اختلافهم في التأويل يؤمنون ببعضه دون بعض يؤمنون بما وافق أهواهم وما يذهبون إليه والآيات والنصوص التي تخالف رأيهم ومذهبهم لهم في ذلك منهجان :

المنهج الأول: التأويل: يصرفون هذا المعنى عن ظاهره إلى معنى بعيد والتأويل كما سبق أن عرفتوه صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى احتمال مرجوح أو صرف اللفظ عن معناه القريب إلى معناه البعيد .

◈ **مثل :** استولى ، ينزل ربنا : ينزل أمره ، وجاء ربك : وجاء أمره ، هذا تأويل فهم إذا خالف هذا النص هذه الآية ما ذهبوا إليه أولوه .

المنهج الثاني: لا يؤولونه لا يصرفونه عن ظاهره لكن يزعمون أن هذا من المتشابه الذي لا يعلم أحد معناه ولهذا لا يستدلون به أو لا يستدلون به على ما ذهبوا إليه ولا يقبلون به .

يقول: "فيجحدون ما أنزل الله من معانيه وهو في معنى الكفر بذلك-يعني رده هو حقيقة الأمر رد هذا النص رد هذه الآية فمؤداه يفعلون كما يفعل الكفار مع نصوص القرآن-لأن الإيمان باللفظ بلا معنى فهو من جنس إيمان أهل الكتاب-يعني كونك تؤمن باللفظ دون المعنى كحال أهل الكتاب الذين قال الله فيهم - {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...} ، وكما قال تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي} ، هو في واقع الأمر رد للكتاب.

يقول: " أي : إلا تلاوة من غير فهم لمعناه وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به ، واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله عز وجل "المؤمن يؤمن بجميع القرآن ويصدق بجميع القرآن ويصدق بجميع الآيات يعمل بالمحكم لما ظهر أما المتشابه فيكل علمه إلى الله عز وجل فإن رده إلى المحكم وتبين له عمل به وإن لم يتبين له وكل علمه إلى الله عز وجل .

◈ **مثلا :** كيفية الصفات {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} نثبت الاستواء لان الدليل ظاهر في استواء العرش والآية تدل على أن الله عز وجل يوصف بأنه مستوٍ على العرش ، كيف استوى هذا من المتشابه فيكون علمه إلى الله .

يقول: "كما أمره النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (فما عرفتم منه فاعملوا به - هذا وصية النبي صلى الله عليه وسلم - وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه)" نرده إلى أهل العلم علموه الحمد لله ما علموه نرده إلى عالمه عالم الغيب عالم السر وأخفى الله عز وجل . يقول : فامتثل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا هو منهج أهل السنة

◀ الإسلام هو دين الله وهو واحد في الأرض والسماء :

قوله : " قول الطحاوي "ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام" قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} ، وقال تعالى {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} وهو بين الغلو والتقصير وبين التشويه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الأمن واليأس " نعم المؤلف هنا الآن يذكر أن دين الله عز وجل هو دين الإسلام والذي هو منهج أهل السنة والجماعة أنه دين وسط وعقيدة وسط لا إفراط ولا تفريط، لا تقصير ولا غلو ولهذا يتضح أنه في مثل في الصفات بين التعطيل والتشبيه في القدر بين الجبر والقدر وهكذا في الأوامر والنواهي بين الأمن واليأس يقول ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد) ، وقوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} ، فدين الأنبياء واحد بين الغلو والتقصير بين الإفراط والتفريط دين الله عز وجل هو الإسلام .

يقول: "عام في كل زمان ولكن الشرائع تتنوع" نعم تفاصيل أحكام الشرع الأصول اتفق الأنبياء عليها ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد) أصل الدين واحد أصل الشرع واحد لكن تنوع الشرائع لاشك أن لكل نبي شرعه ومنهاجا {...لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...}

يقول : " فدين الإسلام وما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على السنة رسله وأصول هذا الدين وفروعه موروثة عن الرسل

وهو ظاهر غاية الظهور يمكن على كل مميز صغير وكبير" قال أن يميز الحق فيه من الباطل .

◀ سهولة تعلم الإسلام :

يقول: "وقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلمه وأنه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم-يعني النبي صلى الله عليه وسلم اختلف أسلوبه في تعليمه لأصحابه رضي الله عنه على حسب اختلاف أو واقع أحوال من يتعلم-فإن كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة والنجدي ووفد عبد القيس علمهم ما لا يسعه جهله-علمهم أصول الإسلام وأصول الإيمان الذي يصح به إيمانهم وإسلامهم أما تفاصيل الأحكام النبي صلى الله عليه وسلم علم أن الإسلام سيتسع وسيصلهم إن شاء الله ذلك-مع علمه أن دينه سينتشر في الآفاق ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت بحيث يتعلم على التدرج أو كان قد علم فيه أنه قد عرف مالا بد منه أجابه بحسب حاله وحاجته" النبي صلى الله عليه وسلم إذ رأى أن هذا قريب يمكن أنه يتردد ويكون قريب منه يسمع منه في كل وقت، أو أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أشياء ولهذا يجيبه بحسب حاجته وحاله ولهذا لما قال له شخص: أوصني قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) الشخص الآخر قال: (أوصني قال : لا تغضب) كل بحسب حاله .

يقول: "وأما من شرع دين لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله مستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن غيره من المرسلين إذ هو باطل وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق" يقول: أي أمر لم يشرعه النبي صلى الله عليه وسلم فهو باطل لأن دين الله عز وجل

لا يؤخذ إلا من مصدر واحد بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم هو النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول: "وقوله" بين الغلو والتقصير" قال الله تعالى {قل يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ}، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ...}، وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} {٨٧} {وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} {٨٨} "فهذه أدله صريحة بالقرآن تنهى عن الغلو ثم ذكر حديث الثلاثة نفر الذين جاءوا وسألوا عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فكأنهم تقالوها وقال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا افطر وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام فقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وقال: (أما أنا فأصوم وافطر واصلي وأنام وأتزوج النساء ومن رغب عن سنتي فليس مني) فهذا دليل على أن دين الله عز وجل بين الغلو والتقصير.

يقول: " والقول بين التشبيه والتعطيل تقدم أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يوصف بما وصف به نفسه" هذا الكلام تقدم الكلام عليه أن مذهب أهل السنة بين المشبهة مذهب المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه وبين المعطلة الذين عطلوا ما يستحقه الله عز وجل من الأسماء والصفات فهم يثبتون وهذا هو دين الله إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل .

يقول: " ونظير هذا القول قوله فيما تقدم: " ولم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصيب التنزيه " وهذا المعنى المستفاد من قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} " هذه الآية جمعت بين التنزيه وبين الإثبات فهي رد على المشبهة وعلى المعطلة يقول فقلوه : {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} رد على المشبهة وقوله : {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} رد على المعطلة.

يقول: "وقوله:" بين الجبر والقدر" تقدم الكلام أيضا على هذا المعنى وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها وليست مخلوقة للعبد بل هو فعل العبد وكسب خلق الله عز وجل "أفعال

العباد ليست كما يزعم الجبرية أن العبد مجبور هو كالريشة في مهب الريح ليس له فعل البتة وليس له مشيئة ولا اختيار كما أنه ليس هو الذي يخلق فعله استقلالاً عن خلق الله عز وجل ومشية كما يقول القدرية المعتزلة فدين الله ومنهج أهل السنة لا، الفعل فعل للعبد وكسب للعبد وهو خلق لله عز وجل فجمع أهل السنة وهو دين الإسلام بين إثبات فعل العبد وبين عموم خلق الرب سبحانه وتعالى، يقول: "وهو بين الأمن واليأس" - أي دين الله عز وجل بين الأمن واليأس القنوط - تقدم أيضاً على هذا المعنى وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه راجياً لرحمته، يقول بين الرجاء والخوف {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}، {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً} فيكون الإنسان بين الخوف والرجاء تقدم الكلام أنه حال الصحة والحياة والفراغ يغلب جانب الخوف وإذ قربت وفاته حضر أجله يغلب جانب الرجاء لكنه يكون بين الأمرين كحال الطائر يطير بجناحين .

يقول: " وإن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة " وهذا هو منهج الأنبياء والرسل أنهم بين الأمن والخوف وبين الرجاء وأيضاً الرهبة والخوف من الله عز وجل قال في الختام: "قوله فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن براء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة"

الحلقة (٤٠)

◀ البراءة من الفرق الضالة :

توقفنا على قول الطحاوي في نهاية عقيدته المسماة بالعقيدة الطحاوية قوله: "فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً" إلى آخر ما ذكر قال الشارح الإشارة بقوله فهذا إلى كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا يعني كل ما ذكر في هذا الكتاب هو اعتقادنا وهو ديننا الذي ندين الله عز وجل به ظاهراً وباطناً.

المؤلف قال: "ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الرديئة - ذكر - مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا الجماعة وحالفوا الضلالة ونحن منهم براء وهم عندنا ظلال وأردياء وبالله العصمة والتوفيق"

يقول: "والمشبهة هم الذين شبهوا الله سبحانه وتعالى بالخلق في صفاته وقولهم عكس قول النصارى المشبهة هم الذين قالوا إن صفات الله مثل صفات المخلوق ويقول قائلهم: "لله يد كيد المخلوق والله مستوٍ على عرشه كاستواء المخلوق" يقول: "قولهم عكس النصارى لأن النصارى شبهوا المخلوق بالخالق وهم شبهوا الخالق بالمخلوق - تعالى الله عن قول هؤلاء جميعاً - كداود الجوارب وأشباههم - مثل بيان بن سمعان التميمي" فهؤلاء من أوائل من قال بمذهب التشبيه وانتشر مذهب المشبهة في قدماء الرافضة وأيضاً في غلاة الصوفية - يقول: "والمعتزلة" لأن المؤلف ذكر المعتزلة هم، عمرو بن عبيد وواصل ابن عطاء الغزال وأصحابهما سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري" لأن المناظرة وقعت بين واصل والحسن فاعتزل واصل حلقة الحسن فقال الحسن: "اعتزلنا واصل" فاعتزلوا جماعة المسلمين فسموا معتزلة، "في أوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره: "أولئك المعتزلة" وذكر في سبب التسمية قولاً آخر.

يقول: "فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل - العلاف من أئمة المعتزلة - كتابين وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على أصول المعتزلة الخمسة التي هي سموها - وأطلقوا عليها - العدل والتوحيد وإنفاذ الوعد والوعيد ومنزلة بين منزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولبسوا فيها الحق بالباطل" بما إن ظاهرها يدل على الحق وكما سيأتي باطنها ومضمونها

متضمن للباطل

يقول: " وهم مشبهة الأفعال - لماذا سموا مشبهة الأفعال ؟ - لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده ولهذا جعلوا ما يحسن من العبد يحسن من الله عز وجل وما يقيح من العبد يقيح من الله عز وجل - ولهذا شبهوا أفعال الله بأفعال العباد فسموا مشبهة الأفعال - وقالوا: " يجب عليه أن يفعل كذا - أي يجب على الله أن يفعل كذا لأن عقولهم اقتضت هذا الأمر - ولا يجوز له أن يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد فإن السيد من بني آدم لو رأى عبده تزني بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعد إما مستحسنًا للقبيح وأما عاجزا فكيف يصح قياس أفعاله سبحانه وتعالى على أفعال عباده والكلام على هذا المعنى تقدم ومبسوط في موضعه "

*** والشاهد :** أنهم قاسوا أفعال الخالق على أفعال المخلوق

يقول: "فأما العدل - يعني ماذا ستروا تحت أصل العدل عندهم؟ - فستروا تحته نفي القدر وقالوا: أن الله عز وجل لم يخلق فعل العبد - لماذا قالوا؟ لأن هذا مقتضى العدل كيف يخلق الله فعل العبد ثم يحاسبه أو يعاقبه عليه ولهذا سموا هذا الأصل نفي القدر العدل - وأما التوحيد عندهم فستروا تحته القول بخلق القرآن - يعني أن القرآن ليس منزل وان الله لم يتكلم بالقرآن - إذ لو كان غير مخلوق أي القرآن للزم تعدد القدماء - فبناءً عليه لم يكن هناك توحيد فالقول بخلق القرآن يزعمون انه هو الذي يؤدي إلى التوحيد - ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة او التناقض" الشيخ هنا أشار بسرعة إلى شيء من إلزام هؤلاء الذين زعموا أن القرآن مخلوق لأجل أن لا يستلزم الأمر تعدد القدماء أيضا العلم قالوا علم الله عز وجل مخلوق وقدرته مخلوقه وعلى كل حال هذا الكلام تقدم سابقا .

يقول: "وأما الوعيد" يعني أصل الوعيد عندهم "فقالوا: إذا أوعد بعض عبده بوعيد فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده {وَلَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ} فلا يعفوا عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد منهم" بمعنى أنهم ستروا تحت هذا الأصل أن مرتكب الكبيرة إذا مات على كبريته فهو خالد مخلد في النار لأن الله توعده ولا يجوز أن يخلف وعيده ولهذا سموا بالوعيدية .

يقول: "وأما المنزلة بين المنزلتين فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر" أصل المنزلة بين المنزلتين أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر فهو في منزلة بين المنزلتين فعندهم أن من الأصول التي يجب الإيمان بها أن تعتقد أن من ارتكب كبيرة انه ليس بمؤمن ولا كافر.

يقول: "وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنهم ستروا تحته - أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وان نلزمه بما يلزمنا وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا" لأنهم يعتبرون الجور مخرج من الإيمان فيجب الخروج على الأئمة فستروا تحت هذا الأصل وجوب الخروج على الأئمة.

يقول: "وقد تقدم جواب هذه الشبهة الخمس في مواضعها ، وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية إنما يذكرونها للاعتضاد بها لا للاعتماد عليها" المؤلف يشير إلى شيء من منهج هؤلاء المعتزلة أنهم في مسألة التوحيد ومسألة العدل أنها عندهم مسائل عقلية يعني يستدل عليها ولها بالعقل فقط أما السمع فإذا ورد السمع بشيء من الأدلة عليها فهم يأخذونها للاعتضاد لا للاعتماد يعني لا يعتمدون على هذه الأدلة والأصل في إثباتها عندهم هو العقل أو دلالة العقل، أما إذا جاءت دلالة السمع فهو من باب تحصيل الحاصل .

يقول: "فهم يقولون لا تثبت هذه بالسمع بل العلم بها مقدم على العلم بصحة النقل فمنهم من لا يذكرها في الأصول إذ لا فائدة فيها عندهم ومنهم من يذكرها لموافقة السمع للعقل" يعني لا يذكر هذه الأدلة التي جاءت في إثبات ما ذهبوا إليه إلى

آخر ما ذكره حول هذه المسألة يم مسألة أنهم لا يأخذون السمع إلا من باب الاعتضاد لا من باب الاعتماد.

ثم انتقل إلى الكلام على الجهمية

قال: "والجهمية هم المنتسبون للجهم بن صفوان" لأن الشيخ ذكر الجهمية طائفة أو فرقه من الفرق الضالة من أهل البدع سماوا جهمية لأنهم منتسبون إلى الجهم بن صفوان الترمذي

يقول: "وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل" ليس هو أول من قال بنفي الصفات لأن - أول من قال بنفي الصفات هو الجعد بن درهم الذي قتله خالد القسري وهو أول من نفى عن الله عز وجل صفة الخلة والتكليم لكنه لم يظهر هذا المذهب ولم يدعوا الناس إلى هذا المذهب فتلقف هذه المقولة الجهم بن صفوان فنشرها وادعى الناس إليها فنسبت مقالة التعطيل إلى الجهم بن صفوان، ولهذا يقول: "هو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط" وهذه القصة مذكورة في كتب الأئمة ك كتاب خلق أفعال العباد للبخاري وكالإبانة لابن بطة وكشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، وغيرهم من كتب التاريخ في أنه خطب الناس في يوم عيد الأضحى والقصة معروفة أنه لما الجعد ابن درهم زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا خطب الناس خالد بن عبد الله القسري وكان واليا آنذاك، ثم قال: "أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم فإنه يزعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا فنزل فذبحه"

يقول المؤلف: "وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السلف الصالح رحمهم الله وكان جهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوما شاكاً في ربه" هو ناظر- كما ذكر الإمام أحمد وغيره- طائفة من طوائف الهند يقال لهم السمنية فشككوه في وجود الله عز وجل وهؤلاء من السفسطائيين الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات فقالوا له: هل رأيت ربك؟ هل لمست ربك؟ هل شممت ربك؟ إلى آخر ما قالوا فأحتجب عن الناس شاكاً في ربه سبحانه وتعالى لأنه ناظرهم ولم يكن عنده علم فخرج إلى الناس بعد أربعين يوما بعد أن ترك الجمعة والجماعة وخرج إليهم بهذا المذهب الفاسد، وذكر المؤلف قصته مع السمنية، يقول: "وقد قيل إن الجعد كان قد اتصل بصابئة الفلاسفة من أهل حران" بالطبع حران كما ذكر أهل العلم كانت موطن للفلاسفة والصابئة الذين كانوا يعظمون الكواكب ويعبدون الأجرام السماوية ويبنون لها الهياكل يقال أن الجعد اتصل بهم وناظرهم وجالسهم فتأثر بمذهبهم.

يقول: "وأنه أيضاً أخذ شيئاً عن بعض اليهود المحرفين لدينهم المتصلين بلبيد بن عاصم الساحر الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم فقتل جهم بخراسان" نعم هناك ذكر ابن كثير وغيره أن الجهم أخذ مقالته عن الجعد، والجعد أخذها عن بيان بن سمعان، وبيان بن سمعان أخذها عن طالوت، وطالوت هو ابن أخت لبيد بن أعصم أخذها عن لبيد بن أعصم، ولبيد بن أعصم هو اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول: "فقتل جهم بخراسان قتله سلم ابن أحوز ولكن كانت قد فشت مقالته في الناس وتقلدها بعده المعتزلة يعني أن المعتزلة أخذوا بعض مقالته وهي القول بتعطيل الصفات فتنبوا هذا المذهب ولكن كان الجهم أدخل في التعطيل منهم لأنه ينكر من الأسماء حقيقة وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات" يعني فرق بين الجهمية والمعتزلة أن الجهمية ينكرون الأسماء والصفات جملة وتفصيلاً وأما المعتزلة فإنهم ينكرون الصفات ويثبتون الأسماء.

يقول: "وقد تنازع العلماء في الجهمية هل هم من الثنتين وسبعين فرقه؟ أم لا"، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة) هل الجهمية تدخل ضمن هذه الثنتين وسبعين حكى

اللالكائي عن أكثر من خمسمائة عالم الحكم بكفر هذه الطائفة وأنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقه .

يقول: "وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة فإنه من إمارة المأمون قووا وكثروا" لأن المأمون نصرهم وانتصر لقولهم ولهذا أودى الإمام أحمد بسبب ذلك" إلى آخر ما ذكر المؤلف حول مسألة الجهمية وأثر الجهمية والمعتزلة في الأمة.

يقول: "ومما انفرد به جهم- يعني عن بقية الطوائف وأهل الضلال والانحراف مما انفرد به- قوله أن الجنة والنار تفتيان - وتقدم الكلام على هذا- وأن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل -يقول حقيقة الإيمان أن تعرف الله عز وجل بقلبك والكفر أن تجهل الله عز وجل بقلبك -وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله عز وجل - بمعنى أنه نفى أفعال العباد وأن الفعل حقيقة ينسب لله عز وجل - وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز-يعني كون الإنسان يصلي أو يصوم هذا ليس فعله إلا على سبيل المجاز مثلاً رفعي لهذا القلم على سبيل المجاز وإلا على حد قول الجهم وأتباعه أن الذي فعل ورفع القلم هو الله عز وجل وأن الذي صلى هو الله تعالى عن ذلك وأن الذي وقع في الزنى هو الله،تعالى الله عن ذلك" كما يقال تحركت الأشجار ودار الفلك وزالت الشمس ولقد أحسن القائل:

عجبت لشیطان دعا الناس جهرة إلى النار واشتق اسمه من جهنم

يعني الجهم بن صفوان يقول: "والجبرية أصل قولهم من الجهم بن صفوان- يعني تلقفوا مذهبهم عن الجهم ابن صفوان - كما تقدم وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه - يعني أنه لا حرية له ولا مشيئة له بذلك هل الإنسان له علاقة بطوله أو قصره ولونه وتقاطيع أشباهه؟ بالطبع لا يقولون وكذلك أفعاله ، فالله جل وعلا كما خلق هذا الإنسان طويل هو الذي أجبره على هذا الفعل وهو الذي أجبره على الصلاة وهو الذي أجبره على الكفر هذا قول الجبرية الذي تلقفوه عن الجهم بن صفوان - يقول: "وهم عكس القدرية وهم نفاة القدر" القدرية على النقيض من الجبرية القدرية يقولون أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه وإن الله عز وجل لا مشيئة له ولا خلق ولا اختيار له في ذلك

يقول: "فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه كما سمية المرجئة لنفيهم الإرجاء وانه لا احد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم" يعني كونهم نفوا عن الله عز وجل الإرجاء أنه لا أحد مرجأ أمره إلى الله سموا مرجئة أو أنهم أرجئوا وأخروا العمل عن الإيمان يعني نفوا أن يكون الإيمان متضمناً للعمل "وقد تُسمى الجبرية قدرية" الآن الأصل أن يطلق على المعتزلة قدرية لكن قد يسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في إثبات القدر ولهذا إذا أطلق القدرية بإطلاق يتضمن أو يحتمل أنهم المعتزلة أو يحتمل أنهم الجبرية لكن إذا ذكر القدرية مع إحدى الطائفتين تبين المعنى الصحيح والمقصود لمعنى القدرية ، "كما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد بل يغفلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع فلا يجزمون بثواب من تاب وكما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب كما لا يجزمون لمعين وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعلياً ولا يشهدون بإيمان ولا كفر- هذه أيضاً في مسألة الإرجاء- وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في السنن منها: ما روى أبو داود في سننه من حديث

عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم) "وقد تقدم الكلام أن الأحاديث المرفوعة التي وردت في ذم القدرية لا تخلو من مقال وإن الصحيح هو الموقف على بعض الصحابة كابن عمر وغيره رضي الله عنهم.

يقول: "وروي في ذم القدرية أحاديث أخرى كثيرة تكلم أهل الحديث في صحة رفعها والصحيح أنها موقوفة بخلاف

الأحاديث الواردة في ذم الخوارج" الخوارج نعم جاء فيهم أحاديث كثيرة كما في صحيح مسلم وغيرها نعم ثبت أنها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أخرج البخاري منها ثلاثة وأخرج مسلم سائرهما ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة أي مشابهة القدرية للمجوس ظاهرة لماذا؟، قال "بل قولهم أردى من قول المجوس"، المجوس قالوا بإلهين إله الخير وهو النور وإله الشر وهو الظلمة أما القدرية فقد جعلوا مع الله خالقين أكثر وليس خالقين اثنين فقط وهذا هو الأمر الذي تفوق به مجوس هذه الأمة على المجوس .

يقول: "فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقين خالق الخير وخالق الشر النور والظلمة ، والقدرية اعتقدوا خالقين - فكل إنسان يخلق فعل نفسه - وهذا البدعة المتقابلة حدثت- يعني الجبرية والقدرية والمعطلة والمشبهة إلى آخره حدثت - من الفتن المفرقة بين الأمة - يعني سبب خروج هذه الفرق وظهر هذه الفرق بسبب تفرق الأمة واختلاف الأمة - كما ذكر البخاري في صحيحة عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: (وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان ، فلم تبق من أصحاب بدر أحدا ، ثم وقعت الفتنة- يعني الحرة - فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ) ، أي: عقل وقوة " يقول كأن هذه الفرق ظهرت لما حصلت الفتن لكن بدأت شيئا فشيئا ثم ترعرعت ونشأت كلما بعد العهد عن عهد النبوة وفشا الجهل.

يقول : "فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى -بعد مقتل عثمان رضي الله عنه- والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية و الجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة -ولهذا كل ما بعد العهد كل ما كانت البدعة أكبر وكل ما كانت الفرقة أسوأ وأضل - فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا يقابلون البدعة بالبدعة" يعني لما ظهرت القدرية قابلهم المرجئة ولما ظهر الخوارج قابلهم الشيعة ولما ظهر الجهمية المعطلة ظهرت المشبهة، فكلما ظهرت بدعة قابلتهم فرقة أخرى ببدعة مناقضة لهذه البدعة.

يقول : " أولئك غلوا في علي وأولئك كفروه- يعني الرافضة أو الشيعة غلو في علي رضي الله عنه فجاءت الخوارج فكفروا علياً رضي الله عنه- أولئك غلو في الوعيد -وهم الخوارج -حتى خلدوا بعض المؤمنين في النار وأولئك غلو في الوعد -وهم المرجئة الوعيدية غلو في الوعيد فخلدوا مرتكب الكبيرة في النار جاء المرجئة فقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب فلا يمكن أن يعذب الإنسان مهما ارتكب من الكبائر مادام معه إيمان أو إسلام- حتى نفوا بعض الوعيد أعني المرجئة ، وأولئك غلو في التنزيه -وهم المعطلة- حتى نفوا الصفات -يعني غلو في جانب التنزيه فنفوا الصفات -وهؤلاء غلو في الإثبات-يعني المشبهة- حتى وقعوا في التشبيه وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع ويعرضون عن الأمر المشروع وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل - يعني من هؤلاء من استعان - بكتب اليهود وكتب النصارى والمجوس والصابئين فإنهم قرؤوا كتبهم " غالب هؤلاء متأثرين بالفلسفات والديانات السابقة لأنهم نشئوا في أماكن كثير فيها أرباب وأصحاب هذه الديانات كما ذكر الشيخ أن واصل بن عطاء عاش في حران؛ وحران مليئة بالفلاسفة يقول : " فصار عندهم من ضلالتهم ما ادخلوه في مسائلهم ودلائلهم وغيره في اللفظ تارة وفي المعنى أخرى ، فلبسوا الحق الباطل وكتبوا الحق الذي جاء عن نبيهم ففترقوا واختلفوا فتكلموا حين إذن في الجسم والعرض والتجسيم نفياً وإثباتاً "يعني تكلموا بهذه الألفاظ المجملة التي لم ترد في الشرع لا بنفي ولا إثبات فمنهم من أثبتها ومنهم من نفاها بسبب تأثرهم بالفلسفات والديانات السابقة.

◀ سبب الضلال العدول عن الصراط المستقيم الذي أمر الله بإتباعه :

نقول وسبب ظلال هذه الفرق وأمثالها عدوهم عن الصراط الذي أمرنا الله بإتباعه {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَرُوا عَنْ سَبِيلِهِ} وقال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} ثم ذكر الكلام على الصراط وذكر حديث ابن مسعود لما خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا

يقول: "ومن هنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية صراط الله المستقيم" يعني أن العبد مضطر لأن يسأل الله عز وجل أن يهديه صراطه المستقيم لأنه لا هداية له وسلامة له إلا بالتزام صراط الله عز وجل المستقيم

ثم قال: "وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى قال: فمن) قال طائفة من السلف من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن انحرف من العباد ففيه شبه النصارى"

*الشاهد: أن كلامه هذا كله يدعو ويبين أن السلامة في التزام منهج الله عز وجل ولزوم صراطه المستقيم الذي هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثار الصحابة .

يقول: "ولفرق الضلال في الوحي طريقان" يعني موقف أهل الضلال من وحي الله عز وجل طريقان :

١- طريقة التبديل . ٢- طريقة التجهيل

أما أهل التبديل فهم نوعان : ١ / أهل الوهم والتخييل و ٢ // أهل التحريف والتأويل

١/ فأما أهل الوهم والتخييل فهم: الذين يقولون أن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور وهمية خيالية لا حقيقة لها

٢/ وأما أهل التحريف والتأويل فهم: الذين يقولون أن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر يعني يقولون الأنبياء لم يقصدوا لما جاءوا بالوحي ظاهر النص إنما قصدوا معنى آخر بعيد ولهذا سموا أهل التحريف والتأويل حرفوا النص إلى معنى آخر .

يقول: "وأما أهل التجهيل والتظليل: الذين حقيقة قولهم أن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات" وأهل التجهيل والتظليل زعموا أن ظاهر النص لا يعلمه إلا الله عز وجل فكأنهم اعتقدوا أن الأنبياء جاءوا بكلام لا يفهم معناه فهم أهل جهل يجهلون معنى هذا الكلام ثم اختلفوا فيما بينهم هل الأنبياء يمكن أن يعرفون أو لا يعرفون أشار المؤلف إلى شيء من ذلك أن منهم طائفة زعموا أن الأنبياء علموا ذلك لكن لم يبينوه للناس ومنهم من زعم أن الأنبياء لم يعلموا ذلك في الختام قال المؤلف: "نسأل الله السلامة والعافية من هذه الأقوال الواهية المفضية بقائلها إلى الهاوية وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين" .

ونحن نقول سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك ونسأله سبحانه وتعالى الإخلاص في القول والعمل وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .